

زكريا عبد الجواد

قُبَّعَةُ الوَطَن

رواية



رواية

زكريا عبد الجواد

• كاتب من مصر

• صدر للمؤلف أيضاً



حين انطلق قاطعاً الممر الطويل، كان هناك ما يدور فى ذهنه.

فكرة طارئة، أو نزوة مجنونة.

لم يكن ثمّة أحد، ولا حتى كاتم أسراره، ليستطيع اختراق الحجب، كي يدرك السبب الذى يدعو رجلا له تلك المهابة، كى ينهض من دفء سريره، ويتمشى في حديقته الرئاسية.

لكن، ما أن حطّ زعيم الأمة قدميه، حتى أحاطته من بعيد، عيون حراسه الخصوصيين...

ورفرفت حوله أفئدة شعب لاتنبض إلا إذا سمح لها بالوجيب.

راح يسير بين أشجار تتمايل أغصانها لتحيّته، وعصافير استفاقت للتو على وقع خطواته، فانتفضت من رقدتها لتغرد.

أدرك أن شعباً كهذا، لايمكن الاعتماد عليه فى تحقيق طموحاته، تلك التى لاتستوعبها مساحة البلاد، ولا تقف أمامها حدود المنطقة، ولايقدر على إنجازها ببشر افترستهم الاستكانة وفقدان الهمة.

خلُص في النهاية إلى استنتاج مثّل له لحظة فارقة:

«هؤلاء قاصرون، أشبه بأطفال لفظتهم بطون أمهاتهم، قبل اكتمال النمو.

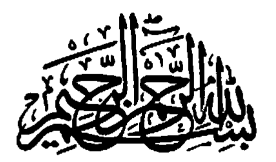
هؤلاء الذين ابتُليت بحكمهم، مجرد شعب من الخُدّج ... نواتج لولادات مبتسرة».





www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

قُبَّعَةُ الوَطَن



قُبَّعةُ الوَطَن

رواية

زكريا عبد الجواد



الطبعة الأولى

1429 هـ - 2008 م

ردمك 978-9953-87-255-1



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

الفصل الأول

(1)

حـــين انطلـــق قاطعـــاً الممر الطويل، كان هناك ما يدور في ذهنه.

فكرة طارئة، أو نـــزوة مجنونة.

لم يكن هناك من أحد، ولا حتى كاتم أسراره، ليستطيع اختراق الحجـــب، كـــي يدرك السبب الذي يدعو رجلاً له تلك المهابة، أن ينهض من دفء سريره، ويتمشى في حديقته الرئاسية.

لكـــن، مـــا أن حطّ زعيم الأمة قدميه، حتى أحاطته من بعيد، عيون حراسه الخصوصيين...

ورفرفت حوله أفئدة شعب لا تنبض إلا إذا أذن لها.

راح يـــسير بـــين أشـــجار تتمايل أغصانها لتحيته، وعصافير استفاقت للتو على وقع خطواته، فانتفضت من رقدتها، لتغرد.

وطن بأكمله، بكل فئاته، بقواه العاملة وأجنته التي في الأرحام، لا حـــديث لمن فيه إلا عنه، لا أحلام تدور إلا في فلكه، ولا أمنيات إلا بنيل الرضا منه.

ظـــلّ أياماً يختلي بنفسه، يبحث عن طريقة للتعامل مع شعب مضجر، كالذي ابتلي به. جرّب دون جدوى طرقاً كثيرة، ليضخ في عـــروقه الحمـــية، أصدر قرارات قاسية، وقف في المهرجانات ووجّه خطباً مهينة، أطلق سخريات، دون أن يهب من بينه فرد واحد، كي يقول للمهيب، كفى.

رضاء الشعب الدائم، أدخل في نفسه مللاً، إذ وجد مواطنيه في كــل الأحوال يستبدلون مشاعر السخط بالفرح، الثورة بالإعجاب، والاعتراض بقبول الأمر الواقع، وتوجيه الأكف امتناناً لأقدار وضعت في طريقهم ملهماً، لا ينطق إلا شعراً ولا تفيض منه إلا الدرر.

كانـــوا في كل مرة يستغفرون من خطاياهم، يطلبون العفو إن حـــدث وراودت أنفـــسهم الأمّارة بالسوء، بعض الظنون في مغزى شتائم يصبها عليهم.

كان شعباً قانعاً في كل الأحوال، يمتلك هدوءاً لا تأتي من بعده عاصفة، فلا القنوط يجبـــي، ولا النوايا تبزغ.

وعلى عكس الحكام الذين يواصلون الصلوات إن وجدوا وقتاً، ويدعون فيها بالهداية للشعوب، كان اليأس من سكينة مبالغ فيها، قد داهمـــه، سأم من شعب يصحو ليسبّح بأمجاده، وينام على الدعاء له بطول العمر، يتنافس في التناسل، كي تحظى الأجيال الواعدة، ببعض مواهب القائد الدائم، دوام الأنفاس في الصدور.

الـــزعيم المهـــيب، قائد الوطن ووالد الشعب، ملجم الأنفاس، وحاصـــي أعـــدادها، عارف النوايا حتى من قبل أن تمر في الأذهان، وزوج الـــسيدة الحـــنون أم الفقراء، بهجة المساكين، وسيّدة البلاد والعباد، العطوف الرؤوم، التي تطلع الشمس لابتسامتها، ويطل القمر ليـــسطع علـــى وجه زوجها، ظل مشغولاً بالبحث عن حل لمشكلة باتـــت تـــؤرقه، بعد ما أدرك أنه لم يعد يحكم شعباً حياً كشعوب الأرض، تلـــك الـــتي ترضى قليلاً وتتبرم، تغضب أحياناً وتتحرك، تصرخ، تناقش، ترفض، تعترض، أو تمتعض.

كـــان الرجل الفذ، الأشبه بيلدوزر، عنيفاً، وهم بجميع طبقاتهم راضـــون، يحمـــدون له ما يفعل، وتسير حياتهم في الصباح والمساء

رتيبة، إلى حد أنه أصبح على قناعة في نهاية الأمر من أن هؤلاء الذين يحكمهم أقرب إلى أموات، وإن كانوا يسيرون على الأرض، ويهتفون.

انطلق يذرع حديقة القصر الرئاسي، رائحاً غادياً، ينقّب في مخيخه المحاط بجدران حماية عالية - عن فكرة مبتكرة تصلح للتعامل مع هكذا شعب.

لم يتوقف عن المشي، مشغولاً عن الدنيا ومن فيها، إلا عندما لاحت في ذهنه. عندئذ توقف، فانحبست أنفاس الكائنات المحيطة، الحرس المدججين بعيون زجاجية، والطيور التي اختبأت في أعشاشها، والجرذان المنتظرة لحظة مغادرته لتخرج من قلقها... كل ما حوله بات مسكوناً برعب.

كانت الفكرة بسيطة، لم يفعلها حاكم، ولم تشر بها في أي يوم كتائب المستشارين على زعماء من أمثاله تقول وسائل الإعلام انهم ولدوا هكذا... ملهمين.

وحده جاءت إليه، عندما راح يتذكر مواقف حدثت منذ تولّيه حكم البلاد، استعرض القرارات التي اتخذها، الخطب التي ألقاها، المواقف التي خرج فيها عن النص، استذكر ردود أفعال الشعب، المسيرات التي اندلعت لأجله، صوره المعلقة في المنازل والميادين، يستبشرون برؤية بهائها في الصباح وتنير لهم فضاء الليالي في أشد أوقاتها عتمة، بمجسماته التي تكاثرت حتى تجاوزت تعداد الشعب، بالأغاني التي تفرغ مؤلفوالوطن لكتابتها، وعددوا فيها خصاله وجماله، وحنان قلبه المفرط.

أدرك أن شعباً كهذا، لا يمكن الاعتماد عليه في تحقيق طموحاته، تلك التي لا تستوعبها مساحة البلاد، ولا تقف أمامها

حـــدود المـــنطقة، ولا يقدر على إنجازها ببشر افترستهم الاستكانة وفقدان الهمة.

خلص في النهاية إلى استنتاج مثّل له لحظة فارقة:

هـــؤلاء قاصـــرون، أشبه بأطفال لفظتهم بطون أمهاتهم، قبل اكتمال النمو.

أقنع نفسه، بأن من يحكمهم بحاجة إلى إطار كالرحم، حتى تمر الأوقات الحرجة بسلام.

دار كـــثيراً في حديقـــته الفسيحة، تطلّع إلى السماء مراراً، شدّ أنفاســـاً من سيجاره، نفث دخانه، فتنشقته الأشجار بامتنان، نطق فجـــأة، فاصـــطكت أســـنان كائناته، واصطدمت سحائب عابرة، وارتعدت الفرائص:

- "الخدج".

توقف عندها ملياً، قبل أن يعاود الترديد:

- هـــؤلاء الـــذين ابتليت بحكمهم، مجرد شعب من الخدج... نواتج لولادات مبسترة.

(2)

بمرســـوم رئاســـي، وشعارات محفزة، انطلق المنتمون إلى فئات الـــشعب في مهمـــة قومية، راحوا يواصلون الليل بالنهار، خوفاً أو طمعـــاً، لتحقـــيق رغبة قائد المسيرة، ودون أن ينبس أي منهم ببنت شـــفة، تحسباً من أن تلتقط خيوط الفكرة العبقرية، تحوّل الوطن إلى ورشـــة ضـــخمة، راحت تواصل عملها في صمت، أخذ الحفّارون يغرسون آلاتهم في بطن الوطن يخرجون من أحشائه أحجاراً ورمالاً، تحقـــيقاً لرغبة الملهم في تحقيق الاكتفاء الذاتي وعدم استيراد أي مادة

للبـــناء مـــن الخارج، فمن الذي يضمن عدم انكشاف السر، لهؤلاء الفـــضوليين الـــذين تذخـــر بهم الدول الشقيقة والصديقة، الذين لا يـــتورعون عـــن دس أنوفهم، ومط آذانهم، لالتقاط أي معلومة عن الأفكار الخارقة التي تطرأ بين الحين والآخر في الذهن الخصب.

راحـــوا يجمعون المواد اللازمة لبناء الحضانة، وبعد الانتهاء من تـــصميم الـــشكل النهائي، بدأت المرحلة التالية، الانتقال إلى حدود الوطن، وانطلاق ساعة إنجاز المهمة في أسرع وقت، في هذه المرحلة لا بـــد من اتخاذ الاحتياطات، فمن غير المستبعد أن يحدث ما يخشى منه، فيتم إفشاء ما يخفى.

استدعى كبار مستشاريه، أمرهم بإبلاغ العمال أن يردوا على كل من يتساءل عن البناء، بكلمة واحدة: "جدار".

لم يكن مسموحاً لهم أن يزيدوا عنها، وهو ما أثار دهشة حكام دول الجوار، ورفع درجة التساؤلات لدى شعوبها، لم يكن أحد من مـــواطني تلك الدول، يتصور أن الزعيم يمكن أن يعزل بلده يوماً عن محيطها، بعد أن ظلت وسائل إعلامه تردد في العلن عند كل مناسبة، نفـــس الأقاويل المعلّبة التي ترددها وسائل إعلام دولهم، عن صلات الدم والمصير، فيما في السر، كان رفقاء المصير المشترك والدم الواحد، يواصلون مساعيهم للحصول على قروض دولية وضمانات، لسلاح لا بد من تكديسه، تحسباً للأطماع الشقيقة.

تواصـــل البناء، تجاوز الأمر حدود الأساس، أخذ الجدار يرتفع، رآه الجميع وهو يلتف حول الوطن من جميع الجهات، لاحظ الجيران وجـــود حـــشد هائل من العمال، يقطعون الليل بالنهار، نشاط لم يعهدوه من قبل، أخذت الهواجس تتحرك في أقفاص الصدور، فخرج الهمـــس وكثـــرت التـــساؤلات، ما دعا حكام الدول الشقيقة إلى

الاتـــصال بالزعيم، لمعرفة الحقيقة، ما الذي يدعوه لإقامة سور هائل مع بلدانهم، في وقت يعزفون هم فيه أناشيد الأخوة والوحدة والمصير المشترك؟ تساءلوا كلهم وكأنهم على اتفاق، ما الذي يمكن أن يبرروا بـــه تلـــك الفعلة لشعوبهم، المشغولة بالحديث عن الجدار، وبتبادل شـــائعات وحكايات متضاربة، راحت تسري مثل النار في الهشيم، حـــتى أن الخـــوف ازداد مـــن تصدع العلاقات الوثيقة بين شعوب المنطقة، التي لم تشهد أصلاً في أي يوم من الأيام وئاماً، وإن أفلحت الجهود التي تجرى سراً في إظهارها للعالم الخارجي سمناً وعسل.

(3)

ظـــل متمسكاً بمراوغاته، فلا إجابة شافية قدّمها، ولا تطمينات لمخـــاوف أخـــذت تسري لديهم، تحذّر من أن يكون في الأمر نوايا غدر، أن قام بتحصين نفسه وتركهم في صقيع العراء.

قـــال إن الأمر لا يتعدى بناء جدار في المرحلة الأولى، على أن يتم في مرحلة لاحقة عمل فتحات في جنبات، سوف تكون كافية، لتمد الشعوب الشقيقة أياديها عبرها، وتصافح أبناء وطنه.

ســـادت الشكوك لدى الحكومات المجاورة، تنادي قادتها الذين تـــشرفت بحملهم يوماً ظهور الدبابات، إلى اجتماع قمة للتدارس، واتخاذ خطوات مشتركة تكون بمستوى التحدي.

قرروا بعد جلسات سرية وعلنية، ومشاورات مكثّفة ومباحثات عميقة، تدارسوا خلالها التطورات الجارية، من جميع جوانبها، أن لا يقومـــوا بأي خطوة قد تستعدي البلدوزر البشري عليهم، وأن تدور مشاوراتهم حول هذا الأمر الجلل في تكتم، يتم بعدها اتخاذ القرارات المناســـبة الـــتي هي في العادة، تصب في صالح البلاد والعباد، وتمتد

لتفرش غطاءها حتى على ما سيأتي من أجيال.

وفيما هم يقطعون الوقت في التباحث وتبادل الأنخاب، كان هو مشغول بأمور أهم، إذ راح يواصل طريقه المعتاد، يصحو من نومه في أي لحظـــة ملهمـــة، يهب قافزاً من سريره الوثير، يتجه إلى الحديقة، تحـــوطه عيون العسس، وتطير حواليه، كما في كل مرة، قلوب أبناء شـــعبه خفاقة، يظل يسير، رائحاً وراجعاً، فيما الفراشات، ترفرف بأجنحتها الشفيفة، تلقي على وجنتيه نسمات حانية، لتساعده على التفكير بعمق، لأجل الأمة الصامدة، ذات الحضارة الخالدة.

كانت تلك عادته اليومية، فكلما طرأت على ذهنه النضر فكرة مـــا، قام على الفور، مهما كانت أحوال المناخ، إلى الحديقة، مكان إلهامـــه في لحظـــات مصيرية شهدتها جمهوريته الملكية، منذ أن طلع السعد على جبينها... فأشرقت به.

(4)

واصـــل تنفيذ خطته، غير آبه بأراء الآخرين، ولا بأية مخاوف تساورهم، كان يعلم أن من حوله من قادة الدول المجاورة يضمرون لـــه الكراهية، يحسدونه على شعبه الوديع، على استمتاعه بالسخرية من مواطنيه دون خشية احتجاج.

يـــدرك أنهم تمنوا لو كانت لديهم شعوب شبيهة بالماء حيث لا لون ولا رائحة، غير أنه أيضاً كان يراهن في علاقاته مع الجيران، على الـــزمن، متيقـــناً من أنه سيتكفل بطي صفحة شكوك انتابتهم تجاه الجدار، لم يكن لديه النية لشرح الأمر لهم، لطمأنة مخاوفهم، قبل أن يـــرى بـــأم عينيه جميع أبناء الشعب يعيشون معاً داخل تلك البوتقة هائلة الاتساع، المسقوفة بقبعة تغطّي رأس البلاد من جميع الجوانب،

وهى تحجب الهواء والشمس والقمر عن رعاياه، وقبل أن يشاهدهم بــأم عينــيه وهــم يــستمتعون بالهواء المعقم، والأكل الخالي من "الكوليسترول"، ويستسلمون لهدهدة ما قبل النوم.

ظــل وهــو يقطع أركان الحديقة بحثاً عن لحظة إلهام عبقرية، يــؤكد لنفــسه أن الحضانة عمل جليل، يصب في النهاية في صالح الهدف القومي، ويتّسق مع متطلبات الاستراتيجية العامة، بل إنه أحد الركائــز الهامــة فيها، فأي إصلاح للشعب، لن يتأتى بغير تقويمه، رعايــته مــن الألف إلى الياء، إعادة تأهيله، ببعض خصال الشعوب الأخرى ومن بينها التبرم.

لم يقطــع عليه خلوته إلا مستشاره، ذلك الصديق الأقرب، هــذه المرة دعاه ليسمع تقريراً عن ردود الفعل، أثاره ما أبلغ إليه مــن انــزعاج الدول المحيطة والاجتماع الذي عقدوه على عجل للتشاور.

علا صوت الزعيم معلقا:

- ليجــتمعوا ما شاءوا، فلا تراجع، لقد ظل الأمر هاجساً لي، بعــد أن مرت شهور العسل الرئاسية، استهلك مني وقتاً وأنا أسأل نفــسي عمــا يمكــن عمله، ألا تدرك أن التفكير في ذلك بدأ منذ الأطاحــة بالحــاكم السابق، - ذلك الرجل النائم، الأشبه بمن كان يحكمهم؟

مــنذ ذلــك الوقت، وبعد أن وجد نفسه قد أنهى الأمر خلال ســاعة واحدة، ودون حاجة إلى خطة عبقرية، ولا رصاصة رحمة، أدرك أن هناك مايمكن تحقيقه بيسر، فلماذا يتوقف عند الحد الأصغر، إذا كان بالإمكان رفع سقف المطامح؟

غــير أنــه في أعقاب ذلك، وجد الشعب الذي كان قبل يوم

واحد يحتشد في الميادين، يقيم مهرجانات الاحتفاء بالحاكم السابق، يتدفق هذه المرة أيضاً، ويغطي الميادين ذاتها والشوارع المتفرعة، ليهتف بحياة القائد الجديد، منقذ البلاد وحامي الحمى ومعشوق العباد، وواهب الهواء للرئتين.

أدرك منذ تلك اللحظة، أنه أمام حالة يعرفها، وأن لم يخطر بباله قدرتها على استبدال الجلود، غير أنه تماشى مع الأمر، فهو في النهاية حاكم، له القيادة، ولهم الهتاف ليلاً ونهاراً، والخروج إلى الشوارع، مدججين بالرايات والصور. هو الرمز وهم من يجب عليهم الاجتهاد لإقامة النصب التذكارية والتماثيل، والكتابة في الصحف عن سجاياه البديعة، والإيمان الصادق بأنه لم يكن للبلاد من قبله ذكر، ولن يكون لها من بعده حياة.

وعلى الرغم من ولعه في البداية بالهتافات، وسعادته بقيادة شعب مستكين، مسالم، بارع في التكيّف، يتفوّق على أقرانه من الشعوب الأخرى، في القدرة على طلاء الروح والنوايا وفق أهواء من يحكم، رغم ذلك فإن الزعيم بمرور الأيام فالسنوات، أصابته حالة اشمئزاز، نبعت من اعتقاد بأن قدراته ستكون في أعظم حالاتها، إذا كان هناك من يعارض، من يستاء، من يكتب رأياً ليس ينسجم مع توجهاته، فيتاح له استخدام الأدوات التي يمتلكها، ليتلذذ بالقمع والتنكيل والالقاء في السجن، أليست هذه أهداف جليلة؟ أليس يفترض به تحريك قوات الأمن لمثل هذه المهام الكبرى، ما دامت دول الجوار لا تملك الجرأة على استفزاز بلاده أو الدخول معها في حرب، إذن؟ ما الذي يجب على الحاكم في هذه الحال، غير اختراع ما يشغل جيش قام بصرف الملايين على

تسليحه؟ عليه أن يستخدمه في قمع مظاهرة، اعتقال طلاب، أو منع اجتماع نقابي، غير أن الشعب البليد لا يريد إعطاءه فرصة، وهو ما دفعه إلى إطلاق السباب، للسخرية منه، دون أن يجد صدى.

منع التجمعات والندوات، أغلق الأحزاب، أوقف الصحف، اعتقل الطلاب دون سبب، عسى أن يخرج من الجامعة من ينتصر لزملائه، أعاد الصحف من جديد، غير أنها عادت لتسبّح بعطاياه، تشيد بمناقبه، أدرك أنه لا فائدة مع هؤلاء، لا القمع يجدي ولا التجاهل، بات المتاح أمامه هو القبول بحقيقة كونه أصبح مجرد حاكم، لشعب خامل، نائم وكسول، لا إحساس لديه ولا نخوة، وهو ما لم يكن ليتلاءم لا مع مواصفاته الشخصية، وطبيعة تكوينه، ولا أحلامه، والظنون التي كانت داعبته حين فكر في الانقلاب على الحاكم السابق، كان لديه اعتقاد بأن الصعود إلى حكم ذلك البلد خطوة أولى سوف ينتقل بعدها لتحقيق أحلامه، كان أوهم نفسه بأن حجمه أكبر من رداء الوطن، وأن قدراته الذهنية أضخم من أن تستوعبها بقعة ضئيلة ألقيت بإهمال فوق رقعة العالم.

عند هذه النقطة، أدرك أنه لا بد من إعادة تقويم الشعب، صياغته على مقاس الحاكم، قرر البدء في عملية عاجلة، مهمة وطنية لإعادة تربية الشعب، وتعديل سلوكه، كي يستطيع الاستفادة منه في النهاية في تحقيق طموحاته، واكتساح البر والبحر، وامتلاك ما تستطيع النفس اشتهاءه، وما يمكن للأحلام أن تبلغه.

(5)

بناء الحضانة مثّل الخطوة الأولى في طريق قرر السير فيه لتحقيق الهـدف، خلالهـا سيكون عليه طمأنة الجيران، وإزالة الشكوك التي أخـذت تـساورهم، اختار أن يرسل مبعوثاً لتبديد مخاوف راحت تنـتابهم، أمره بعدم كشف سر الجدار، أن يقول كلمات مراوغة لا يستطيعون منها استشفاف النوايا.

وفي وقـت راح فيه رسوله ينتقل من دولة إلى أخرى، كان الـزعيم يـشرف بنفسه على عمليات البناء، ساعياً إلى تسريعها بأقـصى مـا يقدر عليه العمال، يتابع في كل وقت المراحل التي أنجزت، انطلق في سباق حقيقي مع الزمن، فأي تأخير لن يصب في مـصلحة نجاح العملية الفريدة، ويمكّن المتطفلين من هتك أسرارها وخدش قشرتها.

راح حاكم كل دولة من الدول المجاورة يطرح التساؤلات، عن الأسباب، والتوقيت، والسر وراء إقامة السور العازل، وما إذا كانت تلك الخطوة مقدّمة لمقاطعة شاملة مع دول الجوار، فيما كان المبعوث يديـر اسطوانة الردود التي سبق أن مجها في كل بلد زاره، غير أنه في آخـر دولة حط رحاله فيها، جوبه بسؤال لم يكن قد استعد له، ولم يخطر على بال حكماء المستشارين ورجال الزعيم.

انطلق السؤال من رئيس أصغر الدول المجاورة مساحة وسكاناً، إذ تـساءل عن السبب الذي دفع بلاده إلى هدم كل بناية تزيد عن طابقين، في وقت يواصل فيه الجدار ارتفاعه.

المبعوث كان يدرك أن السلطات شرعت بأمر رئاسي في قطع رؤوس البنايات حاسمة للبنايات العالية، حتى أن أعظمها في نهاية الأمر

لم يـتطاول سمـوقاً لأكثر من عشرة أمتار، فالمخطط الذي وضعه العبقـري، لم يكن من الجائز لأحد أن يعيق تنفيذه، ولو تطلب الأمر إجراءات أشد قسوة مما يتوقع المتلكئون، لا أحد كان مسموحاً له في أي لحظـة بالـتفكير في الخـروج عن السياق، في التسبب بتعطيل مـشروع يعتبره الملهم أهم الانجازات الرئاسية، والأثر الذي سوف يتركه بعد عمر طويل للشعب البليد.

عـشرة أمتار فقط هي أكبر الارتفاعات المسموح بها في حمى هـذا الـوطن، أما الحضانة فتعلو حتى خمسة عشر، على أن تكون الفـراغات فـيها جاهزة لأية إشارة منه، وهو وحده، من سيحدد طريقة استغلالها.

أخـذ الجدار يرتفع، وراحت العمائر تتهاوى، كل ما خطط له مـضى متزامناً، يد تبني ويد تحمل معول الهدم، والجميع على درب الوطن، ولأجل عيون الشعب، وإرضاء المفدى، ويوماً بعد يوم أخذ ضـوء الـشمس يتضاءل، في البداية راح ضوء الصباح يتراجع عن مـوعده، إذ يـصطدم في بداياته الباكرة بالجدار، ومن وقت لآخر، اعـتاد السكان على بدء يومهم متأخراً عن السابق، حتى انتهى الأمر بهـم بعد وقت، إلى الاستمتاع بلذة النوم لفترات أطول، وإلى اعتبار ان ذلـك التغيير، هو إحدى إنجازات الرجل الذي يفكر في كل ما يجلب الراحة إلى رعاياه.

انطلق الشعب ينعم بعطايا الحاكم، وعلى الرغم من أن مواعيد الصلوات تغيرت بفعل الشمس، فإن المواعيد البديلة كانت تشهد في عمومها وقتاً إضافياً يخصص في العادة للدعاء للمحبوب، بطول العمر ودوام العافية، وأن يظل عهده مديداً يتمتع به الوطن أكثر، ولا يحرم من طلعة الإشراق.

اعـــتاد الشعب على التغييرات الجديدة، حتى أن النهار لم يعد يـــصل إلا في فترة الزوال، يطل عليهم فجأة من الأعالي، إذ تنتصب الـــشمس في منتصف السماء، تلقي إليهم بخيوط ضوئها حيناً وبحمم اللهيب الحارق من بعد، ثم تلملم أشعّتها وتغادر المشهد، تنـــزوي في ركنها، وتنام.

لم يكـــن ذلـــك ليسبّب أي حزن للشعب الطيب، فهكذا أراد الملهم، ولعل في إرادته حكمة يعلمها، لا يدرك كنهها أي من أفراد الشعب، غير أنه وحده كان سعيداً بالتطورات التي تجري أمام عينيه، فكلمـــا غابت الشمس، وتأخر حضورها، كان يعني بالنسبة له، أن مشروعه الفريد، يسير في طريقه، يقترب من يوم إلى آخر نحو لحظة التحقق.

أدرك عـــندئذ أن الخطـــوة المنتظرة، سوف تكون في الغطاء الـــذي بعد أن يتم تركيبه ستنغلق دولته تماماً، ذلك الغطاء الذي نبعت فكرته داخلَ يأفوخه الألمعي، وشارك في تجسيده على أرض الواقـــع، إنطلاقـــاً مـــن توجيهاته السديدة، جيش من المهندسين والكيمائـــيين ورجال الصناعة، ورصدت له اعتمادات خاصة في موازنة الدولة.

هنا كان على الزعيم أن يشعر ببعض الاطمئنان انتظاراً لاكتمال الحدث الأهم، ذلك المتمثل في وضع الغطاء المقعر فوق هامة البلاد، إغلاقهـــا تمامـــاً، وإبعاد الوطن المحروس، عن الهواء القادم من العالم الخارجـــي، لم يتـــبق إلا عدة أيام بعدها سيكون من السهل عليه أن يمسك بمفتاح الوطن، يمنع أي كائن يدب فيه، من البشر والزواحف، إلى الفراشـــات وحبوب اللقاح، من أن تدخل أو تخرج من حياض الحمـــى، إلا إذا سمح لها أولاً، أليس هو الحاكم المتحكم المانع المانح

الـــرافض، المنعم والمقتّر، من فعل مثل تلك الفعلة قبله، بل أصلاً من فكّر فيها، ومن مرت يوماً على مخيلته، غيره هو؟

ازداد تيهاً، داخله شعور بأنه اقترب كثيراً من الإمساك بأنفاس المواطنين، سوف تتيح له هذه الحضانة إمكانية إحصاء الشهيق المتسلل إليها وما تنفثه زفيراً، أو شخيراً، أو آهة أسى.

سوف يتحكم في الجرعات الممنوحة لرئات أبناء الشعب، وفي الحـــدود المقنـــنة لمعاشرة الأزواج، وتحديد من سوف يكون عليهن الانجـــاب، ومـــن ســـيمنعن، أعـــداد الأطفال، أنواعهم، جنسهم، والأمـــراض الـــتي سيتركها تعبث بأجساد من سوف يفكر ولو لمرة واحدة في الانقلاب عليه.

بدأ يعد نفسه للتطور الهائل الذي اقتربت ساعة صفره، غير أنه في تلـــك الأيـــام راحت تداهمه أحلام اليقظة وهو يسير في جنبات حديقـــته الرئاســـية، ورشة كاملة دبت في رأسه، نقلته من حلم إلى آخـــر، وراحـــت تتقافز، اشتعل الرأس هوساً، بانتظار القادم الذي اعتبره حالة خاصة، لم يسبقه إليها أحد، ولا يمكن أن تصدر إلا عن عقل شديد اليقظة، باذخ العبقرية كالذي لديه.

بينه وبين نفسه، راح يصب لعناته على الذين ألقى الحظ العاثر بهم في طريقه، هؤلاء البلداء، غير القادرين على التجاوب مع أفكاره العبقـــرية، ماذا لو كان له شعب آخر؟ ألم يكن بإمكانه التحكم في هذا العالم؟ تسييره وفق ما يهوى؟

راح يتصور، لو أن هذا العقل اللامع، تزامن مع شعب لم تصبه لعـــنة الخمول والنفاق وتبويس اللحى؟ لو كان لديه أصحاب عقول يقظـــة؟ لـــو لديه بشر يمتلكون الحد الأدنى من الطموح، يناقشون، يقوّمون، يعترضون قليلاً، كقليل الملح الذي لا يفسد طعاماً، لو كان

لديه من له بعض تلك الصفات، لامتلك الدنيا، وسيطر على الأرجاء، بحار العالم ومحيطاته، أسماكه ونسوره، أفياله، غاباته وصحراواته، السحب التي تروح بيضاء أو داكنة إلى مستقرها، والرياح.

(6)

فجأة وجد نفسه في عمق أحلام هائلة، اشتط به الخيال وازداد ولعاً بالقادم، أكّد لنفسه ليقلّل من حجم الحسرة التي يشعرها، قدر الاحتقار لهؤلاء الذين فرضهم القدر عليه، فثورته المباركة كانت تهدف إلى إبعاد الحاكم الأسبق عن الحكم، تلقينه درساً، بعد أن امتلأت شوارع البلاد بتماثيله وصوره، بعد أن راح الشعب يسبح بسجاياه منذ بداية الصباح، كانت الإشادة به عملاً وطنياً، على الجميع تأديتها كواجب أخلاقي، وكان ذلك ما يثيره شخصياً، يجلب الغيظ إلى نفسه، إذ كان مطلوباً منه أن يقوم بمثل ما يقومون به، كان المناخ العام يفرض عليه ذلك، وإلا سيعتبرونه صوتاً نشازاً، شخصاً ستلاحقه نظرات الازدراء، ربما تصل الأمور إلى حد اتهامه بالإلحاد، أو يتم التشكيك في سلامة قواه العقلية، لو أنه فكر يوماً في النكوص عن أداء واجباته تجاه القائد الأكبر.

الأمر لم يفرض على الشعب، فقط انبرى اناس يوجد أشباههم في مختلف الأزمنة، بالغوا في مديح الحكام، مد الأجساد أبسطة لهم، هؤلاء في النهاية، ودون أن يبدي القائد الأكبر أي معارضة، حوّلوا النفاق من شعارات تقال هنا وهناك، إلى واجب تحتّمه الأعراف، وسلوك يحدد درجة الوطنية، ووسيلة ضرورية للعيش في هدوء داخل حدود الوطن المعطاء وفي كنف قائده.

ومع أنه كان يدرك تلك الحقيقة، إلا أنه في النهاية وجد نفسه يعـيش حالـتها، يغنّـي مع الذين ارتفعت حناجرهم، يهتف مثلما يفعلون، ما أدخل في نفسه مللاً، راح يزداد احتقاناً فيما بعد، بحكم تكويـنه الطاووسي، وهوسه العارم بشخصه، والنوازع التي أخذت تتـسرب إلى عقله في الآونة الأخيرة، والتي راحت تحضه ليس على مجرد التوقف عند حدود الامتعاض، بل تصل به في بعض الأحيان إلى ارتكـاب نية التمرد، وهي التي أسرها في نفسه في البدايات الأولى، حـتى انطلقت في نهاية الأمر من عقالها، وراحت تحرضه على ترتيب أفكاره، لتصب بعد وقت، في اتجاه واحد، لم تحد عنه منذ أن دخلت في طـريقه، ذلك الذي أدّى به في النهاية إلى إطاحة الحاكم السابق، بانقلاب أبيض، سمّي فيما بعد ثورة مباركة.

وعندما امتطى الزعيم الجديد ظهر الوطن، وبدأ يلملم تفاصيل كانت غائبة، اكتشف أنه حصد الخديعة، تورّط في شعب، الذي قاد دبابـته ذات صباح ليحكمه، ثم وصل إلى قناعة في النهاية، دفعته إلى الـتفكير في ضـرورة، تعديله وفق مزاجه، ولو حتى أدّى الأمر إلى إرجـاع جميع المواطنين إلى بداية مرحلة الطفولة، إلى درجة أنه قام بتخـيّل هؤلاء وهم يهبطون في سلام من بطون أمهاتهم، توقّف عند ذلـك المـشهد، فتلك هي اللحظة الوحيدة التي يستطيع فيها تعديل السلوك، وتوجيهه إلى حيث يرغب.

بدأ العمال في حذر يقومون بتركيب قبّعة الوطن، كان حجمها هائلاً، احتاجت في البداية إلى سواعد عشرات الآلاف من البشر كي تـرفع مـن فوق الأرض، المساحة التي شغلتها كان ممنوعاً الاقتراب مـنها، دائرة هائلة محظورة، حين ستصعد إلى الأعالي، سوف تغطّي الوطن بأكمله.

عـــندما انحنى العمال لرفع القبعة، كادت ظهورهم تنكسر، جيء بمـــدد إضافي، احتاج الأمر إلى المزيد، تم استدعاء الجميع للمساهمة في المهمـــة القومية، فيما وقف الزعيم في الساعات العصيبة، كما اعتاد إلى جوار شعبه يتحسس نبضه، لكن داخل سيارة شديدة الفخامة، يعكس سطحها اللامع على الشعب حرارة شمس الصيف القائظ، مرتدياً نظارة ذات عدسات قادرة على سبر أغوار ما تخفيه الجوانح.

أدرك مـــن خلال جلسته المريحة، أن شعباً رخواً لن يتمكّن في النهاية، وبعد العديد من المحاولات، من رفع الغطاء الهائل، وإن أفلح في رفـــع جزء منه فإن النتيجة لن تسفر إلا عن كارثة، تدمّر الغطاء وتقتل في طريقها أعداداً، لم يكن المهم من يموت، فكل الاحتمالات قـــد تـــستدعيها الظروف الوطنية، التي عادة ما يضحّى فيها بأفراد الـــشعب، لا الـــزعماء، لكن المهم أن انكسار أي جزء من الغطاء، سوف يعني إرجاء الساعة التي ينتظرها للوصول إلى هدفه، والانتهاء من إتمام مراحل الحضانة.

عـــند هذه النقطة، قرر تقطيع الغطاء إلى أربعة على أن يتم رفع كـــل جـــزء على حدة، ثم يتم فيما بعد تجميعها معاً، وتوثيق لحمة الوطن في الأعالي.

لم يجـــد أمامـــه مـــن طـــريقة غير تلك، وعلى الفور أمر شعبه بالانفـــضاض، طلب ذلك من العمال والمهندسين، الحرفيين، والهتافين الذين أحضرهم لتحفيز الهمم، ودفع الحمية إلى قلوب الخاملين.

أمـــر الـــسائق، بالانطلاق إلى حديقته الرئاسية، سد الشوارع بموكبه الضخم، هبط مباشرة إلى حيث الأشجار تبتسم لطلعته البهية، راح يـــدور وحـــيداً هذه المرة، وبين إصبعيه يرقد السيجار الهافاني الفاخـــر، سيطر عليه التفكير في الأمر الجلل، راح يبحث عن واحدة

مـــن الأفكار العبقرية التي لا تجيء في العادة لغيره، طال الوقت وهو يـــدور في المكان، لفات بعد لفات، يمكن أن يصاب منها بدوار أي قائـــد آخـــر، فيما حراسه الكثر على البعد يشعرون بالشفقة تجاهه، ويودون كالعادة لو أن أرواحهم كانت فداء له.

لمعت عيناه فجأة، سحب نفساً عميقاً، ثم أرجعه، فانطلق دخان سيجاره من منخاريه كثيفاً، بدا هذه المرة وكأنه خارج من مدخنتي مطحنة غلال.

توقـــف قليلاً، ثم أشار بسبّابته المقوسة لأحد الأتباع، جهّز له الـــسيارة الرئاسية، راح دون مرافقة الموكب يدور في شوارع الوطن الكـــبرى، ينتقل بين جنبات البلاد، يقيس بعينيه المسافات ويقدر ما بيـــنها، لم يكن في هذه الحالة في حاجة إلى مساحين ولا مهندسين، قـــصاصي أثر، ولا منجمين، كان يجمع كل تلك المهن في شخصه، ولـــه من المواهب والملكات بما لا يخطر على بال بشر، أما عقله فهو الأكثر تنظيماً، ورأيه الأكثر رجاحة، وهو الأبعد نظراً، والأقدر على الحـــساب والقياس والتخطيط والموائمة، والأكثر بطبيعة الحال - من الجميع - بصيرة.

(7)

بعد الجولة التي قادته إلى جهات البلاد، بادئا من منتصفها، عاد إلى قصره، انطلق هذه المرة إلى مسبح القصر، تمدد فيه، راح يفكر في الأمـــر، يضع في ذهنه خطوطا عريضة، ثم ينتقل منها إلى التفاصيل، يمسك بكل جزئية، يقلّبها على جانبيها، يضيف إليها ما سبق أن طرأ في ذهـــنه، بلورها حتى اكتمل، اتضحت الصورة في الذهن، وبقيت خطـــوة اعلانها للشعب، الذي يعرف مسبقاً ردود فعله، سيهبط إلى

الـــشوارع، يبايع ويهتف، يرفع الرايات ويطلق الشعارات، ثم يروح يتراقص، مقيما للأفراح والليالي الملاح.

فكـــر هذه المرة في البرلمان، قرر أن لا يتجاهله، ما دام النواب أكثـــر بـــلادة من الشعب، وهم الذين سيوافقون على ما يريد، وفي الوقت الذي يرغب فيه.

بات مقتنعاً بضرورة تقسيم الوطن إلى أربعة، بعدد الأجزاء التي تتكون منها القبعة، على أن يتولى مسؤولية كل قطعة إبناً من أبنائه، فيما سيكون هو الأب القائد والحاكم الحقيقي لجميع أجزاء البلاد في النهاية.

كانـــت المـــشكلة التي شغلته، هي أن أي من هؤلاء الأبناء، لم يفكر يوماً في إعداده، لتولي مسؤولية الحكم، فكيف له أن يفكر في أن يكون أحدهم حاكماً على من له مثل تلك الصفات، لذلك قرر في الـــبداية أن يقوم أولاً بتعديل سلوك شعبه، ثم يبدأ في توسيع رقعة الجغـــرافيا، يـــضم إلى الوطن المزيد، يحقّق الوحدة الاندماجية، سواء بالرضـــاء أو الجبر، وبعد عمر طويل، يكون قد دفع الأبناء للاعتياد علـــى ممارســـة مهام السلطة، ما يمكنهم من وراثة الحكم من بعده، والحفـــاظ علـــى الإمبراطورية التي لا تمر بذهنه شكوك حول تحققها يوماً.

الآن أصـــبح الأمر مختلفاً، منذ تلك اللحظة التي ألقي فيها بصراً ثاقـــباً على حشد من مواطنين، يقومون بواجب رفع قبعة الوطن، في تلـــك اللحظـــة بدأ مسار تفكيره يتخذ منحىً آخر، وجده راغباً في تنصيب أبنائه حكاماً على دولة قرر أن يفتتها، تماماً مثل رغيف الخبز الساخن الذي لا بد من تقطيعه إلى أربعة أجزاء متساوية، ليأخذ كل منهم نصيباً.

الدولـــة التي أغلقها بإحكام، والتي كان مقرراً عزلها عن العالم، تحـــول مـــسارها في دقائق معدودة، فالأمر ليس يكلفه شيئاً، بمجرد إجـــراءات مـــضمونة الحدوث، سيقوم بها الذين يطبلون له بانتشاء: خـــبراء دستور، رجال دين، نواب ورجال إعلام، وبعدها فإن كل شـــيء سيصبح وفق المراد، دون الحاجة لفرض حالة الطوارىء ورفع درجة الاستعداد في صفوف الجيش أو الشرطة.

وفي الوقت الذي راح يوزع تركة الوطن، كان رجاله يقومون بوضع التكييف القانوني للحالة الجديدة، يعدّلون نصوصاً في دستور، ســـبق أن أشبعوه تفكيكاً ولملمة، خاطوه لمرات على مقاس الحاكم ووفق ما يهوى، هذه المرة ما الذي سيمنعهم من أن يلقوا به أرضاً، يخـــبطون نـــصوصه في عرض الحائط؟ من الذي سيقول لهم كفى؟ مـــن ســـيبكي على انتهاك حرمات وطن ليس له في حضرة الزعيم حرمة؟ دستور شكلي من النوع الذي لا أحد يرجع إليه، ولا يتذكر أنـــه في الأصـــل على قيد الحياة؟ اللهم إلا في بضعة فقرات يلوكها قائـــد الأمـــة، يـــزيّن بها خطاباته، ليعطى انطباعاً بأنه يحكم دولة مؤسسات.

راح الـــرسميون الرائعون يخضون سباقاً محموماً، في فرش البسط أمـــام رغـــبات القائد، فمنهم من راح يلوي أعناق العبارات، ناحتاً معاني يؤكد بها أن هناك من النصوص ما ينطبق بحذافيره، على معاني العـــدل ورقة القلب وعفة اللسان، التي يتمتع بها الزعيم، ومنهم من راح يقـــسم بـــأغلظ الايمان ان ما تفتق عنه ذهن الملهم، فيه صلاح الدنـــيا والدين، وان خير الولاة من جاء من صلب ولي الأمر، المؤمن الورع، الذي يسهر الليل على راحة رعاياه، ولا ينام إلا بعد أن يتدثر الشعب بأغطية العافية.

راح الـــرجال الشديدو الإيمان يكثرون من الصلوات، يطيلونها وهـــم يدعون للوالد بدوام العمر ومتعة الصحة، يؤكدون أن الرجل الطـــيب، بـــات متعلقاً بحبال التقوى، وإن قلبه من فرط الورع بات شـــفافاً، دعـــاؤه مستجاب، حتى بات كأن ليس بينه وبين السماء حجـــاب، قالـــوا في ســـكرة الاندفاع، إنه لولا الخشية من اتهامهم بالـــنفاق، لأعلـــنوا على الملأ، أن هذا الحاكم الطيب، أقرب إلى أن يكون ظلاً للمعبود، أو على أقل تقدير، وكيلاً لديه عند العباد.

انتفضوا في هبّة واحدة يدعون له بالنصر المؤزر، وإن كانوا في الأســـاس لا يعـــرفون مـــن هم الأعداء الذين يصبّون اللعنة عليهم، ويطلبون لهم عقاب الدنيا والآخرة.

تمكن الزعيم عبر خدمة الذين يحملون ألقاباً فخمة، من تكييف الإجراءات التي سيقدم عليها، وتمهيد الأرض لها، حتى ظن الناس في النهاية، أن مباركتها شرط أساسي للإيمان الصادق، بقي أمامه رجال الإعـــلام، أمـــرهم بنقل رغباته، بطريقة تبدو وكأنها من ضرورات الـــصالح العام للبلاد والعباد، وهو ما كانوا جاهزين له، حتى من قبل أن يرفع الملهم سبابته المقوسة، ويأمرهم بتدشين حملة لحوح، تقتطف من كلام مدغدغي المشاعر ما يساعد على فرش الأرضية بالكلمات المـــنمقة والشعارات الرنانة، حشو معدة الشعب بالعبارات الضخمة، إتخـــام بطونهم بالكلام، على أن يأتي فنانون أثبتوا قدرة على التأقلم، مـــع كل مناسبة، و"يطبخون" الأغاني بما يتواكب مع رغبات الورع التقي، والمؤمن الحنون.

امتلأت حياض الوطن بكلمات تهتف، وأخرى تشيد، تقاطعت العـــبارات مـــع الأغنيات الصادحة، تسللت إلى البيوت، اقتحمت لحظات الطعام والنوم والمداعبة، امتزجت بالهواء الداخل إلى الأقفاص

الـــصدرية والمطـــرود منها، ردده الرضع حتى من قبل أن يفهموه، أنطقهـــم الهـــوس الـــذي أصـــبح عليه الآباء، وهم يعيدون ترداده ويتنافسون في درجة الحفظ.

بـــات الـــسباق على أشدّه بين سكان البلد المعطاء: فالمواطن الـــصالح لديه القدرة على ترديد الشعارات، والإخلاص للوطن يقاس بـــتوقير أقـــوال الـــزعيم، والطامح إلى المناصب، لا بد له من حفظ الأغاني، رغم أنها باتت أكثر عدداً من الجماهير.

(8)

تحوّل الوطن بأكمله إلى جوقة تهتف للزعيم، تبايعه، تهب الحياة له ولأنجاله، حتى من قبل أن يصدر هو قراره التاريخي بتولي الأطفال مقاليد الحكم، لم يكن هناك موانع، بعدما تم تعديل نص في الدستور كـــان في الماضـــي يحدد بلوغ الثلاثين لتولي الحكم، هبط المشرّعون المخلـــصون للوطن بهذا الشرط، كي يتمكن آخر الرضع، من القبض على واحدة من الشطائر.

لـــيس يهـــم العمر في بلاد تتمتع بظلاله، هو الحامي والمشرّع وصـــاحب الـــرأي الذي لا رأي بعده، ومن على هدى خطاه يسير السائرون في الوطن المعطاء، من هذه النظرية انطلق المشرّعون بضمير مرتاح لتمهيد الطريق نحو الخطوة التاريخية، كي لا يشعر الملهم في أية لحظـــة، بمـــا يمكن أن ينغص عليه ضميره، وهو يستعيد من ذاكرته المـــثقوبة أيامـــاً، اتخذ فيها خطوات بدت كأنها لصالح البلاد، فيما كانت في حقيقتها لمصلحة العائلة.

الشعب الوفي ظل على العهد، تماماً كما هو معروف عنه، أصم وأبكم وبلا عيون، هكذا، سير حياته في جميع الأوقات، فتمكّن من

التعايش مع كل حكامه، بعضهم جاء بلا مقدمات، هابطاً بمظلة من الأعلـــى، وفي الصباح رأوه حاكماً، انطلقوا يرفعون الحناجر بالهتاف لـــه وللعهد الذي سيستعيد أمجاد الوطن، وبعضهم جاءوا حكاماً عبر نـــصائح مـــن دول أخرى، ووفق ترتيبات إقليمية أو دولية، لم يجد الـــشعب أمامه إلا الانحناء للعاصفة والقبول بالأمر الواقع، ثم تعليق اللافتات، مديحاً بالعهد المجيد، ورفع الأكف تضرعاً، والدعاء بحرارة، لبديع المحيّا وجالب السعد، فيما نوع آخر من الحكام، جاء كالزعيم ومن سبقه من ثوار أفذاذ، علي ظهور الدبابات، منطلقين إلى القصور الرئاســـية الفخمة، قبل أن يبثّوا فيما بعد عبر وسائل الإعلام الوطنية بياناقم التي حملت، الرقم واحد.

مـــا الـــذي يمكن أن يفعله شعب كهذا، أمام هذه الزعامات النجيـــبة، ســـوى أن يواصل الشكر على النعماء؟ ما الذي يمكن أن يقـــوله بـــشر مثلهم، وجدوا أنفسهم أمام رياح عاتية لا تترك لهم مساحة للفهم؟ عاصفة غاشمة لدرجة أن الأشجار تنحني رعباً، حين تمر أنفاسها جوار الجذوع، هل لمثل هؤلاء البشر الخائفين، أن يفعلوا غير الانحناء للقائد، الحنون في قسوته، والعادل في جوره، والمنتصر في انكساراته، والعفيف في فجوره؟

حكّـــام صغار!! ليس يهم الأمر، المهم أنه هو المهيمن، هو من ســـوف يحكم البلاد، ومن ستتفيّأ بظلاله، وفي مثل تلك الحالة، كما قال حكماء النظام، فإن مسألة السن لا أهمية لها، بل وليس يهم من الـــذي سيكون على رأس كل شطيرة، طفلاً من إحدى زوجاته، أو مـــن الأم الكـــبرى، أم المنجبات، التي كان رحمها الطاهر وعاء لمن هـــبطت مـــن بطنها نجيبة، وثاقبة، حتى أن أمها رأت الحكمة تطل شاخصة من بين حاجبيها.

راح الزعيم بعد أن أمسكت سبابته المقوسة كافة الخيوط، يحدد الـوقت الذي سوف يهل فيه وجهه البهي على شاشة التلفاز، ليقدم البـشرى للشعب المتلهف، وفي الوقت نفسه يطفيء ظمأ الشعوب الجارة، الشقيقة منها والصديقة، لمعرفة الأسباب التي استدعت إغلاق حـدود الوطن، ورفع جدار من الخرسانة والشكوك، بين أخوة الدم والمصير.

وفي الساعة التي حددها أطل، فكادت القلوب الهائمة، تقفز من مـستقرها وتنطلق إلى حيث المحبوب، راحوا يستمعون إلى كلمات، أخذت تداعبهم لأول مرة منذ اعتلى العرش الرئاسي، بدا رقيقاً هذه المرة، شديد التظاهر باللطف، حتى أن الذين يعرفونه ويجيدون إخفاء مـشاعرهم، أيقنوا أن ثمة كارثة يمد لها البساط، مجرد كلام معسول، راح الـشعب ينتـشي به، البعض توقّع ما سيقوله حتى من قبل أن يقـال، وإلا فما معنى تلك الحملة، التي غطّت البلاد بصور وقصائد ومقالات، عن مناقب وعبقرية الأبناء؟

رأى المخـضرمون أن مناصب سوف تمنح لهؤلاء الصغار، لكن ما هي؟ وكيف ستتم؟ وهل سيقيل الزعيم مسؤولين يشغلونها ويضع أبـناءه؟ أم سوف يبتدع كالعادة لهم أماكن، مثلما يفعل مع غيرهم، من حملة أحذيته المخلصين؟

أسئلة كثيرة دارت بين كبار السن، صاحبتها في اللحظة نفسها، بلاهـة أخـذت تـضرب أطنابها لدى أبناء الشعب وهم يتطلعون باستحـسان إلى محيّا صاحب الطلعة البهية، غير أنه لم يمر وقت كبير إلا وكان قد أعلن قراره:

"حفاظـا على "وحدة" الوطن العزيز وتماسكه الأبدي، قررنا "تقـسيمه" إلى أربعـة أجزاء، سوف يطلق على كل منها شطيرة،

سيكون بيد كل من أبنائنا إحداها، فشطيرة الوطن الأولى ستكون خاضعة بأرضها وبشرها وكائناتها الطائرة والسائرة والزاحفة، نسائمها ونباتها وترابها، لأكبر الذكور من صلبنا، ذلك الإبن الذي ستسمعون عن نباهته وستعرفون قدراته الهائلة، على الكر والفر والخداع والمناورة، وستجربونه في أكثر من حدث، وستجدونه يسير على الخطى التي رسمناها له، والتي ستباركونها بالطبع، كما عهدناكم شعباً صالحاً وجيد الاستجابة خصوصاً في مثل هذه المواقف، وفي خضم المنعطفات التاريخية التي يمر بها هذا الوطن العزيز، وتقديراً منكم للتحديات التي تواجهها البلاد، والتي تفرض علينا الوقوف صفاً واحداً للتصدّي لها، ورد الكيد إلى نحر كل من يفكّر في المساس بسلامة وحيوية الوطن المعطاء.

أما شطيرة الوطن الثانية فسوف تكون من نصيب ولدنا الذي يليه، ولا يخفى عليكم أيضاً مدى إقدامه وسرعة بديهته، لقد عرفتموه في مواضع كثيرة، فعلى الرغم من صغر سنه، إلا أنه سوف يأتي بأفعال لا يقدم عليها إلا من هم أكبر منه، وأني أرى فيها مؤشرات على أنه يسابق زمنه، وعندما تحين اللحظة المناسبة لتولي المسؤولية ستجدونه رجلا مجرّباً وصاحب خبرة في الحياة، أليس أفضل للحاكم أن يكون ملماً بكل شيء؟ أم أنكم تريدون حاكماً متقاعساً منزوياً، لا يعرف من أمور الحياة شيئاً؟ على أية حال، وأياً كان رأيكم، قبّحتم الأمر أم رحبتم به، فإنه كما تعلمون يعود إليّ وحدي، ولست في حاجة للتشاور، فقد اخترت لكم إبناً أشبه بالحصان الجامح، لا يتوقف عن الكر ولا يعرف وجلاً ولا تردداً، ولعل المنتمين إلى شطيرة الوطن الثانية سوف يدركون بعد وقت إنني أهديتهم ذلك الإبن لحكمهم".

عند هذه النقطة، راح الجالسون على مقاه توزعت على أرجاء الـــوطن بعدالـــة، في اطار الخطة الخمسية الأخيرة، يتمايلون انتشاء، خصوصاً في الشطرين المعلن عن اسم حاكميهما المحروسين، يصفقون بـــشدة وهـــم يستمعون للأقوال الحكيمة، فيما فغر مواطنون ظلت شـــطائرهم على قائمة الانتظار أفواههم، انتظاراً للحكم الثمينة التي ستتساقط، من فم حامي الديار.

"يا شعبـــي العزيز، هكذا ترون كم أنا مشفق عليكم، فلا هم لي طـــيلة اليوم، بل طيلة العمر، غير همومكم، أنتم الذين رهنت لهم حياتي، ولأجلهم أسهر الليالي ليناموا في سكينة.

لم أقـــل لكـــم بعد، عن الشطيرتين المتبقيتين، إذن لأكمل، الـــشطيرة الثالـــثة من وطننا العزيز، سوف تكون أسعد حظاً من الأولى والثانـــية، فقـــد اخترت لها ابني الثالث وهو نابه ومغوار، صـــاحب صـــولات وجولات منـــزلية مذهلة منذ بدايات عمره المديد، ستقولون إنه صغير للغاية، ولا يصلح لتولي المسؤولية، هل قلتم هذا؟ أنا واثق أنكم لن تقولوا، وحتى لو حدث، في سريرتكم أقصد، فأنا أطرح سؤالاً، منذ متى كان صغر السن أو كبره مهماً في حكـــم الدول؟ هل تودون أن أقول لكم أمثلة على ذلك، إذن ارجعـــوا إلى الـــتاريخ، ألم يكن هناك ملوك اعتلوا عروش بلادهم وهـــم مـــا يـــزالون أجـــنة في الأرحام؟ ألم يكن هناك تلاميذ تم استدعاؤهم على عجل، قطعوا دراساتهم وعادوا إلى بلادهم ليتولوا حكمـــاً لم يكونوا مؤهلين له؟ ألم تغيّر دساتير دول في ساعات، لأجـــل وضـــع أصحاب العناية الذين لن تقوم للبلاد قائمة إن لم يكونوا حكامها؟ قد يقول بعض الخبثاء، إننا أيضاً غيّرنا الدستور لأجل ذلك، لكن أنتم تعلمون، إننا فعلنا أمراً مختلفاً، فأنتم يا أبناء

شـــعبـــي الـــوفي من طلبتم ذلك وناشدتموني لأوافق عليه، ومن جانبـــي لم أفعل سوى الاستجابة، أنتم تعلمون أني لا أتردد يوماً عـــن تلبـــية رغـــباتكم، وها أنا أفعل ما فيه الصالح العام ملبياً ما خـــرجتم لأجله في مسيراتكم الحاشدة التي طافت بأرجاء الوطن، ووصلت إلى ساحة القصر الرئاسي تناشدني التلبية.

أقـــول، إن سنوات العمر ليست تهمّ، بل الانجازات هي الأهـم، وأنـــا واثـــق ان أبـــناء الشطر الثالث، سوف يحمدون لي الاختيار الـــصائب، وسيعرفون وإن بعد وقت، كم كان هذا الاختيار يراعي مـــصلحة أبناء هذا الشطر، وأيضاً صالح الوطن العزيز بجميع طوائفه وقواه.

أمـــا مـــن سوف يتولى مسؤولية الحكم في الشطيرة الرابعة من الوطن المفدى فسوف تكون إبنتنا ذات الكرامات الباذخة، تلك التي أشـــرق نـــورها منذ أن كانت بذرة تتكون، فعمّ الخير على البلاد والعـــباد، في اللحظة التي كانت فيها على وشك الخروج إلى الدنيا، هـــذه الإبنة المباركة، لها إشراقات، وتحل على يديها البركة، ونتوسم فيها من الخير مايفيض عن رقعة الوطن.

ولما كنتم يا أبناء شعبـــي المطيع تعرفون أن بلادنا مقدمة على تحـــولات لا سابق لها، سوف تعمّ الخيرات فيها على الجميع، فإنني أعتـــبر أن القـــرار الذي حددت لكم ملامحه، والذي يقسم الوطن، سوف يسري في الوقت المناسب، إنه بمثابة هدية مني لشعبـــي، لكن في الـــوقت عينه فإن هديتي الأكبر هي تطمينكم، بأن هذه الشطائر وســـكانها والأبـــناء الذين سيحكمونها، سوف توضع تحت قيادتي، وتـــسير بنفس الحكمة التي جربتموها لديّ والتي تعرفونها جيداً بحكم السنوات التي ظللت فيها أسوسكم.

وهكــذا أيهــا الشعب جيد التربية، تسلمت الوطن وهو بلد واحــد، وها أنا بكل الزهو أسلمه أربعة، وبذلك نكون قد نجحنا في الخطوة الأولى لتوسيع رقعتنا ولو من الناحية المعنوية، على أن تصب القرارات اللاحقة في زيادة تحصين الوطن والشروع بالتنمية والتطور في كافة الميادين".

(9)

لم يكــد ينتهي من خطابه حتى عمّت البلاد مسيرات حاشدة، تهتف وترفع الرايات، تشيد بمناقبه، اعتبر أصحاب الحناجر المرتفعة إن الفرصة سنحت للتقرب أكثر من بطانة الزعيم، راحوا وهم يدركون أن كــاميرات التليفزيون تصور، وأجهزة الأمن ترصد، يزيدون من حماسة بدت مرتسمة على ملامح الوجه، مصحوبة بخيوط هابطة من عــرق يبلل قمصان أبناء الوطن المخلصين، وراحت العيون من فرط التأثــر تحاول الخروج من محاجرها، كان ذلك علامة لدى من قاموا بكــتابة التقارير، على مدى الإخلاص الذي يتمتع به هؤلاء والذي يتوجب على الجميع الاحتذاء به.

الهتاف هو نفسه، الذي كان سينطلق، حتى لو كان في خطابه قد أعلن نقل الوطن من قارة إلى أخرى، أو قرر تمزيقه إلى ثمانية شطائر، أو حتى مائة، الحناجر كانت في عهده السعيد اعتادت الهتاف لأي شيء، والدمــوع المــدرارة كانت جاهزة أيضاً واللافتات، شعب من البشر الجاهــزين لكل مناسبة ولكل قرار، بعد أن تقلص المشروع الوطني إلى مجرد نيل المغانم الصغيرة، أو اتقاء الشرور.

وفــيما تواصــلت الاحــتفالات لأيام، داخل حدود الوطن المشطور، هدأ توجس الدول الشقيقة والصديقة، بعد أن أدركت ان

الهـــدف النهائي، الذي دفع الشكوك إلى شرايين زعمائها، هو شأن محلـــي محض، لا علاقة له بالجيران ولا يستهدف من بعيد أو قريب إنـــــزال الـــسوء بهم، راحوا هم أيضاً في أعقاب الخطاب التاريخي للـــزعيم، يتسابقون لتهنئته، في البداية طلب العديد منهم السماح له بالـــزيارة، ثم أرســـلوا بـــرقيات التهاني بعدما أبلغوا بالاعتذار عن اســـتقبالهم، إذ ســـرت لديه شكوك، أخبره حدسه اليقظ أن الهدف ســـيكون الاطـــلاع بأم العين على ما يجري في الداخل من عمليات تحـــول كبرى، كان يريد لها أن تسير في طريقها السري، حتى تصل الأمور إلى منتهاها.

وبعـــدها سوف يلقي خطاباً تاريخياً آخر، يعلن فيه الانتهاء من البـــناء الفـــريد ووضع قبعة الوطن فوقه، فقد اكتملت الاستعدادات الخاصة للحدث، فيما هو يعتبر أن ذلك، هو الإنجاز الأهم في عهده، الذي سيكتبه التاريخ باسمه، سيكون هو وحده صاحب مشروع أول حـــضانة وطنية في جميع العصور، وإن كانت لديه ثقة أيضاً، في أن هـــناك كـــثيرون من الحمقى، الذي لن يخلو المستقبل منهم، سوف يقومـــون بتقليد فكرته، من هنا كان رفضه لأي طلب من الزعماء الآخرين للحضور بحجة التهنئة، على الفور شكر لهم مساعيهم، مبرقاً باعتذاره لظروف خاصة تمر بها البلاد، وتتطلب منه المتابعة.

بعد انتهاء الاحتفالات جاء وقت الجد، ففي اللحظة التي تم فيها مـــن الانتهاء من إجراءات التنصيب لحكام الشطائر، توجه الأب إلى المكان الحدودي الفاصل، حيث تقبع القبعة بانتظار إذن منه للعمال، راح يـــتفحص حوافها، يأمر باختراع مواد جديدة تتكفل بإغلاقها حـــين تكون في أعالي فضاء الوطن، انبرى الكيميائيون في معاملهم يخلطـــون مـــواداً بمواد، يجربون أصنافاً، يمزجونها، فشلوا في عشرات

التجارب، وأفلحوا بعد وقت في اختراع المادة المناسبة لزيادة اللحمة الوطنـــية، وفي الـــيوم الذي حدده الزعيم لاستقبالهم، قدّم كبيرهم نمـــوذجاً للمـــادة، أكّد لحامي البلاد انها قادرة ليس على ربط القبعة فقـــط، بـــل جذب البلاد المجاورة وربطها بالوطن، ثم راحت جموع الكيمائيين تهنيء من بفضل توجيهاته، ومن واقع أفكاره وإشرافه على جمـــيع مراحل التجارب ومتابعته الدقيقة والتفصيلية، ظهرت للوجود هـــذه المـــادة التي اقترحوا أن يطلق عليها الحروف الأولى من اسمه، لتنـــضم هي الأخرى إلى باقي الانجازات العظيمة في عهده الميمون، والـــتي تـــؤكد على مدى التطور الذي سرى في كافة الأرجاء تحت رعايته وبفضل توجيهاته.

اطمئن إلى أن كل الأمور تسير في الخط الذي رسمه لها، اجتمع بـــرجاله، حدد معهم الخطوط العريضة التي سيسير عليها اليوم الذي ســـيتم فـــيه الاحتفال بتنصيب القبعة، راح كل منهم يضع خطط تفـــصيلية لمـــا يمكن أن يساهم به من يتبعونه، احتشدت امكانيات الـــوطن كلـــها لهـــذا الـــيوم الميمون، استدعى الفنانون، الرسامون والمسرحيون والممثلون والمطربون وكتاب الأغاني والشعراء الحداثيون والتقلـــيديون، الـــصحافيون في الجرائد الرسمية اليومية والعاملون في وســـائل الاعـــلام المرئية والمسموعة، فرق السلام الوطني والهتافون ورافعو الرايات، قرر الزعيم أن يكون هذا اليوم للتنافس بين مواطني كل شطيرة، على رفع الجزء المخصص لهم.

شهد الموعد المحدد حشداً هائلاً، كل أبناء الوطن الكبير اصطفوا في أربعة طوابير لا نهاية لها، ينتظر كل منهم نيل شرف المساهمة، قالوا إن ذلـــك هو ما سوف يسجله التاريخ، اعتقدوا أن ذلك سيساعد أبناءهم على نيل رضا صاحب العمر المديد.

كـــتب الـــشعراء من القصائد في هذه المناسبة الجليلة، ما كان كفيلاً بإغراق الوطن، فيما انبرى مؤلفو الأغاني يكتبون ما يخطر على بـــالهم مـــن مـــدائح لصاحب المقام الرفيع، شهدت أجواء ما قبل الاحتفالات تنافساً محموماً بين مدبجي القصائد، المقالات، والأغاني، حتى انتهى مخزون الوطن من الأوراق، واضطر صاحب الفخامة، إلى إصـــدار أوامره لوزير التجارة باستيراد أكبر كمية ممكنة وعلى وجه الـــسرعة، وأن يـــتم اقتسام الكميات الواردة بالتساوي بين أجنحة الـــبلاد، ويكون التوزيع على الكتاب والشعراء ذوي القريحة المتقدة، تحت امرة أبنائه الغر الميامين.

في هذا الوقت، راح المطربون الذين راحوا يبتلعون حبوباً لتقوية الحناجـــر، يهدرون في الميادين، وسط حشود أحاطت بقصر العائلة، تهـــتف وتنشد، قبل أن تنتقل فيما بعد على الأقدام إلى ساحة كبرى تنام فيها الأجزاء المتباعدة من القبعة في انتظار لحظة الالتحام.

كـــان يوماً مشحوناً، غير أن الأحاسيس فيه كانت تصب في اتجـــاه واحد، هو التأكيد على أن ما يريده الزعيم يجب إنجازه، حتى يـــتم تغطية الوطن والحفاظ على صحة سكانه، توحيد شطائره تحت غطاء واحد، مثلما يريد المبجل، دام للأمة ذخرا.

لم يكـــن أي مـــن القـــوم، فيما عد النخبة، يدركون ما ينويه الـــزعيم، لم يكونـــوا أصلاً في حاجة ليدركوا المصير النهائي الذي ســـتؤول إليه بلدهم، ولو تم سؤال أي من أبناء الشعب السعيد، عن الهـــدف مـــن وضع القبعة فوق الجدران العالية التي أحكمت حول الوطن من كافة الاتجاهات، لقال ما يردده الزعيم:

- ضـــمان حماية الوطن وأمنه وتطوره، ليسير في طريق التنمية والرفاه.

لا أحـــد، كـــان يتخيل أن الحضانة قادمة، وإن السجن الكبير الـــذي لن يستطيع أي واحد منهم اختراقه خارجاً أو داخلاً، سوف ينجـــز فور وضع القبعة على رأس الوطن، وإن عصراً جديداً سوف يدشـــن حين يتم وضعهم في تلك البوتقة الكبرى كحيوانات مطيعة للتجارب.

(10)

اندفع أبناء كل شطيرة يضمها الوطن باتجاه الجزء الذي يخصهم مـــن القبعة، ووسط أغاني وأناشيد حماسية تبارى المنشدون في ضخ كلماتها وحشوها بما يدفع الحمية إلى النفوس، وقف المبجّل في سيارته الفارهة عن بعد يراقب أبناء شعبه، وهم يتنافسون لنيل الحظوة، ومن مقعـــده الـــذي جهّز بآخر ما اخترع للرفاه، رفع سبابته المقوسة إلى الأعلى فانطلق الجميع في حماس لرفع الأجزاء، في اندفاع شعبـــي من ذلك النوع الذي يستهوي الزعيم.

رفعـــت الـــشعوب المتآخـــية أطراف القبعة، لكنها سرعان ما أخـــذت تترنح، إذ لم يظن أحد منهم أن تلك اللعينة التي ستستوي فوق رأس الوطن، لها كل هذا الوزن، عادوا للمحاولة مرات، لكنهم مـــا أن يظنوا ان نجاحاً قد اقترب، حتى كان التعب يأتيهم، فيفرون، قبل اللحظة التي تكاد فيها الأثقال تبتر أصابعهم.

ظل في مكانه يتابع ما يجرى، غير مصدق فشل المساعي التي قام بهـــا، لتحفيـــز الجماهير اللينة، أيقن بعد أن رآها في الأجزاء الأربعة تـــتهاوى، ان الأمـــر مستحيل التحقق إذا تم الاعتماد على الإرادة الـــشعبية، فالشعب المستكين لا ينتظر حدوث معجزات منه، عندئذ قرر جلب رافعات ضخمة، لم يكن في البداية يود ذلك، لأنه ببساطة

أراد إنجاز مشروعه بكتمان، دون أن ينتبه هؤلاء الذين لا يريدون له الخير، ويشعرون تجاه قراراته بتوجس.

أمـــر بطرد الشعب من المكان، إبعاد المنشدين والعمال، إحراق الأوراق المحشوة بالقصائد، وضع الشعراء في الحجز الإجباري، حتى الانـــتهاء من الحضانة، عندئذ فقط سوف يتم إخراجهم ليتساووا مع جموع الشعب في نيل قسطهم من العناية الرئاسية.

ساد الهدوء رحاب الوطن، سار الجميع في وجوم، غير مصدقين أن القبعة الهائلة استعصت على سواعد شعب ليس يبذل جهداً طيلة أيامـــه، أخذوا يستذكرون الأيام الأخيرة التي لم تكن الشمس تطلع فـــيها إلا في وقـــت متأخـــر، عندها كانوا يهبون من وسن طويل، ولديهم شعور بأنهم أكثر رخاوة، بعد تلك الواقعة ساورهم إحساس بالخـــزي، إذ كيف سيبررون ما حدث، كيف لهم أصلاً أن يواجهوا حكامهم وجهاً بوجه؟ كيف لهم أن يرسبوا إلى هذه الدرجة، في أول اختـــبار حقيقي يواجهونه، منذ أن أنعم الزعيم بتولية الأنجال، على الوطن المشطور؟

قـــرروا طي الأمر بالنعاس، انطلقوا إلى أسرّتهم، لملموا أنفسهم تحـــت الأغطية، راحوا كالعادة في سبات عميق لم يفيقوا منه إلا بعد أن داهمتهم الكوابيس.

لم يكـــن أمام فخامته سوى الاستعانة بالرافعات الصديقة، في الـــبداية طـــرأت في ذهنه فكرة استئجار الآليات لمدة واحدة تنتهي بانتهاء المهمة، لكنه اكتشف ان في وطنه المعطاء المشرع على الجهات الأربـــع، لا يـــوجد واحـــد من أبناء شعبه قادر على التعامل معها بكفاءة، فمن أين لهم أن يعرفوا ما دام الحاكم السابق كان يلجأ إلى الدول الأخرى مستعينا بها في كل كبيرة وصغيرة؟ من أين له أن يجد

خـــبراء بسهولة في وطن اعتاد التسبيح الدائم لمن تأتي به المجنـــزرات إلى ســـدة الحكم؟ ألقى المبجّل هذه المرة أيضاً بكل همّ التقصير على الحـــاكم الـــسابق، وقرر أن يسلك طريقاً مختلفاً، يقوم فيه بإدخال صـــناعة جديـــدة إلى القوامـــيس، تعنى أولاً وأخيراً بإعادة "صناعة الـــشعب" وفق ما يهوى الحاكم، قرر أكثر من أي وقت مضى، أن يعيد صياغته ليكون أفراده تروساً جيدة، دون أن تعنيه درجة وعيهم، فـــذلك الجانـــب يجـــب أن يظل مثلما كان على مر العصور، غير مـــرغوب فـــيه لحكام من أمثاله، يعتبرون أنفسهم في نهاية المطاف، مبعوثين من العناية الإلهية لشعوب لا تستحق.

ابـــتلع كأساً مراً حين رضخ، قرر أن يستعين بطواقم كاملة من دول الرافعات، لم يجد أمامه غير هذا المخرج لينتهي من تحقيق حلـــم اعتـــبره هدفاً لا تراجع عنه، لكن ما الذي سيبرر به ذلك لحاكم الدولة المؤجرة؟ راح يفكر في ما سوف يقول هذه المرة التي يـــسود فيها الوئام مع جيرانه، عن سبب الاندفاع لإغلاق الوطن، كـــان قد اختلق في البداية أسباباً لخطوة كتلك مثيرة للريبة، ليزيل هـــواجس كانت تتضخم لدى الجيران، كلما رأوا الأسوار ترتفع والبنايات تنكمش.

في هذا الوقت كان الغر الميامين قد تمددوا فوق عروشهم، راح الـــواحد مـــنهم بعد الآخر ينفذ التعليمات التي تأتي إليه من الباب الخلفي، حيث تقبع كل أم لتراقب وتعطي المشورة، أو تأمر فتطاع.

الأمهات الأربع كن استطعن - قبلاً - إقناع الزعيم بضرورة النظـــر بعين الاعتبار إلى الأبناء، فحتى لو كانت أعمارهم صغيرة فـــإن ذلك لا يبرر تجاهل ان لأمهاتهن من نساء الحاكم المبجلات مطامح جامحة.

وفي سبيل نيل ما أردن، اتفقت رغباتهن للمرة الأولى، اتجهت - وقتها - للضغط على قائد الأمة، كي يبدأ في توزيع أجزاء الكعكة على فلذات الأكباد، أن يقوم بتأهيلهم على شؤون الحكم وطرق التعامل مع المحكومين، ومع أنه أظهر عند طرح تلك المسألة امتعاضاً، هاج من بعده وماج، إلا أن للأنثى وسائل تستطيع بها كبح غضب أشرس الرجال، ولها القدرة أيضاً على اختيار الوقت المناسب لإعادة فتح الحوار ومواصلة الإلحاح، حتى يرضخ.

لكن في حالة الرجل الذي تنتفض الأمة، ان أطلق يوماً حنجرته، والذي ترتج البحار وتبتلع الأرض مائها إن عبس، فإن الأمر كان يحتاج استدعاء لكل خبرات الأنوثة التي عرفتها البشرية وتحدثت عنها الأساطير، كان لا بد من توحيد الجهود، والتعامل مع الموضوع بتدرج، لتحقيق الهدف المنشود، عندئذ جاء الاتفاق على تناسي خلافات الضرائر، والتمسك بصيغة تحالف الأضداد ولو لفترة محدودة، في سبيل الغرض الاسمى المشترك.

كانت لكل واحدة منهن مكانتها لدى المبجل، لكن الشعب الذي جرّب كل أصناف الحكام، بات معتاداً على ضرورة أن تكون هناك سيدة أولى، لها الحظوة عند الحاكم، ولها المكانة كأم وراعية ونبع للعطف والحنان، من هنا كان لا بد وفقاً للأمر الواقع، لا رغبة منه، أن يتم الدفع باسم الزوجة الأولى لتكون هي أم الشعب، وأن يطلق عليها لقب الأم الأسمى "أم الوطن"، ليس تقديراً لمسيرتها معه، وتحملها لنزواته وأفكاره الجنونية، بل لأن اختيار أي من زوجاته الأخريات الأصغر عمراً منها، كان سيؤدي إلى حالة استياء مكتومة في صفوف الشعب، من المؤكد أنها لن تصيب زعامته بخدش، لكنها قد لا تجعل الولاء صافياً من شوائب.

في بدايته لم يكن له ذلك الشره للنساء، إذ ارتبط حين بلغ سن الحلم بأم الوطن، وقتها لم تكن تدرك ان مغامرة زوجها الذي كانت تراه أهوجاً، سوف تحملها على جناح السلطة، وترفعها إلى درجة أن تصبح أم الجميع، ومحور ثرثرة المواطنين.

ارتـــبط بها وهو مجرد ضابط صغير، وعاشا معاً، بالكاد في ظل عواصـــف كانت تجتاح المنطقة التي يقع في حماها الوطن، ووفق ما يتيحه معاش محدود كان يتقاضاه باعتباره فرخاً أزغباً.

غير أنه لما دانت له البلد بيسر لم يكن قد خطر بباله، راح يفكر في طـــريقة فعالة للاحتفاظ بالسلطة، وضمان استمرار ثمراتها، عندئذ أيقن أنه لا بد له من وريث، تنتقل إليه الولاية.

كـــان يدرك أن الحالة العامة في المنطقة والعادات التي استقرت لـــدى شعبه، تمنع أن يمتطي سدة الحكم أنثى حتى ولو كانت ابنته، تلك التي جاءت بعد سنوات من الزواج بأم الوطن، وبعد أن بلغ به الـــيأس مبلغاً، في أعقاب مرور دون أن ما يبشر بإنجاب، حتى انها لما اخـــبرته - بعـــد يأس - بحملها، لم يصدق في البداية، واعتقد انها تواصـــل اجتـــرار مسلسل الأوهام، ذلك الذي استمر طويلاً معها، والـــذي كان يدفعها بين الحين والآخر إلى اختراع أحاسيس بغثيان، ســـرعان مـــا كـــان ينتهي بحملها إلى طبيب، يتوافق تشخيصه مع ظنون "أبو الوطن"، مؤكداً بعد وقت من "التلعثم" أن الحمل كاذب، وان أمنـــيات "أم الـــوطن" في النهاية تصيب وتخطيء مثلما يحدث للرعاع.

لكـــن في الـــوقت الذي توصل الزعيم إلى قناعة بأن الزوجة عاقـــر، سرعان ما تحركت بوادر حياة في رحمها الوطني، ومع أنه بات يفكر في الحفاظ على استمرار الملك في نسله الرئاسي، إلا أنه

اعتـــبر في البداية أن وصول ابنته الأولى هو بمثابة فاتحة خير، وان بالإمكـــان تأهيلها لتولى مقاليد الحكم، غير أنه سرعان ما تراجع عن ذلك، بعد أن بات يخشى من إمكانية أن يؤول الحكم في نهاية المطـــاف، إلى من سوف تتزوجه، وإلى أبناء من نسل لا يحملون اسمـــه، فهل يصح هذا، ولا يتردد لقب المبجل حتى بعد الموت، في جنبات الوطن؟

الـــزعيم الذي راودته تلك الفكرة وسيطرت عليه أياماً، كان خطأ عمره أنه أسر بها إلى حرمه المصون، أم الوطن وصاحبة القلب الرؤوم، وقد كان ذلك بالفعل خطأ فادحاً، إذ سرعان ما تشبثت به، واعتبرته وعداً لا ينبغي لحاكم لديه كل تلك المهابة أن يتراجع عنه، أضمرته في نفسها حتى يحين الوقت المناسب، وقتها سوف تعرف أي الطرق بالنسبة إليها لتحقيق الغاية، هي الأقصر.

من يومها بات إنجاب الأطفال، هدفاً لديه، يتساوى في أولويته مع أهداف الوطن القومية، إذ راح يحشد حواليه مجموعات الأطباء، أرســـل الـــبعض في بعـــثات للتخصص في علم الإنجاب، قام بوضع خطـــة تخـــصه وحـــده، تتـــزامن مع استراتيجية البلاد، اشتط في بعـــض تفاصيلها، قاصداً تحقيق أقصى استفادة ممكنة من حيامينه بعد أن بات على قناعة من أن كميات هائلة منها راحت هباء مع زوجة جدباء.

عندئذ فكر جدياً في تكرار الزواج، أليس ذلك أفضل بالنسبة له وللـــبلاد الـــتي تذوب فيه عشقاً؟ ألن يساهم ذلك في زيادة النسل الرئاسي، إذا ما تزوج بواحدة أو اثنتين أو حتى عشرة؟ أليس هو من غامر لإنقاذ الوطن ذات ليلة؟ فلماذا لا يسير في الاتجاه الذي سيصب في الصالح العام.

(11)

بعد أن وصل إلى قناعة مفادها، أن إمداد الوطن بأبناء من صلبه هو أيضاً من الأعمال الجليلة، قرر توسيع دائرة الحريم، وحتى من قبل أن يـــبلغ الأمر لشريكة حياته، راح يطلب من مسؤولي الإنشاءات إعـــداد أجنحة جديدة قدر ما يمكن للقصر أن يستوعب، فليس يهم العـــدد، بل السلامة الجسدية، والقدرة على العطاء، وهو ما سوف يخصص لأجله فريق كامل لن يكون له من عمل غير الاعتناء بكفاءة فحل الأمة.

اشتعلت "أم الوطن" غضباً حين همس لها الزعيم بنواياه، قالت صـــارخة، إن ذلك ليس من شيم الأوفياء، ذكرته بوقفاتها إلى جانبه ســـاعة كان مجرد ضابط صغير، كيف احتملت نـــزواته، تلك التي عانـــت مـــنها العائلة، قالت انها تمسكت بزواجه رغم رفض أبيها، وكيف انه طيلة السنوات وضعها في مواقف شديدة الصعوبة، لم يكن لأي أنثـــى أخرى أن تحتملها، ظلت هي تردد ذلك فيما كان هو قد وضع في أذنيه طيناً وعجيناً، فيما استرسلت في مهمتها الغاضبة:

- كـــيف لك أيها الغادر أن تأكلني لحماً وتلقي بـــي عظاماً؟ ومتى؟ بعد أن رهنت حياتي كلها لأجل طموحاتك؟ كيف ترضى أن تأتي بواحدة أخرى لم تضح كما ضحيت، لتحصد هي ما تعبنا طيلة تلـــك السنوات المرعبة لأجله؟ أي عذر هذا، وأي جحود يمكن أن يصدر عن رجل أسوأ من هذا؟

ظل "أبو الأمة" يواصل صمته، و"أم الأمة" على درب الكلمات السامة سائرة، غير أن السهام في النهاية كانت تصطدم بحائط صلد، إذ كان هذه المرة عاقداً العزم على المضي في طريقه، فمصلحة الوطن

العزيز أهم من قطرات دموعها، أو أحاسيس بالأسى تنتابها لأيام، ثم تروح.

كـــل الأمـــور، في ذلك الوقت، تزامنت، أجنحة القصر التي تنضم، وجدار الوطن التي يلتف على حدوده ويرتفع، الأطباء الذين راحـــوا يبحـــثون عن اكتشافات جديدة لزيادة الطاقة الإنجابية لدى الزعيم، والعلماء الذين أخذوا يواصلون الليل بالنهار من أجل التوصل إلى طريقة عملية لاستنساخ نظير له.

بات بعد سنوات من حكمه، مهووساً بفكرة إنجاب أكبر قدر من الأنجال، من الورثة الذين يحقق بهم إمبراطورية واسعة ستتمدد من رقعة الوطن المشطور إلى الجيران، هؤلاء الذين تقول تقارير مستشاريه ان شعوبهم تتحرق شوقاً لأن يحكمهم فخامته.

انهالـــت "أم الوطن" بسياط لسانها عليه، غير أن جلده كان ثخيناً، حتى انه تركها تواصل، تظاهر بالاستماع، دون أن يتدخل لإيقاف السيل المتدفق، كان يدرك من خبرة المعاشرة، انها لا تملك في حقـــيقة الأمـــر سوى لساناً سليطاً، كثيراً ما وجهته نحوه في مناسبات عدة، لكنه في كل الأحوال كان يمضي في الطريق الذي اخـــتاره دون أن يضع لكلامها أي وزن، حدث ذلك في اللحظة التي أسر لها بنيته الإطاحة برئيس البلاد السابق، وقتها سمع منها ما كـــان يمكـــن أن يدفـــع أسد هصور للتراجع، ما يحبط أي فكرة ويـــردها إلى نحـــرها، وصـــل الأمر إلى حد التهديد بتركه يواجه مـــصيره، وهـــي الآن تدعـــي انها وقفت إلى جانبه، وانها تحملت الأعـــباء، أية ثرثرة هذه التي قالتها؟ أهي تتحدث بهذا الكلام إلى أحـــد لم يعـــايش ما حدث؟ كيف لها أن تفترض ان الجنرال بلا ذاكرة؟ أية امرأة لها مثل قدرتها على الكذب؟

سيتزوج، سيتزوج، هذا قرار وسوف ينفذ، مثل كل القرارات التي اتخذها ولم يتراجع عنها في أية لحظة، أما هي فمن المؤكد أنها سوف ترضى، ستتعايش مع الواقع، الأيام والسنوات القادمة هي التي ستتكفل بذلك، تماماً مثلما فعلت معظم النسوة اللواتى اعتبرن ان الزوج غدر بهن، بكين بعض الوقت، قلن انهن لا يطقن رؤية وجهه، العيش معه تحت سقف واحد، لكن الزمن كان كفيلاً بدفعهن إلى قبول ما جرى، والتنافس مع الأخريات فيما بعد لنيل الحظوة لدى شهريار.

اندفع في تنفيذ ما اعتزم، استدعى مدير مكتبه، وصديقه القديم، ذلك هو الرجل الوحيد الذي يمكن أن يسر له بأي هاجس يمر بخاطره، هو كاتم الأسرار ورفيق الخطط والمؤمرات وزميل النوايا الشائكة، وممهد الأرض أمام طموحاته، وحامل مفاتيح الغرف المغلقة التي تكون مخصصة في العادة لغزوات المساء.

لم يستغرق الأمر وقتاً حتى احتشد البهو القريب من المكتب الرئاسي بعشرات من ذوات القدود الممشوقة، والطلعة البهية، كان "الخلبوص" بحكم خبرة عمر مع الرجل الذي أصبح قائداً للأمة، قد اختار أصنافاً من حسناوات قادرات على خطف عقله، فعل ذلك انطلاقاً من إدراكه أن زعيمه القوى الشكيمة ضعيف للغاية أمام ذوات الغنج.

رفيق الدرب وكاتم الأسرار، كان هذه المرة يعلم أن الأمر ليس يتعلق بنزوة، بل بمهمة قومية، وضعها القدر وثقة الزعيم في يديه، وأن عليه أن يخدم الوطن بإيجاد الزوجة المناسبة له من غير الأبكار اللواتي تعامل القائد في غزواته السابقة معهن، عليه هذه المرة أن يجد الزوجة المناسبة لتكون أماً لولاة مفترضون.

اندفع كاتم الأسرار إلى المهمة بينما تترد في أذنيه كلمات سيده عـن المهمة الوطنية التي اختصه بها وحده، وهي الكلمات التي تشابه إلى حد كبير ما كان المفدى يرددها كلما ازدادت حاجته الليلية، في أعقـاب انتهاء دوراته داخل حديقة الرئاسة، التي يخصصها في العادة للتنقيب عن أفكار عبقرية تصب في النهاية في صالح الأمة العريقة.

راح الـزعيم وجـاء بين صفي الواقفات، يعرضن له المفاتن، أعطـاهن انطباعاً بأنه يستعرض حرس الشرف، إذ ظل متأبطاً عصاه الرئاسـية الـتي تتدلى من أحد طرفيها خيوط ذهبية مضفورة، فيما اسـتكان سيجاره الرئاسي الفاخر بين الأصابع، يرفعه إلى الفم حيناً ويخفـضه، نافـثاً بفجاجة دخاناً سرعان ما تتجمع دوائره اللولبية، عـندئذ يسارع رجال التشريفات بجذب من غلفتها سحائب كرمه، واخراجها بعيدا.

بعد العديد من الجولات وقع الاختيار على عدد منهن، على أن يتم المفاضلة بعد دراسة متمحصة، للسيرة الذاتية لكل واحدة والمكانة العائلـية، وهـو ما سيقوم به المستشارون التابعون لكاتم الأسرار، الساهر دون انقطاع على راحة الزعيم، والمساهم بلا كلل في اعتدال مزاجه.

عـندئذ، لم يكد يمر وقت حتى كان قائد الأمة قد وضع أمها، أمـام الأمـر الواقع، عندئذ لم تجد بدا هي الأخرى، فقررت إخماد ثورتها والدخول في عملية حساب بالورقة والقلم، عليها ما دام الأمر هكـذا أن تتقدم بعملية إحصاء للمكاسب والخسائر، ما يمكن لها أن تناله في ظل المستجدات.

قررت أن تتعامل مع تلك الأوضاع الجديدة بدهاء لم يكن من صـفاتها، مـع الإصرار على إطلاق لقب "أم الوطن" عليها بشكل

رسمـــي، وأن يـــتم لأجل ذلك إصدار قرار رئاسي، يعمم على جميع المصالح والدوائر، وعلى جميع أبناء الشعب أيضاً، وهو ما تمت الموافقة عليه على الفور ما دام سيحل العقدة ويهدىء المخاوف، مجرد لقب لن يكلف الزعيم أكثر من توقيع متعجل على قرار رسمي، لكنه فيما بعد سيتيح له الاستمرار في خطته القومية الخاصة بزيادة إنجاب ذرية من صلبه تزدان بها أرض الوطن.

غير أن طلبا آخر كان بانتظاره يتعلق بالإبنة التي أنجبتها، والتي ترى أنها كانت فاتحة الخير، فهل من المعقول أن يتركها هكذا، ودون تـــأمين مـــستقبلها؟ ذلـــك المستقبل الذي رأته الأم يكمن في إسناد منـــصب مهم، ثم إطلاق لقب لا يقل عن "صاحبة العصمة" عليها، وإلا فمـــا معنى أن تكون إبنة زعيم الأمة وتصبح كأبناء المحكومين، دون لقب؟

وتحـــت الحـــاح لم يعـــرف الكلل، وإظهار لا ينقطع للعين الحمراء، راحت خلاله تستجمع ما اعتراها من غضب، وتظهرها دفعـــة واحـــدة فوق بؤبؤي العينين، وافق سيد الرجال، وصنديد الأمـــة في النهاية على ما طلبت، وأصدر مرسوماً بإطلاق اللقب على الفتاة، ليسري منذ لحظة توقيعه، على أن يتم فيما بعد، إسناد المنصب إليها.

مـــنذ تلك اللحظة لم يتفتق ذهن "أم الوطن" عن حيل أخرى يمكن بها ابتزازه والحصول على مزايا أخرى.

أما هو، فإنه لأجل مصلحة الوطن الغالي، أغرق نفسه في عسل الفراش، وقد دفعته تلك السباحة إلى إعادة التفكير في استغلال أكثر فائـــدة للفحـــولة، وبعـــد وقـــت من قيام الأطباء، بإمداده بأقوى المنـــشطات، وأحـــدث مبتكرات علم الاخصاب، قرر تحويل حبه

الـــشديد للوطن إلى فعل جيد، بتكرار الزواج من أكثر من واحدة، والى توزيع طاقاته بالتساوى عليهن، بعيداً عن النـــزوات التي ظلت تهدر حيواناته ولا يجني الوطن منها فائدة.

لم ينتظـــر طـــويلاً، ليرى ماذا كانت زوجته الثانية قادرة على الإنجاب، على إمداده بما كان يبتغيه من ذكر يرث قيادة الأمة، انطلق على الفور يطلب من كاتم الأسرار أن يوافيه بحسناوات جديدات غير اللواتي جاء بهن، عليه أن يواصل عملية انتقائهن بنفسه وألا يترك أمراً مـــصيرياً كهـــذا معلقاً برؤية رفيق دربه، اندهش مدير المكتب من إســـراع الـــزعيم بطلب زوجة ثالثة، غير أنه رأى في الأمر مصلحة شخـــصية له بعد أن بارت تجارته السابقة، وانتهى الزمن الذي كان القائد يحتاج فيه إلى قواد من النوع الفاخر، يهيىء له الأجواء للتفكير بـــشكل جـــيد في هموم الوطن، ويقدم له النصائح بشأن الأسلوب الأمثل لمواجهة التحديات.

وبـــسرعة لم يكـــن يتوقعها، راحت الأجنحة المخصصة لقبيلته تحت الإعداد، تجد من يشغلها، وبات على ملهم الأمة أن يوزع وقته بـــين الحريم الرئاسي بالقسطاس، كما بات عليه أن يبتلع الكأس المر وأن يمـــنح الـــسيدة ذات العينين الحمراوين بعضاً من الوقت، تحقيقاً للعدالـــة الزوجية، وإبراء للذمة أمام الأمة والوطن، وهو الأمر الذي أســـكت السيدة الأولى، وجعلها في النهاية تقنع بأنها لم تخسر كثيراً، حـــتى ولو كان الفحل الوطني قد ابتعد معظم الوقت بجسده، فإن ما عوضـــها بـــه، وما رفعها إليه من قدر، كان خير تعويض عن رحلة التعب ومصاعب لحظات الحماقة.

تـــزامن كل ذلك مع زيادة الطاقة الإبداعية لدى الشعراء لحشد قـــوى الشعب، وفرش أرضه بقصائد لا نهاية لها، تحوّل الزعيم لدى

الـــشعب العاجـــز مـــن صنف البشر المبجلين إلى طبقة أخرى مجللة بالقداســـة، انطلقـــت الخطب والمواعظ والدروس التعليمية والدينية ومـــباريات كرة القدم وحلبات المصارعة، عروض الأزياء، لحظات الترفيه، في الحدائق، وملاهي البلاد ومواخيرها، كلها تصب في هدف واحـــد، تمجـــيده والحـــديث عن فضائل له، هي دائماً حميدة، عن مـــستقبل ســـيكون مشرقاً كالعادة في ظله، وعن وطن وفق منطق الزعماء، هو دائماً في لحظة تحول.

شعب بأكمله تحرك بجميع قطاعاته في لحظة تحدي كبرى، يشق عنان الشمس ويصعد إلى النجوم، وطن احتشد فيه منافقون من كل لـــون وصنف، من مختلف الأطياف والمشارب والمناحي والمذاهب، قـــوى الـــشعب المـــصطفاة والمهملة، كلها تراصت في مشهد كبير حشدت له إمكانات البلاد، الهتاف تصاعد في كل بقعة، الشعارات صـــارت كالنـــصوص المقدسة لا بد أن يتبارى الجميع في حفظها، وتلقينها للصغار أكانوا أطفالاً في الروضة أم رضعاً، أو حتى أجنة في أرحام الأمهات.

مهمـــة وطنـــية، انبرى الجميع لأجلها، حشد تام افتعله القائد لإشغال شعب لا عمل لديه، سوى متابعة أقواله، ليكون كل حرف يهـــذي بـــه، توجيهاً، كل خطاب دستوراً، الملاحظات التي يبديها مـــنهجاً، ولا بد وفقاً لما هو متعارف، أن تتحول كثير من الخرافات بمـــرور الوقت، إلى حكم وأمثال وشعارات تتلألأ في الميادين وعلى جدران البيوت، وداخل القلوب الكسيرة.

(12)

بـــات الحـــشد الشعبـــي في أقصى درجاته، هتاف في الصباح وآناء الليل، مطاردة سمعية وبصرية قامت بها وسائل الإعلام والحزب الـــواحد للجماهير، حتى بات الشعب لا يرى إلا صوره مرشوقة في كل سنتيمتر، ولا يسمع سوى اسم المبجّل، على الرغم من أنه كان قد أصدر قراراً رئاسياً يمنع تسمية أي مولود في البلاد باسم يشابه ما لحبـــيب القلـــوب والعقول، لا أحد بات من يومها يجرؤ على فعل ذلك، لأن ذنباً كهذا ليس له من غفران.

لا جدران في هذا الوطن، تتلكأ في ستر عوراتها بصور الزعيم، لا هـــواء يمـــرق في حياضه دون أن تحمل موجاته شعارات صاحب الصوت الرخيم، لا عصافير تزقزق إلا بالثناء على أفعاله، ولا أشجار تـــتمايل إلا على وقع كلماته، لا ماء يترقرق، لا سحائب تمطر، لا ربـــيع ولا شـــتاء، لا نجوم ولا سماء، لا فنون ولا ابداع، إلا تدور وتـــسطع، تـــبرق وتومض، تتراقص وتمور، لأجله وحوله، من أمامه ومـــن خلفه، وبإشارة من سبابته المقوسة، وإيماءة عينيه، واهتزازات شاربه.

مـــا أجمله من وطن، صار بديعاً ورائقاً، رائعاً ومبهجاً، منذ أن صـــار الكـــل في واحد، تحوّل الجميع بكل أحلامهم وطموحاتهم، غـــدهم ومـــستقبلهم، ماضـــيهم والحاضر، كل الكائنات والأشياء انـــصهرت، تلاحمـــت، اتحدت، انصبت جميعها في بوتقة واحدة، لا غيرها، اتخذت هيئة الزعيم.

صـــار هو كل شيء وأي شيء، وغدت الكائنات في الوطن المعطاء، مكمـــلات للصورة الكلية، بضعة مسامير تدق لتثبيت الصورة، مجرد كلمـــات رصت بعناية في الشعارات المرفوعة، بضعة شعيرات هزيلة

خارجة من مسام مفتوحة في جلد الزعيم، تنتظر استقبال ما ينفثه سيجاره، عيون لا تنظر إلا بأمره، ولا ترمد إلا إذا أراد لها، ولا تجفل ولا ترمش ولا تذرف دمعاً، أو حتى ترى جمالاً أو دمامة إلا بأمره الصائب ورؤيته الثاقبة.

- ليس وطناً هذا، إننا نعيش في قفص ببغاوات.

قالها في لحظة جنون نادرة أحد أفراد الشعب، في وقت لم يكن يسري المخدر في جسده، فكان أن رأى ما وراء الشمس، وهو المكان الذي تفضّل الملهم بإرسال قلة ضالة من أفراد الشعب "تعد - كالعادة - على أصابع اليد الواحدة" للسياحة فيه.

كانوا دائماً ما يسمعون تلك العبارة دون أن يدركوا معناها، لم يكن أي منهم يتخيل ان هناك شيئاً يخبئه الأفق، وراء تلك الكرة الحارقة.

ومنذ هذا اليوم لجأ كثير من المواطنين الصالحين إلى خائط ماهر في الأحياء التي يتكدسون فيها، كي يغلق أفواههم بإحكام وفق ما تتطلبه المرحلة الحاسمة من حياة الوطن، في الوقت الذي انطلقت فيه غالبية الذين كانت تتحرك لديهم نزعات الشر، في الالتجاء إلى أصحاب ورش اللحام، مقدّمين من أموالهم القليلة أجوراً من أجل تثبيت قطع من المعدن الصقيل المانع لخروج الكلام والأفكار، والقادر على صد أي ثرثرات تتناول الأحوال في الوطن بالغمز أو اللمز، فيما ابتكر البعض طرقاً جديدة لمنع الأفكار الشيطانية من المرور ولو عرضاً على البال، وانزوى آخرون بعيداً عن المشاركة في جلسات سمر كان الهدف منها قطع الوقت بعيداً عن ارتكاب حماقة الخوض في السياسة.

شعب من الخائفين الدائمين، ازدادوا رعباً، بعد تلك الحادثة، إذ تناقلها الجميع، بعدما أضافوا عليها المزيد، وتبادلوها، حتى تحولت في النهاية إلى ملحمة تغني لكل من يستمع إليها عن آلاف الخطب والشعارات والتحذيرات، بل وحتى العقاب.

في هذا الوقت كانت مهام القائد وأهدافه القومية تسير في طريقها المرسوم، دون أن توقفها مكائد الكائدين، ولا نوايا الأعداء الشريرة، كل الأمور أخذت تمضي في طريقها الواحد، وإن كانت عبر ثلاثة مسارات، خطة الزعيم الخاصة ببناء الحضانة الوطنية، وخطته لإمداد الوطن بأنجال من نسله الرئاسي، وقراره المبطّن، الكامن في النوايا، والمتعلق بتوسيع رقعة البلاد لتصبح امبراطورية، تتناسب مع أحلامه التوسعية.

أهداف وضعها نصب عينيه وسار حثيثاً في الطريق المؤدي إليها، بعضها معلن والآخر طي الكتمان، لكنه في قرارة نفسه كان مصمماً على خوض غمار التحديات الثلاثة، مهما كلفه الأمر من تضحيات ستكون على حساب الوطن وأبنائه، حتى لو وصل الأمر به إلى استنزاف مقدرات الأمة وارتهان مستقبلها، فما الذي يخسره حين يغامر، سوى مستقبل الشعب؟

وفي الوقت الذي سار فيه في طريق تثبيت دعائم حكم الأنجال في الشطائر الأربع، محيطاً كل منهم بجيش كامل من المستشارين والخبراء، وبعد أن نجح بشكل أكبر مما كان يتوقعه في الحصول على القبول الشعبي، والمباركة من كافة أطياف البلاد، فإن الطريق المؤدي إلى إنجاز الحضانة كان هو الآخر يسير وفقاً لما كان مخططاً، ودون أن ينجح عسس الدول الأخرى، في الحصول على معلومات تفسر لهم ما يجرى، وتنبئهم بالخطوة المتوقعة، فور

الانتهاء من وضع القبعة على رأس الوطن، عن الذي سوف يجرى بعـــد أن تتحول تلك الدولة الجارة، إلى وطن مغلق، مستغرق في دنـــيا لا سمـــاء لها، ولا تقدر الشمس بكل عنفوانها على الدخول إليها، إلا بإذن المبجل.

كانـــت تلـــك الخطوة هي حجر الزاوية، إذ عن طريقها سيتم تهـــذيب الـــشعب، وإعادة تصنيعه وفق الطريقة التي يرى انها أصلح للـــبلاد وللعباد، وبعد أن تتم وفق ما رسمه في خياله، بتفاصيل دقيقة ظـــل يستعيدها خلال دورانه داخل الحديقة الرئاسية، بات يعرف ما هـــو متوقع، وما تبقى أمامه من الخطوات قبل الوصول في النهاية إلى تحقيق هدفه الأكبر.

(13)

هـــبطت علـــى الـــبلاد مجموعات من رافعات وأطقم خاصة بالتشغيل والصيانة، تطلب كل جزء من القبعة عشر رافعات بامتداد طول الشطيرة وعرضها، كان هذا العدد من الأليات تصاحبه أخرى مساندة، ما رفع عدد العمال والفنيين والمهندسين، إلى رقم كبير لفت الأنظـــار عـــند هبوطه، غير أن الزعيم الذي اضطر للموافقة، كان يعلـــم أنه لأجل تحقيق الهدف الأسمى، فلا بديل أمامه سوى ابتلاع الحنظل.

أمـــر رجله الأول، مدير مكتبه وحامل أختامه أن يتولى مهمة إخفـــاء النوايا عن القادمين، حذره من احتمال أن يكون هؤلاء مجرد جواسيس في أردية عمال، طالبه بالتيقظ، وتضليلهم.

لم يـــتوان الرجل عن القيام بالمهمة على خير وجه، ففي الوقت الـــذي قـــام فيه سائقو الحافلات ذات الزجاج المغطى التابعة للقصر

الرئاسي، بشحن القادمين من بوابة المطار الخارجية، تلك التي ستغلق نهائياً في لحظة الانتهاء من رفع القبعة، تم إدخال هؤلاء، ليحتلوا مقاعدهم التي يمنع فيها عن الضيوف الضوء والرؤية، إلى أن وصلوا بعد وقت إلى إحدى استراحات تم اختيارها في مكان متطرف، وذات حراسة يقظة، في ظل تعليمات بمنع الدخول إلى المكان أو الخروج منه، ورفض أي تحول في المنطقة، قد يقوم به الضيوف ثقلاء الظل.

في نفس الوقت كانت الآليات تتوافد مع سائقيها عن طريق الفتحة الحدودية الوحيدة في داخل جدران البلاد، تلك الفتحة التي رؤى أن تغلق وتفتح وفقاً للحاجة، على أن تشدد الحراسة فيها، وتصبح قادرة حتى على منع أسراب النمل من التسلل عبرها.

تعليمات صارمة صدرت وكان على الجميع تنفيذها، إذ ليس من المقبول أن يتسبب خطأ واحد في افشال أهداف الزعيم، أو حتى التسبب في ارجاء الموعد المحدد لإنجازه، ولو أدى الأمر إلى قطع العلاقات مع كل الدول التي قدمت مساعداتها مدفوعة الأجر، بل وحتى لو أدى ذلك إلى الأمر بشنق نصف الشعب إن تراخى، أو استنام، أو تقاعس عن أداء الواجب.

مضت ساعات سبقت الموعد الذي تحدد لرفع أجزاء القبعة، في البداية كان لا بد من إعادة فحص المادة اللاصقة، وبعد التأكد من صلاحيتها، وجّه المحبوب أمراً بأن تكون جميع الرافعات عند الأماكن التي خصصت لها، على أن تبدأ عملية رفع القبعة في وقت واحد، ومن جميع جهات الوطن.

وهو ما كان، إذ تحولت الساحات إلى أمكنة حاشدة، جحافل من الشعب الخامل انطلقت من تلقاء نفسها، وأخرى

اندفعت إلى هناك اتقاء لضراوة الهراوات، وثالثة اعتبرت الأمر يتعلق بأداء واجب ديني، كثيراً ما روّج له رجال ظلوا مستعدين دائماً إلى النصوص وتفسيرها وفقاً لأهواء من يمتطي سدة الحكم.

أخذ الأمر وقتاً قبل أن تتمكن الرافعات من حمل أجزاء القبعة إلى الأعالي وسط تمليلات أبناء الشعب، وفي لحظة ظل فيها قلب الزعيم رابط الجأش، يواصل الخفقان، بينما كان ملقياً بجسده في السيارة الرئاسية الفخمة، الواقفة على البعد مزودة بأكثر العدسات قدرة على تكبير المشهد، وتمكين الجالس في داخلها من رؤية الحشرات وهي تدب على الأرض، في هذه اللحظة، أخذ الضوء يتوارى بانتظام، راحت خيوط الشمس التي قال عنها الأطباء الرسميون ان في اختفائها حماية للأجسام من الإصابة بسرطان الجلد، تختفي بتلكؤ حتى اندثرت.

وبعد انتظار نال من أعصابه، وأصاب شعبه الوفي بالقلق، اقتربت الأجزاء الأربعة، تلامست، التصقت، اندفع الخبراء بالمادة التي اخترعوها خصيصاً، وفي أعقاب ذلك، غطّت الدائرة الضخمة حواف الجدران.

هكذا وبتصميم من الزعيم ووفقاً لإرادة عارمة بثها في قلوب أبناء الشعب، لم يعد رأس الوطن اعتباراً من تلك اللحظة التاريخية الفاصلة عارياً، معرضاً لبرودة قارسة ولا حرارة شمس لاهبة، بات للوطن العزيز في عهد قائده الخالد... قبعة.

(14)

انطبقت السماء على الأرض، خيّم ظلام دامس فور الانتهاء من لـصق القـبعة، فلـم يكد الشعب يرفع حناجره مطلقاً صرخات الاستحسان، حتى ألقت العتمة بكامل ثقلها، حتى أن أي مواطن لم يعـد يعرف من الواقف إلى جواره، ذلك ما منعهم من تبادل التهنئة بالحـدث الجلـل، ورفع الحس الأمني لدى الزعيم، حتى في خضم لحظـات فرح عارم كان قد اجتاحته للتو، ودفع إليه شعوراً مشابهاً لذلك الذي يراود الطواغيت حين يحرزون انتصاراً.

ففي تلك اللحظة المظلمة، والتاريخية، صرخ في سائقه ليسارع بـالانطلاق بعيداً، أدار مفتاح مصابيحه، فعم المكان نور كان يكفي لـيخوض فريقين لكرة القدم مباراة حامية، أخذ الشعب الذي كان غارقـاً في ظلمة المكان، يلملم بعضه، يستعيد توازنه، على الرغم من أن مباغـتة سهم الضوء الرئاسي، تكفلت بإرماد مئات الأعين، كان ضوءاً هائلاً، اعتقده الكثيرون برقاً، سرعان ما سيعقبه المطر، نسوا في لحظة واحدة انهم للتو شاهدوا القبعة تهبط فوق جدرانها، وان وطنهم المفدى أصبح معزولاً عن السماوات والفضاء وعن الظواهر الطبيعية التي عرفوها في السابق، وتعايشوا معها.

أدرك الـسائق ان وسـواس الرعب من الاغتيال، سيطر على الـزعيم، اندفـع علـى الفور خارجاً، وعلى الرغم من أن إطارات الـسيارة الرئاسـية، راحت في طريقها تحصد العشرات من الأطفال وكـبار الـسن الذين لم تسعفهم أرجلهم الركضة، إلا أن ذلك لم يـشكل سـبباً يدفـع الرجل الحنون لدعوة سائقه للتأني، واعتماد الحـرص، إذ كان لديه حتى في الحالات العادية اعتقاد جازم بأن لا شـيء يمكـن أن يقـف في طريق المسيرة، حتى لو كان الشعب لها

وقوداً، فما الذي يضير، في لحظة تاريخية كتلك، أن يقدم بضعة مواطنين أرواحهم قرباناً؟

تلك كانت الخطوة الأهم التي سيكون بعدها للبلاد شأن آخر، فمن خلال الحضانة سوف يتغير الحال، ستحدث نقلة نوعية مذهلة ليس في شكل الوطن الذي بات أقرب إلى صومعة هائلة، سوف يمنع عنها الهواء غير المعقم، بل ان التغيير المذهل سيكون في نوعية أبناء الشعب، طباعهم وعاداتهم، قدراتهم، وسلوكهم.

تلك هي الأهداف الوطنية المرجوة من حضانة ابتكرتها خلايا عبقرية في رأسه، فقطرها يصل إلى ما فوق التصور، ويتعدى محيطها أي مقياس معروف، لدرجة انه بات بالفعل يفكر في إدخالها ضمن موسوعة الأرقام القياسية.

أمر بإضاءة شوارع وحارات وبيوت البلاد، ما أذهل الأهالي الذين لم يخطر ببالهم أن الظلام يمكن أن يخترق حمى الوطن في منتصف الظهيرة، غير أنه ما دام القرار صدر من القصر الرئاسي، فإنهم لن يستطيعوا حتى مجرد التفكير فيه، ذلك انهم أصلاً لو تلقوه من رئيس عمال الكهرباء في إحدى الحارات، ما استطاعوا مخالفته، الأمر الذي دفعهم للطاعة، فانتشرت في البلاد الأضواء، تحولت إلى ساحات نهارية، انتهز الناس سطوعها فالتوت أعناقهم باتجاه واحد، إلى حيث تكمن القبعة المقعرة، التي أصبحت سماء بديلة، للوطن، تغطيه، وتستر أبناءه، تحميهم من البرد والهجير، ومن عيون الحاسدين.

استوى الأمر، وفي اليوم التالي تأكد من مغادرة أفواج الفنيين وسائقي الرافعات وفرق العمل، عائدين من حيث جاءوا، وتيقن من أي من هؤلاء الجواسيس المتنكرين، لم يستطيعوا الوصول لأسباب إغلاق الوطن.

عندئذ، قام بجمع بطانته، طالبهم بالاستعداد لتحوّل الدولة من النظام السابق الذي كانت تتبعه إلى نظام آخر تصبح فيه هي التي تتكفل بغذاء وإيواء وصحة وتنفس وتعليم وتربية وتهذيب المواطنين.

قال إن ذلك التحول الكبير، سوف يترافق مع كفالة تامة للمواطنين تستهدف رفع كفاءتهم، وتحويلهم من الخمول واللامبالاة والكسل والتمارض والتسيب والانبطاح إلى شعب أقل كسلاً وأقل نمواً، وأكثر أعمالاً للعقل، وتهذيباً مما هم عليه.

قال لمستشاريه، إن اللحظة التاريخية المنتظرة حانت، وإن التحول المطلوب في طريقه للتحقق، عندئذ، قام بتكليف الأطباء ورجال التربية والتعليم والإعلام والفقهاء بشقيهم الدستوري والديني، بمسؤولية صناعة الشعب الجديد، وتعديله وفقاً للدرجة التي ترضي الزعيم وتساعده فيما بعد على تكوين امبراطورية لا تغيب عنها، مهما حاولت، عين الشمس.

(15)

ما أن تم الانتهاء من بناء الحضانة، حتى أصبح الأطباء هم أصحاب الصوت المسموع، كانت المهمة التالية هي التركيز وفقاً للخطة الرئاسية المعدة، على توفير المناخ الملائم في الحضانة، لتعقيم البشر، ورفع الكفاءة الصحية، استبدال الهواء الذي كانوا يستنشقونه بآخر تم معالجته بمواد عدة لجلب الصحة، ومنع الأمراض من التسلل للأجساد.

كانت تلك هي الخطوة المنصوص عليها في الخطة، والتي حرص الزعيم على استهلال مشروعه القومي بها.

بعد توفير المناخ الملائم لسكان الحضانة في جهاتها الأربع، كانت فرق كاملة قد أعدت نفسها لتنفيذ المهام الموكلة لها، راحت مجموعات التــربية والتهذيب وموظفوها المكلفون بالتأديب والإرشاد، والمختصون بالتوجــيه المعنوي والنفسي، يعقدون اجتماعات يتواصل خلالها الليل بالــنهار، خلــية نحل، استنفر لها الوطن، وبجهود خالصة، باتت البلاد منغلقة على نفسها، مثلما أراد القيّم عليها، فليغرق الجيران والأعداء في بحــر ظــنونهم، الحاقدون والطامعون، الذين ينفلق الحجر من بصيص أعينهم، وليظلوا أبد الدهر يضربون أخماساً في أسداس، فالحيرة التي باتوا عليها، هي من بين الأهداف التي سعى إليها الزعيم، بحرصه الشديد على كــتمان ما ينويه، وعلى إضفاء أقصى قدر من السرية على مشروعه، ليس يهمه من بعيد ولا من قريب، ولا يعنيه، أن يطمئن هؤلاء الجيران الفضوليين إلى التطورات التي تشهدها بلاده، ليس يعنيه على الإطلاق أن يرضــوا عنه، أن يثقوا في نواياه أو لا يثقوا، فبعد أن يتمكن من إكمال المهمة، وبعد أن يصنع شعباً مغايراً لذلك الذي كان ابتلي به، سوف لن يكون بحاجة لاستيراد سلعة واحدة منهم، لن يحتاج إلى مبادلتهم؛ وليس يعنــيه حــتى الالتزام بالتمثيل الدبلوماسي معهم، بل هو لم يكن في حاجــة إلى ذلك أصلاً، من اليوم الأول لصعوده سدة الحكم، وقتها راودته فكرة الطلب من الدول سحب سفرائها حتى ينتهي من تنظيم وطــنه، قــال لهم إن المسألة لن تستغرق أكثر من شهر، سيتم إعادة البعــثات الدبلوماســية إلى نفس أماكنها، لكن بعد أن تكون مقار الــسفارات قــد تم بناؤها مجدداً، كانت تلك حيلة أراد بها طمأنة المخاوف التي بزغت لديهم، كان وقتها يود إبعادهم عن أي فرصة، يمكن أن يلتقطوا من خلالها خيوطاً، تدلهم على حقيقة ما يجري، في ذلك البلد العجيب.

ســارع في الوقت الذي بدأت فيه الدول تسحب سفراءها، إلى استدعاء ممثلي بلاده في كافة الدول، بحجة التشاور، ذلك المبرر الــذي تذكــره في العــادة وسائل الإعلام الحكومية، وهي تتلو البيانات الرسمية تلو البيانات، وعندما تم الانتهاء من تلك الخطوة، راح يلغــي تــصاريح اعــتماد الصحفيين الأجانب ومندوبــي وكــالات الأنــباء، ممثلــي الشركات المتعددة الجنسيات، الخبراء القــادمين مــن المنظمات الدولية، الاستشاريين والفنيين والخبراء الأجانــب، كــل من كان يقيم في البلاد وليس هابطاً من صلب رجالــه، ولا خارج من أرحام نسائه، كان عليه أن يحزم حقائبه ويتجه مباشرة إلى المطار، حتى من قبل أن يتم البدء في لصق أجزاء القبعة ووضعها فوق هامة الوطن.

المراسلون الصحفيون الذين عادوا إلى بلادهم، أدركوا فيما بعد أنهم طردوا، وان الأكاذيب اخترعت لتمرير الأمر على دولهم، ومع انهــم راحوا يكتبون عما شاهدوه خلال الأيام التي سبقت خروجهم مــن هناك، وتحولوا إلى أعداء قساة لنظام الزعيم ولوطنه، إذ انهالت المقــالات والتحلــيلات تتهم نبع حنان الأمة بالاستبداد، منقبة في الــصفحات السوداء لتاريخه منذ أن وصل إلى الحكم، وجازمة بأنه يقود بلاده إلى كارثة.

لكن على الرغم من ذلك، فإن كل ما كتب، كل ما أريقت في ســبيله الأحــبار، وتطلب لأجل إيصاله إلى القراء، مجموعات هائلــة مــن الأوراق، لم يــستطع هــز شعرة في الحاجب الأيمن لقائــد الأمة، الذي ظل في طريقه، يردد بينه ونفسه، ويكرر أمام الحاشية:

- "إن القافلة سوف تظل تسير، حتى لو استمرت الكلاب تنبح".

كـــان يشير بذلك إلى الحملات الإعلامية، التي تصاعدت فيما بعـــد، إثر تأخر موعد إعادة السفراء، الأمر الذي حوّل الشكوك إلى حرب مكتومة.

ووسط تلك الهجمات الكلامية، كان المبجّل يعيش أياماً أكثر حـــبوراً، إذ اســـتطاع بناء الحضانة بالكامل، وواصل الأطباء وفقاً لتعلـــيماته، تجهيـــز أنفسهم للقيام بعملية تعقيم الشعب، فيما قامت ممرضات الوطن بتعقيم الملابس التي سيكون على المواطنين ارتدائها، وانـــبرى المكلفون الآخرون كل في مجاله يقدمون تقارير يومية، حتى مـــن قبل أن يبدأوا عملياً ممارسة المهام المطلوبة، كل ذلك كان يحقق السعادة له، لا شيء سواه، كل الخطوات كانت ماضية، والطرق التي تم تمهـــيدها لذلك الحدث بإصراره، وحزمه في الكثير من التفاصيل، كانـــت هي التي تعنيه في المقام الأول، أما ما يدور خارج حدوده، فـــذلك أمر لن يكون له تأثير على خططه، ولا على إرادته الحديدية التي حلم بتعميمها يوماً ما على أبناء شعبه.

وقتها لن يدخل أي فرد من الدول الأخرى إلى بلاده، المغلقة، بـــل حتى الأضواء القادمة منهم لن تستطيع التسلل، لن يتمكنوا من مـــراقبة الوطن بأي وسيلة، إذ إن كل ما سوف يشاهدونه مجرد قبعة صلدة، لمكان مغطى بالكامل، يرتدي قبعة حجرية، فيما سيتمكن هو بيـــسر مـــن متابعة ما يدور لديهم، عن طريق فتحات دقيقة تعمد اســـتحداثها في عـــدد من الجهات، دقيقة، شديدة الصغر، بالإمكان إغلاقهـــا دون أن يلاحظ الجيران، هو فقط الذي سيعرف ما لديهم، أما هم فدعهم في حيرتهم يتخبطون.

هكذا قرر منذ هبطت القبعة على رأس الوطن، أن يمنع الدخول إلى البلاد، فمع ان المطار الذي كان يربط بلاده بالعالم الخارجي أغلق

من وقتها، و لم يعد السكان يسمعون ضجيج الطائرات المارقة، تلك التي كانت تنفث سموماً دخانية في الهواء، فإنه قرر أيضاً إغلاق البوابة الوحـــيدة في الجـــدار، لمنع وصول القادمين من أي جهة، في الوقت الذي كان يعرف أنه في يوم ما سوف يأتي في النهاية، ويأمر بفتحها، لتـــنطلق منها جحافل متخيلة من جيشه العرمرم لغزو الدول الجارة، وإســـقاطها واحـــدة بعد الأخرى، وتكوين الإمبراطورية التي ظلت تـــدور في رأسه كحلم كبير وهدف نهائي، إذ ليس من المعقول أن يكـــون زعـــيماً عبقرياً، له مثل ذلك الاحساس المتضخم بالذات، ويرضـــى بـــأن يكـــون نصيبه في الدنيا، رئاسة شعب بليد وخامل ومستكين.

الفصل الثاني

(1)

فى الساعة التي انقطع فيها بث التليفزيون الرسمي، أصيبت إذاعة البلاد بالبكم، كان الثوري الجديد قد استعد لإلقاء البيان الأول، انتهى من اجتياح القصر الرئاسي، دون مقاومة، فمن كان بمقدوره التصدي، فيما سيد القصر والبلاد يناضل في مكان آخر، بعيداً عن ساحة الوطن.

وحين انتقل الزعيم الجديد للشعب إلى المبنى الوطني للإعلام، وفيما راح رجاله يجهزون له النص الذي سيلقيه بعد دقائق، ويسمع من خلاله صوته الشجي للشعب الطروب، في هذا الوقت شعر المواطنون الصالحون بالدهشة، إذ توقفت فجأة، عيونهم عن متابعة المطربات وهن يتمايلن رقصاً على إيقاعها، وتعطلت آذانهم عن سماع أغنية تعلقوا بها، كانت تذاع في ذلك الوقت، وتتحدث عن والد الشعب وقائده وبطل الحرب والسلم، رمز الاستقرار والرخاء، ومحط إعجاب العالم وزعمائه، هكذا كانت الأغنية تقول، وكان الشعب من فرط ما بثت على موجات الإذاعة الوطنية، قد اعتادها حتى أنها اتخذت في النهاية مكانة مساوية لنشيد البلاد الرسمي.

لم تكن تلك هي الأغنية الوحيدة، إذ استطاعت أجهزة الدعاية التابعة للحاكم السابق - المطاح به فيما بعد بثورة مباركة قادها حبيب الشعب أيضاً، وقائده وبطل الحرب والسلم، ورمز الاستقرار

والــرخاء كذلك، ومحط إعجاب العالم وزعمائه هو الآخر، الزعيم المبجل المهيب، الأخ الرفيق، الركن - أن تحشد مئات الأغاني طوال العهـــد" الـــبائد "، محشوة بكلمات تدور كلها عن الحاكم وأفضاله وأياديه البيضاء والمستقبل الزاهي الذي عاشته وتعيشه وسوف تعيشه الـــبلاد، ألغـــت تلك الأجهزة حتى من دون أن تصدر قراراً رسمياً، الأغـــاني الـــتي تـــتحدث عـــن الحب والجمال، وتداعب في البشر مـــشاعرهم، بـــات الحـــب موجّهاً باتجاه واحد، والتضحيات كلها لأجـــل واحـــد، والمـــشاعر الرقيقة والأحاسيس الإنسانية، الأحلام والأمنيات، التطلعات والطموحات، الأفراح والبهجة، كلها موجهة باتجـــاه الحـــاكم العبقـــري في ذلك الوقت، والذي تحوّل في عرف الأجهـــزة نفسها خلال ساعات معدودة، إلى خائن وعميل ومرتش وراعـــي للفساد، ساهمت تلك الأجهزة فيما بعد في تحويل المشاعر الـــشعبية إلى الجهة المعاكسة، تلك الدرجة التي اندفعت فيها جموع الجماهير إلى الميادين مطالبة بمحاكمة صارمة للحاكم السابق، الذي لم يكن أيضاً ينتظر تلك اللحظة، فقد انقذه قيام الانقلاب العسكرى وهـــو خارج البلاد، يستمتع في أحد قصوره المنثورة في مدن العالم الكبرى، تؤنسه جيرة الساسة، المحالين على التقاعد، ونجوم هوليوود الأشهر.

فى هذا اليوم الذي وصفته وسائل إعلام الحاكم الجديد على أنه تاريخـــي، توقف الناس عن سماع الأغاني بعد إدمان، امتعضوا بعض الوقت، استغربوا انقطاعاً لم يسبق أن حدث في جهاز دعاية الحاكم، تساءلوا بينهم عن السبب، ثم استسلموا للأمر، حين لم يجدوا جواباً.

لم يطـــل الوقت، إذ هل وجه القائد الجديد، الذي سيطلق عليه اعتباراً من تلك اللحظة أوصافاً عديدة، كلها في العادة خارقة، معلناً

عـــن قـــيام القوات المسلحة بإنقاذ الوطن من فساد الحاكم السابق، وواعداً بعهد جديد، يتحقق فيه الرفاه والتقدم، وينعم فيه كل مواطن بخيرات وطنه، ومعاهداً الشعب، ومشدداً بالقسم المغلظ على أن فترة حكمـــه الانتقالية ستشهد عملية نقل البلاد على أعتاب الديمقراطية، وإعادة الاعتبار للدستور.

وســـرعان ما اختفت من الميادين والشعارات ومقار الحكومة ومؤسساتها الرسمية صور الحاكم السابق، والشعارات التي رفعت قبل وقت قصير، وكانت التنظيمات والجمعيات واللجان القومية، تؤكد فـــيها باسم الجماهير العريضة، تأييدها للأبد، وتجدد بها عهد الولاء والوفاء للحاكم.

تغيّـــرت الأمور، والهتافات التي أطلقت طيلة السنوات السابقة، الـــنداءات والأناشـــيد، القـــصائد والمعلقـــات، كل ما صدر عن المهـــرجانات والمؤتمـــرات والندوات، تم محوه تماماً وفي أقل من رفة جفن.

في بداية الحكم الجديد استبشر الناس خيراً، فالزعيم الذي صعد بسهولة واستولى على كرسي ظل الحاكم السابق جالساً عليه لأكثر مـــن ثلاثـــة عقـــود، سرعان ما اتخذ قرارات، دفعت الناس لإبداء الإعجـــاب، كان من بينها إصدار قرار يمنع بث أغاني عنه شخصياً، وإزالة الصور التي كان الهتافون الدائمون وماسحو الجوخ قد تسابقوا في رفعها على أبواب المؤسسات ووسط الميادين الكبرى، إلغاء لقب فخامـــة التي يسبق لقب الرئيس، رفض الإقامة في القصر الذي كان يـــسكن فيه الحاكم السابق، فمن غير المعقول أن يفعل الجديد ذات الفعـــل الـــذي اتخذ منه ذريعة للهجوم على المطاح به واتهامه بكل الموبقات المعروفة والمخترعة، بالفساد والارتشاء والطغيان والاستهتار

بمقدرات الشعب، ليس من المعقول أن يقوم بذلك وهو يطرح نفسه كــرجل القــدر الــذي جاء إلى البلاد كي ينقذه من حكم فاسد ومتحجر.

لم تكــن تلــك قرارات عادية، فالشعب الذي اعتاد طوال ســنوات على حالة واحدة، ورجل واحد، كان يتصوره في بعض الأوقات أحد الأنبياء الصالحين، سرعان ما بعثرت أمامه معلومات تــؤكد كلــها بشاعة الحكم السابق، الغارق في الملذات، والفاتح لخزائن الدولة للانفاق على رفاهيته، ثم أخذت وسائل الإعلام التي تقــف في العــادة إلى جوار المنتصر، وتلعن بإخلاص تاريخ الذين ينهــزمون، تــدل أبــناء الشعب على ما يدفع إلى قلوبهم كراهية الحــاكم ونظامــه المقبور، فراح يتبادل حكايات بعضها حقيقي أضــيفت إليها بعض المبهرات، والأخرى لا تمت لما حدث بصلة، غــير أن الأمر ظل يستدعي في حدث كهذا من المبالغات أقصاها، ومن الوقائع ما يشد انتباه السامعين، ويطرب من أعتلى للتو سدّة القصر الرئاسي.

كــل ذلك، كان يصب في صالح تثبيت النظام الجديد، إذ كان ســيربح أي مقارنــة، في ظل ما يقال عن تواضعه وبساطته، ونواياه الطيــبة، وطهــارة يــده، في وقــت لا تتردد عن غريمه إلا قصصاً فضائحية.

تحــوّل الشعب بالتدريج إلى قائده الجديد، أحاطه بحب شديد، وبإعجاب انقطع نظيره، بات الزعيم مطمئناً، شعر بنجاحه في الخطوة الأولى، أبــدى امتنانه لصديق عمره، قرر ترقيته إلى رتبة عسكرية لم يسبق أن نالها أحد في البلاد، أصبح "مارشالاً" على الرغم من انتمائه إلى الجهاز الحكومي.

قــرر أن يكون اللقب تقديراً للنصائح التي قدمها له بعد نجاح الانقــلاب، إذ ســرعان ما اتصل به، واهباً نفسه لخدمته، ثم أهداه نصائحاً رآها فاتحة جيدة لعهده الميمون، مؤكداً أن اعتمادها سوف يكــون لــه مفعول السحر في كسب ود الجماهير، وإعطاء انطباع مؤثّر عنه وعن حكمه لجموع الشعب، ثم ان أكبر الفوائد التي سيتم جنــيها من ذلك، هي محو أي ذكرى عطرة للحاكم السابق قد تظل باقية في قلوب المخدوعين.

تلــك النصائح نفّذها الزعيم بحذافيرها، ومنعت بموجبها أي مظاهــر لتمجــيده، غير أن التي رفضها، وخاض لأجلها نقاشاً، كانت تدعوه إلى القول في أول خطاب، أن لا نية لديه، للبقاء في الحكــم أكثر من مدة رئاسية واحدة، ليس هذا فقط، بل أبلغه أن من الأفضل ان يوهم الشعب بزهده في السلطة، وانه لا يريد أصلاً الــبقاء فيها سوى لفترة انتقالية محددة، يتم بعدها تنظيم انتخابات رئاســية، وتدشــين مسيرة ديمقراطية، لم تعرفها البلاد طوال مدة الحــاكم الــسابق، ومن ثم وصول رئيس جديد للبلاد عن طريق الانــتخاب الحر المباشر، الذي يكفل للشعب اختيار حاكمه مثلما يحدث في الدول العريقة.

هنا وقف معترضاً، أصابه الذهول من جرأة صديقه الذي أصبح واحد من أهم مستشاريه الشخصيين:

• من أين جئت بهذه الفكرة السخيفة؟ كيف أعد الشعب بأن لا أكــون رئيــسه؟ هل كانت تلك الثورة المباركة لعبة أمارسها ثم أدعها لتسقط بأيدي من هم غير مؤهلين لها؟

- هذه مرحلة انتقالية، يا صاحب الفخامة، نريد أن نثبت فيها للــشعب، ان نهجك مغاير لسلفك، يجب أن تكون لديهم قناعة بأن

القائد الجديد إصلاحي وديمقراطي وانه سوف يحقق لهم ليس الرفاهية ولا العدالة ولا حتى الكرامة، بل أيضاً الديمقراطية.

• لكن ذلك قد يورطنا في النهاية، حين نعد بما لن نستطيع من الناحية العملية تنفيذه، انهم فيما بعد قد يطالبونني بالوفاء بالعهد الذي قطعت، هل تتخيل وقتها، ما يجب عليّ أن أفعله؟

- مـــن ذا الـــذي سيطالب؟ إن ذاكرة الشعوب ضعيفة، ثم.. أهـــناك أحـــد في هذا البلد لديه الجرأة على المطالبة، ها أنت رأيتهم يحوّلـــون ولاءاتهم في لحظات، وهم أيضاً سيكونون مستعدين لفعل ذلك مع كل من سيمسك بزمام السلطة.

• ولمـــاذا ننتظر حتى يحدث هذا؟ لماذا نمنحهم وعداً قد يساهم في زيادة الوعي؟

- هـــذا الوعد لن يزيد من انتباههم، فهم تعايشوا مع التسلط حـــتى لم تعـــد الحرية تجلب لهم فرحاً، هم فقط يريدون أن يساقوا كالقطيع، وهذا ما سيحدث، فقط نحن نريد أن نبعث برسالة مفادها ان الحـــاكم الجديد فيه المزايا التي يتمتع بها كل الحكام الذين يتولون السلطة في البلاد ذات النظم الديمقراطية المتقدمة، وبعد أن تعم الفرحة في الـــبلاد، ويعـــتقد أبناء الوطن أن زعيمهم الجديد هبط عليهم من السماء، وتصبح يا صاحب السعادة بالتدريج لديهم بطلاً شعبياً أولاً، ثم بمرور الوقت ومع تكثيف الدعاية، تتحول من مجرد حاكم عادي إلى صاحب قداسة، سوف يضعونك في مكانة أقرب إلى الرسل، إن ذلك أمر يسير يا سيدي.

• ومـــا الذي ستضيفه لي تلك المكانة، أنا الحاكم، ولا أريد بسهولة أن أتنازل عن مزايا حصلت عليها، بإقدام، وجرأة ومبادرة، أتـــتوقع أن أترك ما حصلت عليه، لواحد من الرعايا تنتخبه رعاع؟

يمسك هو بالسلطة، وأجلس أنا من بعيد متفرجاً، إن حدث ذلك، فسأكون أول الضحايا، سوف ينزل بي أفظع التهم، وقد يحاكمني أيضاً، من أجل تثبيت حكمه، وإظهار أنه الحاكم العادل؟

- الأمر لن يكون هكذا، ولن تفقد السلطة يا سيدي، إننا سنجعل الشعب هو الذي يخرج إلى الشوارع، ليطالب بعدولك عن قرار الزهد في السلطة، ستندفع الجماهير إلى الميادين لتهتف لك، لتتوسل إليك كي تتراجع عن قرارك، سنوجهها إلى مقر البرلمان لتقدم مطالبها إلى النواب، بعد ذلك سيتولى نوابك المخلصون الخطوات الباقية، بذلك سوف تضمن المبايعة الشعبية كما لم تحدث حتى في الدول التي يضرب بها المثل في الديمقراطية واحترام الدستور.

• الدستور، هذا اللعين، هل هناك مادة تنص على ضرورة التنازل عن الحكم؟

- ليس هناك نص يجبر الحاكم على التنازل، وحتى لو كان موجوداً، فإن من يجيدون "تفصيل" القوانين وفق المقاس الذي تريد، موجودون، وجاهزون لتلك المهمة، الأمر لن يكون فيه أي صعوبة، فقط علينا في البداية أن نكتسب حب الجماهير، وأن نتمكن من إدخال الإيمان في نفوسهم بأن القائد الذي يحكمهم ملهم وقادر على تحقيق المعجزات، وإنه نموذج للعدل والتقى والصلاح، ونصير الفقراء والمساكين، والساهر على رعاية الشعب، والزاهد في مظاهر الدنيا، ورجل الايمان، وراعي العلماء والمفكرين والرياضيين ونصير المرأة، وداعم الديمقراطية الأول.

• هذا أمر لا أعرفه أبداً، لست مضطراً لتجربته، لن أذكر التنازل في خطاب، ولكن بإمكانك دفع وسيلة إعلامية للإشارة إلى إمكانية تحقيقه، أما لو حدث و لم تكن النتائج جيدة، لو أدركت أن

ما ستقوم به سوف يساهم في زيادة وعي الشعب، ولو بأي قدر، فإن عقابي سيكون شديداً.

(2)

لم يصدر بياناً يتعهد فيه بالتخلي عن رئاسة البلاد بعد انتهاء الفترة الانتقالية، لم يشأ أن يتم هذا الأمر وفق الشكل الرسمي، بمجرد تكليف لأحد رؤساء التحرير في واحدة من صحف الدولة شفوياً، ليلمح هو بذلك في مقاله الأسبوعي، وسيتكفل الشعب الذي تستهويه النميمة بترديده، الأمر الذي سوف يتحول فيما بعد إلى حديث متداول بين أبناء الوطن، سيظل ملتصقاً ولو بشكل مؤقت بالذاكرة، وسبباً لجلب اعجاب الجميع وتقديرهم.

اعتقد الزعيم ان أمراً كهذا سوف يعود بإزعاج هو في غنى عنه، فهو لا يريد من الشعب سوى التسبيح بسجاياه عند إطلالة الشمس وفي المساءات، أما الإصلاح والديمقراطية والعدالة والتسامح والزهد فمقولات لا تحمل عند الدول الزاحفة على بطونها، غير معاني خائبة لا سبيل لتطبيقها على أرض الواقع، ثم انه في الأساس لم يأت لإنقاذ الشعب من الفقر ولا المرض ولا الجوع، فقط جاء حاملاً أجندته الخاصة، منذ أن باتت أحلام اليقظة تطارده في السنوات الأخيرة.

كان يعلم أن طموحاته، لا يمكن من الناحية العملية أن تتحقق سوى بالقبض على سدة الحكم والتحول إلى بطل قومي منقذ، ثم تجييش مواطنيه، ووضع إمكانيات البلاد لخدمه مشروعه الإمبراطوري، ولو كان ذلك على حساب الجيران والأشقاء، الأصدقاء، وكل بشر الدنيا أجمعين.

واصل الشعب إبداء إعجابه بالبطل المنقذ، الزعيم المحبوب صاحب الصفات الرحيمة، حبيب الجماهير ونصير الضعفاء والمظلومين، فارس الفوارس وأسد الضواري ونمر النمور، حامي العرين، وقاهر الحاقدين، ومفجر طاقات الشعب، وباعث فضيلة الاستخدام الأمثل للحناجر، موجه الجماهير والرجل المؤمن التقي الذي لا يخاف في "السحل" لومة لائم.

سار السيناريو وفق النظام الذي وضعه الوصيف المخلص، كاتم الأسرار، وبالدقة التي أذهلت فيما بعد قائده، وعمّقت لديه شعوراً بضرورة وضع المزيد من الثقة في رفيق العمر.

جاءت الخطوة التالية، لتصب في اتجاه آخر، نصحه المارشال بتوسيع الدائرة المحيطة، على أن يتم إغداق الأموال والامتيازات على المنتمين إليها، أفهمه أن ارتباط هؤلاء بالنظام وإغداق المزيد من الامتيازات عليهم، سوف يجعلهم في النهاية جزء منه، يدافعون عنه باستماتة، مؤمنين ان سقوطه يعني سقوطاً لهم، وانتهاء للمزايا التي يتمتعون بها، والثروات التي ينهبونها من قوت الشعب وعرق جباه أبنائه.

قسم كاتم الأسرار، ناصح الزعيم ورفيق عمره، من سيحصلون على الامتيازات إلى أربعة اصناف:

- آمرو القوات المسلحة والشرطة والحرس الجمهوري ورجال جهاز الاستخبارات، وهؤلاء سوف تمنح لهم امتيازات في الأراضي والمساكن والمواصلات والأندية والجمعيات والشواطىء.

- الإعلاميون ورجال القضاء والفنانون والشعراء وعمداء وأساتذة الجامعات، وبعض رجال الدين، أصحاب الألسنة الذربة، وهؤلاء سيتم منحهم الكثير من الامتيازات العينية والنقدية، وتأمين

دخل مريح لهم، مع إعطاء حق الضمان الاجتماعي والمكانة اللائقة، والتناوب على إظهارهم بشكل دوري في وسائل الاعلام.

- رجـــال الأعمال المرتبطون بالرئاسة بشكل أو آخر، وهؤلاء ســيتم الاتفاق معهم على أن يكونوا في بعض أعمالهم مجرد واجهة لإدارة مـــشاريع زعـــيم الأمة وأنجاله، واستثمارتهم في داخل البلاد وخارجهـــا، علـــى أن تهـــيىء لهـــم من أجل أداء هذا الدور كافة الإمكانـــيات، مـــن تـــسهيلات بنكـــية، إلى امتيازات في الجمارك والأراضي والتوكيلات، وحمايتهم من التعرض لأية مضايقات داخل البلاد أو خارجها.

- الـــصنف الرابع يتمثل في الوزراء والنواب، وهؤلاء سوف يحـــصلون علـــى امتيازات عديدة، من أهمها مساندة أجهزة الدولة، وتكـــوين حـــزب يـــسيطر على البلد، وينضم لرئاسته صدر الأمة الأعظم، فيما بعد.

عـــندما اقتنع الزعيم بمقترحات المارشال، أعطاه الأمر بترتيب الـــوطن وفق ما اقترح، لم يكن صاحب النظرة الثاقبة لديه أي تردد تجاه الرجل الذي حمل أسراره وقام بكتمانها.

كان مقتنعاً أن النجاح في جعل الشعب يمتهن وظيفة واحدة هي التـــسبيح بمزايا الحاكم والدعوة له في آناء الليل وأطراف النهار، يعدّ مـــدخلاً جيداً له كي يسير في الخطط الفرعية الأخرى التي ستكون جـــسراً في الـــنهاية يعبر عليه لتحقيق خطته الأكبر، حلمه الذي لن يتنازل عنه مهما كانت الصعاب ومهما لاقى في سبيله من عنت.

لم يخطر على باله مجرد خاطر، ما ينبهه إلى التناقض المزري الذي وقـــع فيه، عندما قام بالثورة على الحاكم السابق، مبرراً الإطاحة به بأنهـــا تمـــت بدافـــع تخليص الوطن من الفساد والرشوة والمحسوبية،

وضمان تحقيق العدالة لكافة الطبقات، وها هو اليوم وبعد أن استتب الأمـــر، يقوم بتكوين حاشية من المستفيدين، ويرهن الوطن لمجموعة جديدة أشد شرها للفساد.

ذلك كله أمر لم يكن يشكّل له سبباً لتأنيب الضمير، ليس هناك مـــا يـــستدعي منه أن يندم يوماً على مباركته لنصيحة المارشال، ما دامت الأمور تسير في النهاية في الاتجاه الذي رسمه لنفسه، ويحقق له أحلاماً، لم تفارق خياله في أية لحظة.

(3)

ظل ترتيب أوضاع الحكم شاغلاً لباله، ذلك الذي كان يعني له ضمان ميراث العائلة، وإعطاءها نصيباً من كعكة الوطن.

لم يكـــن هذا الترتيب، ليتم وفق رغبة القائد الفذ وحده، وهو المهمـــوم بقضايا عظيمة هي في الأساس أكبر من التفكير في أمر تافه كهذا، من أجل ذلك أسند الأمر إلى عقله المدبر، صديق العمر، رفيق الدرب والمؤامرات الذي لم يتوان أيضاً هذه المرة عن تقديم الخدمات، إذ قام بتخصيص قطع من الأراضي المميزة تعادل ربع مساحة الوطن للأبـــناء، أقلـــها بأسمائهم الصريحة، وأغلبها اختفت وراء أسماء طبقة جديـــدة مـــن رجـــال أعمال، وكانوا من قبل في زمرة المتسولين العاطلين.

لم تكن الأراضي وحدها التي اقتطعت لأفراد العائلة الموجودين في ذلـــك الوقت على ظهر الأرض، بل تم حجز قطع أخرى سوف تهدى لكل رضيع تجود به الحياة فيما بعد.

ومن الأراضي إلى سبائك الذهب التي راحت تتجمع من أرجاء الـــبلاد، بعـــد أن اختـــرعت البطانة أوقاتاً في كل شهر، تحض فيها

المواطنين الصالحين، الساعين لنيل رضا الوالد المهيب على التبرع من أجل بناء الوطن، والمساهمة في رفعة شأنه، وإخراجه من التخلف الذي أغرقه فيه الحاكم السابق ونظام عهده البائد، اندفعت النسوة للإسهام في تلك الحملة بخلع ما حول الجياد والمعاصم، كضريبة لا بد منا لركوب موجة الوطنية، ولإبعاد الاتهامات بالأنانية والبخل والتقتير، وعدم إعاقة العملية الساعية للتنمية، أما الأخطر الذي خشين أن يتهمن به فهو معصية أوامر المبجل، وهو اتهام سوف تتضاءل أمامه كل الكبائرالأخرى، ما يعني أن مصيراً أسوداً سوف يكون بانتظار من سوف تتهم به.

كل تلك الكميات الهائلة التي خرجت من نساء الوطن، وصلت إلى أيادي المارشال، دخلت في الخزائن التي لا تفتح إلا بالأرقام السرية، جمعها، قيّمها، حمل أرقامها إلى مكتب القائد، وراح معه يوزع التركة التي هبطت فجأة بفكرة لا يقدر على ابتداعها إلا لص محترف، اقترح المارشال فوافق الزعيم، وتوزعت معظم الغنيمة على أفراد أسرته، وما بقي كان يمثل مكافأة مجزية لكاتم الأسرار ثمناً للاخلاص.

لم يكن الذهب والأراضي في داخل الدولة، ولاحتى القصور التي تبارى السماسرة في البحث عنها في الخارج، لإيجاد مأوى جيد للزعيم في أكثر من دولة، خصوصاً عندما يحدث ما لا يتوقع، ويفرك الشعب عيونه الناعسة، وهو أمر لا هو، ولا حتى أشد الناقمين على حكمه يمكن أن يتوقع حدوثه أصلاً، كل ذلك لم يكن كافياً لطمأنة زوجات الزعيم اللواتي رحن يطمعن فيما هو أكبر، بعد العمر الطويل، فمن من الأبناء سيكون الأجدر بخلافة الوالد، وكيف ستكون مكافأة "أم الوطن" وهي التي وقفت إلى جانب فحلها، منذ البدايات التي لم يكن فيها سوى صعلوك، تدرّج فجأة بمغامرات

محسوبة، حتى نجح في أكبرها على الإطلاق، ووثب إلى السلطة، ولو كانت النتيجة فشل الانقلاب لصلب هو وزوجته، وأعدما على أعواد المشانق.

كيف يمكن لزوجة كتلك، أن لا يكون لها نصيب من الحكم؟ وكيف تأتي الأخريات لاقتناصه بيسر، حتى ولو كن أنجبن ذكوراً، وتوقف نسلها هي عند تلك الإبنة، التي عانت عند هبوطها إلى الدنيا من مشاكل صحية، لا حصر لها؟

ذلك كان السؤال الذي يؤرق السيدة الأولى، التي راحت بكل ما امتلكت من سطوة، تلقي به أمام المغوار، فيصمت حيناً، ويسعى إلى إشغالها بأمور أخرى، غير أنها ظلت على الدوام يقظة لمثل تلك الألاعيب، كانت قد حفظتها عن ظهر قلب، للدرجة التي باتت معها تعرف ما هي الجملة التي سينطقها الزوج من قبل أن تخرج من طرف اللسان.

تشبثت بوعد خرج منه في حديث مرسل، أقر فيه بإمكانية إسناد بعض الصلاحيات للإبنة، في الوقت الذي أعطى أيضاً نفس الوعد لأمهات الأولاد، اللواتي أخذت أعدادهن تتزايد، منذ أن قرر رفد الوطن بذرية هائلة من أشباهه أصحاب الطلعة البهية.

لم يجد من يسرّ له بما يراه من شراسة نسائه، غير المارشال، كان هو الآخر الصدر الحنون، يجيد الاستماع، يقدم النصح، حتى أصبح الزعيم، الذي يضع له الآخرون ألف حساب، مجرد لعبة، من الوزن الخفيف تتحرك وفق ما رغبت أصابع صديقه.

كل المواقف التي مرت به، صعبة أو تافهة، ظلت تدخل على الفور من فمه إلى مصفاة المارشال، هناك تتخلص من شوائبها، وتتيح

له الفرصة ليقوم بدوره البارع في تهدئة الرجل الأقوى، واعطائه بعض الحلول، التي دائماً ما يستحسنها ويعمل وفقاً لها، حتى ان معظم قرارته تصدر في أعقابها، بعد مناقشات يسعى من خلالها إلى استيضاح أمور، وتدارك تداعيات قد تكون لها على المستوى المحلي أو الخارجي.

هذه المرة توافقت اقتراحات كاتم الأسرار مع رغبة الرجل الأكبر، كان قد تحوّل بالفعل وفي خلال فترة قياسية، إلى طاغية حقيقي، بعد أن كان مجرد ثوري حالم بتغيير أوضاع متردية وصل الوطن إليها، بعد أن تحولت البلاد في عهد الحاكم السابق إلى واحدة من أهم أوكار الفساد، وتسيدت أخلاق الرشوة والتسيب على ما عداها، وتبدلت أوضاع الناس حتى وصلت أحوال المعيشة إلى ما تحت القاع، تحول البشر بسبب الاحتياج والخوف إلى مجرد أرقام تتحرك داخل القفص الكبير.

عادت الأمور إلى حالتها الأولى، بل أشد سوءاً مما كانت عليه، غير أن ذلك ترافق مع هزال عام راح يضرب أطنابه في هياكل أبناء الشعب، أخذت أجسامهم تضمر واحداً بعد الآخر، وراح الخمول يرتع، وتحولوا مع مرور الأيام إلى مجرد أشباح تمشي على أقدامها، غير مدركة بما يجري حولها، حتى باتت الحناجر لا تبادر بالهتاف إلا إذ تم الإيعاز لها، ازداد الخنوع وتغلغل هذه المرة، بعد أن ساد الاعتقاد بأن ما يجرى على أرض البلاد، هو أمر ضروري لإرضاء ملهم كالذي يستظلون تحت جناحيه، وان ما يشهده الوطن هو النعيم الذي تحسدهم الشعوب الأخرى عليه.

ظل الأمر، في بداياته يروق للزعيم، غير أنه في النهاية بات على قناعة، بأن ما لديه مجرد مجموعة من الببغاوات، تحولت بفعل القمع

وهراوات حماة الأمن، إلى فئران صغيرة منكمشة، فكيف له أن يأمل في تحقيق أحلامه، اعتماداً على شعب خائر، لم يعد قادراً على التفكير، فكيف به إذا حمل سلاحاً؟

تلك كانت واحدة من المعضلات الأهم التي جابهته، وهو يرسم خطته الكبرى، إذ أدرك وقتها ان تلك هي ثمار ما تم زراعته في أرض شعب تحول أفراده ليكونوا مجرد قطيع من مطيعين سامعين، وحشود من هتافين مرددين دون فهم، لأغاني تشيد، وشعارات تصوّر البلاد كالجنة الموعودة للصابرين، ونصوص اتخذت شكل القداسة تعتبره ضياء العين ونور الشمس ووجه القمر.

أدرك أن ما حدث حطّم في أبناء شعبه المبادرة، أي مسعى للخروج عن النسق، حتى باتوا بحكم الأمر الواقع مجرد أرقاء، يفرحون إن رفعت العصا، وينكمشون إن هوت على الرقاب.

أخذ يراجع ما حدث، وهو يسير في حديقته الرئاسية، فحتى لو لم يكن يريد أي شكل من أشكال المعارضة لحكمه، وأن يصل بالناس إلى قناعة بأنه حاكم لم يجد الزمان بمثله، ومهما كان كارهاً لما يمكن أن ينغص عليه أوقاته، فإنه في النهاية ظل يدرك أن معارضة خافتة، متفرقة، وعلى فترات متباعدة لن تفسد الطعام.

لم يتوقع أن يحدث هذا التغيير بسرعة كالتي انطلق بها، وأن تصل الأمور في النهاية إلى درجة أصبح فيها من المستحيل، ضخ النبض في الروح الهاربة.

ومع أنه اجتمع مرات عدة بالمارشال، وعلماء النفس، الأطباء، والمحللين السياسيين ورجال الدين، وانطلق هو بنفسه إلى حديقته الرئاسية، يدور دوراته المتتالية، باحثاً عن حلول، فإن المحاولات لم تسفر عن شيء، ولم يستطع أحد من هؤلاء الذين أتى بهم أن يقول

لــه إنك أيها الملهم، قد قتلت في شعبك الحمية، انتزعت منه روح المـبادرة، فتحولت الجموع التي راحت تهتف لك، مؤمنة بأنك هبة إلهية للوطن، إلى مجرد قطعان راجفة.

لم يقــل أحــد ذلك، فقد تبارى هؤلاء في اعتبار أن ذلك من علامات الطاعة، ونصحه آخرون بضرورة توجيه كلمة تحية إلى هذه الأمــة التي يتمنى الحكام أشباهه العثور على مثيل لها، واعتبر آخرون أن عبقــرياً مــثله يستحق شعباً مهذباً كشعبه، أما الأطباء فكان لهم رأي مغايــر، قالــوا إنه ربما كان هناك فيروساً معدياً، اقتحم البلاد، وأصــاب ساكنيه بهزال شديد، قتل الروح فيهم، وحولهم إلى عيدان ممصوصة، وأرواح جافة.

أكدوا له أن ذلك هو التفسير لما جرى، استبعدوا أي أمر آخر من ذلك الذي قد يكون فكر فيه، أيدهم في ذلك الفقهاء، مؤكدين ان مــا يقــوم به في سبيل هذا الوطن سوف يجزي عنه حسنات في الدنيا ومقعد في الآخرة، وإن ما جرى قد يكون مساً من الشياطين، وتــسببت فــيه عيون الحاقدين، الذين يحسدون الشعب الوفي على زعيمه الورع، الساهر حتى أوقات متأخرة من الليل لرعاية مواطنيه، والــذي لا تغمض عيناه إلا حين يطمئن عليهم، داعين له بأن ينال خير الجزاء، ورافعين الأكف في ضراعة، بأن تزول المحنة، وتنقشع عن الوطن تلك الغمة التي أرقت الرجل الحنون.

... عــندئذ، وأمام هذا الإجماع من نخبة علماء الأمة، أيقن أن ماساورته من هواجس قد وردت إليه من وسوسة شيطان، وأن القمع والكــبت لا علاقة لهما بهذا الشعب المحسود... استعاذ، فردد علماء الأمة من بعده، وانفض الاجتماع التاريخي بصب الدعوات القاصمة على ظهور الأعداء، والمبيدة لنسلهم.

(4)

بعـــد سنوات، من ارتباطه بأم الوطن، اجتاح صاحب المهابة، قلـــق عـــارم، إذ أجمع الأطباء على أن الزوجة تعاني عوارض العقم، اعتـــبرها مـــزاعم، فكيف يمكن له أن يصدق، وهو الممسك في يديه مقادير البلاد، ومن له الأمر والنهي على من يدب فوق أرض الوطن، لم يكـــن يـــريد اســـتيعاب حقـــيقة أن هناك أموراً تستعصى على البشر مهما امتلكوا السطوة والصولجان، وان الواقفين إلى جواره ولو بذلـــوا جهـــوداً خارقة ما تمكنوا من حل واحد من ألغاز يمتلىء بها الكون.

كانت الصدمة مباغتة، حتى انه استسلم في النهاية لفكرة ان الزوجة التي ارتبط بها ولازمت أوقاته، الحلو منها والعلقم، عاقر، وان أحلامـــه التي باتت تطغى حين اكتشف أبهة السلطة، لن تتحقق قريباً.

وقـــتها راح يفكر جدياً في الزواج بمن يمكن لها أن تنجب ولياً للعهد، يرثه في بلاد دانت في غمضة عين، ولا يستطيع فيها شبح أن يـــتوجه إلى النوم قبل الدعاء للمفدى، ولا تستطيع عينا مواطن فيها اســـتقبال النور الصباحي، إلا إذا استهل يومه بالابتهال لله أن يطيل عمر الزعيم، وأن يرزقه الذرية الصالحة.

لكـــن كيف يمكن أن يحقق ذلك؟ الذي تمتلك فيه تلك السيدة ســـطوة تحسدها عليها الملكتان زنوبيا وبلقيس؟ كيف له أن يفعل ما يـــضمره بغـــير أن تقف له "أم الوطن" بالمرصاد؟ كيف له أصلاً أن يفاتحها بما يعتزم، وهي التي تمكنت في العديد من المرات من توجيهه وفـــق ما تريد؟ يدرك انه أقوى من أنجبته أرض البلاد، وانه ذو هيبة ورهبة كفيلة بإلقاء الرعب في قلب من يقف أمامه، لكن هذه السيدة

بالنسبة له تختلف عن كل نساء الأرض، هي الوحيدة التي تسوسه، تعرف نقاط ضعفه وتضغط بها عليه، لم يحدث إلا في أقل الحالات، إن رفض لها طلبا، لا قبل أن يتولى الحكم، ولا بعد أن أصبحت أرض البلاد وشعبها ومقدراتها طوع يمينه، فكيف سيجرؤ هذه المرة على الخروج من ذلك المأزق؟ وكيف ستأتيه الجرأة ليصارحها بنية الزواج هكذا دون أن يتوقع منها ثورة عارمة وموقفاً شديد الحزم يفتح الباب أمام دوامة من عدم الاستقرار العائلي، قد ينعكس بدوره على مزاجه الشخصي، تتأثر به قراراته، بل إن الأمة بأجمعها، سوف تتأثر، إذا ما تعكر يوماً مزاج القائد.

كانت تلك هي المشكلة الكبرى أمامه، لكنه في النهاية، ووفقاً لطبيعته الأشد قرباً إلى حرباء، فإنه سوف يتمكن في نهاية المطاف من تجاوز الأمر، وسينجح في إقناعها، بعد أن يشبع فيها شره الامتلاك، وسيمنحها من مقدرات الوطن ما تريد، ما دام ذلك سيمكنه في النهاية من تحقيق رغبة يعتقد انها مشتركة بينه وبين أبناء الوطن البررة.

في الوقت الذي استمسك بشجاعة لم يسبق أن ظهرت لديه أمام الزوجة، وقف الزعيم يمهّد الأمر حتى شعرت بالملل، صرخت في وجهه ليكف عن الدوران، ليتحدث مباشرة، أو يغرب عن وجهها.

أخذ قوى الشكيمة يتلعثم، قبل أن يتمكن من استرداد توازنه، يعيد إليه رباطة جأش كانت هاربة للتو، صمت وقتاً، قبل أن ينطلق لسانه دفعة واحدة، فيصارحها بما ينويه، وقتها نال تقريعاً لم يتعرض لمثله من قبل، وانتشرت على وجهه فقاعات من شتائم اتخذت طريقها دون توقف، وسط شعوره بحرج، ومخاوف من وصولها إلى

آذان مسترقي السمع في القصر الرئاسي، راح يهدىء ثورتها، دون أن يحرز نجاحاً، حتى هدّها التعب، خمدت جمرات نيرانها بعد أن وصلت إلى الحد الذي لا يوجد فيه مساحة للمزيد، ألقت بنفسها مجهدة على أقرب أريكة، راحت تلعن الزمن الذي وافقت فيه على الارتباط بهكذا مسخ، صبت المزيد من الشتائم على الحماقة التي دفعتها لمجاراته في جنونه، على قيامها قبل الانقلاب بتهيئة أجواء الاجتماعات، وإيصالها الرسائل للذين شاركوه، اتهمته بالنذالة، بخيانتها وطعنها في الظهر، راحت تقول ان أي تفكير في الزواج من غيرها هو في البداية والنهاية، خيانة للوطن، تطبيقاً لنص المرسوم المعمم على جميع مؤسسات البلاد، الذي اعتبرت بموجبه "أما" للوطن.

ما جرى في ذلك اليوم، مثّل لها نقطة فارقة في مسار حياتها مع الزعيم، حرّضها على الانتباه أكثر لنفسها، أيقنت هذه المرة أن هناك ضرورة لأن يكون لديها وريثاً للعرش الرئاسي، فمن غير المعقول بعد كل تلك التضحيات أن يأتي الآخرون ليقطفوا ثماراً لم يزرعوا أشجارها، ثم تقف هي بعد سنوات الصبر لتتفرج على الناهبين والمسيطرين، وفي ظل المتغيرات التي سوف تهب، ما الذى يمنع من أن تجد نفسها وقد تحولت بعد ذلك من السيدة الأولى، زوجة زعيم البلاد إلى مجرد زوجة للحاكم.

عند تلك النقطة، قامت باستدعاء جميع أطباء النساء والولادة، طلبت منهم متابعة أحدث ما تم التوصل إليه في العالم من أبحاث، ولم تترك الأمر لهم وحدهم، إذ راحت تقوم بجولات على مراكز الاخصاب في الدول المتقدمة، دارت من مكان إلى آخر، دفعت من خزائن الدولة فواتيراً سخية، دون أن يجرؤ أحد على معارضة الإنفاق الباذخ الذي راحت تنثره في كل دولة تحط فيها طائرتها الخاصة.

غير أن تلك الزيارات التي استغرقت شهوراً، منحت الزعيم الفرصة لانتقاء من سوف تكون زوجته المقبلة، إثر حصوله من الشريكة الأولى على موافقة مشروطة ذات بنود صعبة، ابتلعها كالعلقم كي تطلق يده، لم تكن الجولة فرصة له وحده، فقد أسفرت في النهاية عن حل ناجع لمشكلة الإنجاب، إذ قرر الأطباء إجراء عمليات تخصيب لأم الوطن، استهدفت تنشيط جهاز الخصوبة، ليتم بعد ذلك تلقيحها صناعياً.

لم يدم الأمر طويلاً، فسرعان ما أخذ جسد الأم يستجيب، وراحت النتائج تتحسن، حتى انه في النهاية وبعد عودة أم الوطن إلى حماه، جاء إليها الأطباء من بلدالهم، بمستشفى مجهز، كانوا على استعداد للتعامل مع ما يطرأ، بعدما تكفلت وزارة مالية الوطن برصد المخصصات اللازمة، مهما تسببت في إرهاق الخزانة، وأورثتها عجزاً ثقيلاً.

بات بالإمكان أن تقنع نفسها بأن عوارض الحمل الحقيقية قد بدأت تمل، والها هذه المرة مغايرة لتلك التي ظلت تتوهمها في فترات سابقة، والتي كثيراً ما أورثتها وزوجها خيبة أمل.

اختلف الحال عن السابق، هي الآن متأكدة من الها سوف تصبح أما أن سارت الأحوال عادية، سيكون لديها من يؤتمن على الوطن العزيز، بعد أن ينتقل المهيب بعد العمر المديد إلى الرفيق الأعلى، وقتها عليها أن تعيد حساباقا، تراجع البنود التي قدمتها كشروط للموافقة على صفقة زواجه بأخرى.

سعت مراراً لدى الأطباء للكشف عن جنس المولود القادم، غير أهم بإيعاز من الزعيم، كانوا يتعللون بصعوبة معرفة الأمر على وجه الدقة، نظراً لحالة حملها غير العادية، أكدوا أن من

الأفــضل لها الانتظار حتى الولادة، فالمهم هو أنها باتت قادرة على الإنجاب.

أما الزعيم، فقد سار في الطريق الذي اختطه، متجاهلاً محاولات "أم الوطن"، لتأجيل تنفيذ الاتفاق، كان يتظاهر بالموافقة، يهز رأسه في كــل مرة، غير أن ما ظل يستمع إليه منها، سرعان ما يخرج في ذات اللحظـــة مخترقاً سياج الأذن إلى الفضاء الرحب، مانحاً لها حق الثرثـــرة والأوهام، ولنفسه حق طرد الكلمات التي لا تروق... من الذاكرة.

وفي الوقت الذي سبق توليد أم الوطن، كانت البلاد قد حبست أنفاســـها اســـتعداداً للحدث الجلل، أرجأ الزعيم إجراءات الزواج الرئاســـي الـــثاني، منذ أن ورد إليه نبأ نجاح عملية تخصيب الزوجة، ضارباً المثل لشعبه في احترام مشاعر صاحبة العظمة، غير أنه لم تكن لديه أية رغبة من الناحية الفعلية في تنفيذ تلك الخطوة، خصوصا بعد أن أبلغه الأطباء بأن القادم فتاة، لم يرد وفقاً لطبيعة تكوينه، ترك أمر ولايـــة العهد للصدفة، فما الذي يضمن له أن لا تصاب الأم ولو في اللحظـــات الأخـــيرة بإجهاض، أو أن يأتي المولود القادم مشوهاً أو معاقاً، أبكماً أو أصماً؟ وما الذي يدريه أن جنينه سوف يتمتع بحياة طبيعية مثل غالبية الأطفال الذين يولدون عند كل جزء من الثانية؟

كـــان يريد أن ينفي عنه أي تهمة قد تلصقها به السيدة الأولى، فـــيما لو لم يكتمل الحمل، أو حدث مكروه، فحين يتزوج في هذا التوقـــيت فإنها ستنسب له أي إخفاق، ستقول أنه تسبب في تحطيم حالـــتها النفـــسية، الأمـــر الـــذي قد يعيق مخططاته، كان يرى أن التطورات الجارية في مجملها تسير في صالحه، الأمر الذي دفعه لقبول نصيحة المارشال بإرجاء الزواج مؤقتاً حتى تنتهي ولادة الأم.

قبل ثلاثة أشهر من الوقت المتوقع للولادة، تزينت البلاد، بما يليق بقدوم أول مولود رئاسي، احتفالات لم تشهدها في تاريخها، كـــادت الـــشوارع ترقص من فرط البهجة، غير أن الأم فاجأت الجميع، الزعيم والأطباء، بآلام المخاض، ومع أن هيئة الاستشارات الطبـــية لم يكـــن لها من عمل سوى قياس النبض، وملاحظة نمو الـــبطن، ودقات قلب الجنين، زيادة الوزن ونقصانه، طرق التغذية وأوقاتهـــا، كـــل شاردة وواردة كانت تحت عيونهم، غير أنهم لم يـــستطيعوا التنـــبؤ بقرب خروج نبتة أبيه من بطن الأم، وهو ما أحـــدث إرباكا لدى هيئة الرئاسة، والهيئة الطبية وفي استعدادات أجهزة الدولة.

في نهايـــة الـــشهر السابع، راحت الأم تتلوى فسرى الألم في شـــرايين الوطن، جاءها المخاض، أحاط بها الأطباء، لكن أحداً منهم رغـــم المحـــاولات المتواصلة لم يستطع إخراج الجنين، كان لا بد من وقت، وكان على السيدة الأولى أن تقاسي آلاماً لم يسبق أن شعرت بما يماثلها.

سرى الخبر في أرجاء الوطن، امتلأت دور العبادة بالمصلين، راح الجمـــيع يبـــتهل، كي ترافق الأم البركة، وهي تجتاز أكثر اختبارات حياتها صعوبة، وفي الميادين جابت مظاهرات، نظمتها نساء يهتفن لها بعـــبور تلـــك المحـــنة، ويؤكدن في شعارات متناغمة على الولاء لها ولـــولي العهـــد القادم، الذي سيجلب السعد للبلاد، قالت بعضهن للإذاعـــة الـــرسمية، أنهـــن يتمنين لو يحملن عن أم الوطن عناء تلك اللحظات، قبل أن يستدركن في النهاية، ليقلن: إن ما يحدث هو جزء مـــن التضحيات التي قدمتها هذه الأم الرؤوم طوال تاريخها المضيء، للبلاد وسعادة المواطنين.

وقــف الوطن على قدم واحدة، بانتظار لحظة سينتهي فيها ألم الأم، ويشرق وجه الوطن، تلك التي سيغادر فيها مولود الزعيم سرير الرحم، ليدشن عصراً جديداً في المسيرة الخالدة.

كان اليوم، بكل ما أحاط به استثنائياً، توقفت مصالح البلاد في وقت مبكر، وأحاطت بالقصر الرئاسي حيث نصبت أوتاد المستشفى الطائر، حشود هائلة من الشعب، حتى بدا للمراقبين أن هؤلاء الذين أتوا من كل فج عميق، قصدوا دياراً مقدسة، لا مكاناً ينتظر ولادة، يفترض أن تماثل ما يحدث لملايين الأمهات في أرجاء الكرة الأرضية، اللــواتي حملــن فولدن، فأعدن الكرة مرات دون ضجيج، ودون أن تصبح الشعوب فيها، ولو لمرة واحدة، كأسراب البجع.

راحت الهتافات تبالغ في ما تنطق، تسابقت الحناجر وهي تبدي مشاعر مفرطة، اختلطت الأصوات الناعمة بالخشنة فانطلق الجميع في الــنهاية دون اتفاق يرددون نشيداً، قام أحد شعراء المرحلة بتأليفه في أقــل مــن خمــس دقائــق، أتاه الإلهام الذي عادة ما يأتي مدّاحي الــسلاطين، فانطلق ودون أن يتوقف حتى لالتقاط الأنفاس، ليدبج كلمــات ســرعان ما تلقاها من كانوا يقفون بالصدفة إلى جواره، وراحوا يرددونها، حملتها الذبذبات بسرعة البرق، وأوصلتها إلى أبعد منطقة، عندئذ راح الجميع ينشدون للزعيم وزوجته والمولود المبارك، ذلك الذي سيكون وريثاً في قادم الأيام.

مــن بعد ذلك أخذتهم الحمية، فانطلقوا يؤكدون أنهم بالروح والدم سوف يفتدون والدي الزعيم وأجداده وبقية العائلة الكريمة التي كان لها فضل إهداء الوطن هذا العبقري، الموهوب، المضحي بسعادته وهــدوء الــبال في ســبيل رفعــة الــوطن وعلــو شأنه... هتفوا حتى هدهم التعب، فتحشرجت الأصوات، وتسلل الأعياء، حتى من

قبل أن يفتدوا ولو بقطرة دم من ماتوا بعد أن أنجبوا للبشرية ذلك الزعيم وسلالته.

وفي الوقت الذي انضمت فيه موجات الإذاعة والتليفزيون، إلى الحشد في نقل الفعاليات، وراح مندوبو الصحف القومية يسألون الأهالي المحتشدين عن مشاعرهم في المناسبة الوطنية الكبرى، خرج من القصر الرئاسي من يشكر للجماهير ذلك التعبير عن الحب الذي يكنونه للعائلة الحاكمة، ويطالبهم بالابتعاد عن المكان، فالأم الكبيرة تعيش لحظة فارقة، وتحتاج إلى المزيد من الهدوء.

عندئذ لم يستغرق الأمر وقتاً، إذ راحت الجماهير المتحمسة تغادر، وفي دقائق معدودة كانت الميادين المحيطة بالقصر خالية إلا من جنود الحرس الرئاسي التي اتخذت مواقعها وأعادت انتشارها، فيما قامت فرق كبيرة من شركات التنظيف بإزالة مخلفات بشرية، امتزجت بشعارات تركها المغادرون، فأصبح مأواها المزابل.

فى هذا الوقت، كانت الأم الرؤوم تقاسي، والأطباء الذين كانوا قد نبهوا إلى أن تلك الولادة لن تكن يسيرة، بحكم أنها الأولى لأم تقدمت في العمر، وعدوا ببذل أقصى الجهد لتمر الحالة بسلاسة، وقتها كان الزعيم قد بدأ يعرف أن جبروته، هالته، غروره الطاووسي، أحلامه الامبراطورية، غير قادرة على إنجاز عمل كهذا حشد له أقدر الأطباء، إنحنى قليلاً، لكنه سرعان ما أبعد شعوراً بالضآلة راح يتسلل إلى خاطره.

وما أن استغرق في حوار مع وزير الصحة حول تطورات عملية الولادة، حتى خرج كبير الأطباء، تتقافز الفرحة في عينيه، بارك للزعيم وصول المولود، توقف الكلام، تركزت النظرات، تلك هي اللحظة المنتظرة:

- إنها طفلة كالقمر، لم أر في حياتي أجمل منها، حين نــزلت من رحم الأم سطع في الغرفة المظلمة نور، معجزة تلك التي حدثت، لكــنني رأيتها بعيني، وانبهر جميع من في الغرفة، هذه بالتأكيد ليست رضيعاً، ليست بشراً، بل ملاك.

• ولكن ماذا عن أم الوطن؟ هل كل شيء على ما يرام؟

- بخير يا سيدي، إنها تتعافى الآن، لقد عانت كثيراً، كان الأمر صعباً، غير أننا قمنا بواجبنا، تعاملنا مع الحالة بما يناسبها، ستأخذ الأم وقــتاً للــشفاء يا سيدي، لكنها سوف تعود إلى الحالة الطبيعية التي كانت عليها قبل الولادة.

(5)

ظلت الأم لوقت، تعاني من تبعات ولادة صعبة، غير أن الأشد ألمــا كان إصرار الأطباء على انتزاع الفتاة منها، وإدخالها في حضانة مجهــزة خصيــصاً للأطفال ناقصي النمو، ممن يعانون في العادة حين يأتون إلى الدنيا، من قصور في الأجهزة الداخلية.

حين أفاقت، ومدت يدها تتحس جسد رضيع كان إلى جوارها قــبل الغفــوة، انتبهت مصدومة، فلم تلامس اليد سوى لحماً طرياً، فــتحت العيــنين بلهفة، نظرت إلى الممرضات الواقفات إلى جوار سريرها، سارعن لإبلاغها أن المولود الذي انتظرت، انتقل إلى دفء آخــر، تم إعــداده لضمان المزيد من الرعاية لمن يشأ المكوث داخل الــرحم، فــر من قبل أن يحين موعده هارباً إلى دنيا، كان عليها أن تكون جاهزة لاستقباله.

في ذلك الوقت، ظل الزعيم في مكتبه الرئاسي، وعلى الرغم من أن الوقت قد تأخر، فإن التقارير تواصلت أولاً بأول فيما الأم الغارقة

في نعـــاس، راحـــت الكوابـــيس تداعبها، أخذت تصرخ في أحايين وتبكي، تهذي بأسماء يختلط فيها من هو معروف بمن لم يسمع به من قـــبل، مـــا أربك الممرضات الواقفات على بعد خطوات، واللواتي تعرف الواحدة منهن ما يجب عليه فعله مع حالة رئاسية كتلك.

لم يجد صاحب المشاريع القومية، وسيلة للخلاص، غير الخروج من قوقعته، ومتابعة أحوال رضيعة هي أول المنتمين إلى صلبه، رؤيتها وهـــي داخـــل حضانتها، والاطلاع على استعدادات بلغت ذروتها للتعامل مع رضيع ناقص النمو، ما دعاه إلى ترك هموم البلاد والانتقال حـــيث مكان المستشفى الطائر الذي يحتل إحدى مساحات القصر الرئاســـي، هـــناك وقـــف يستمع إلى شرح مفصل عن حالة الإبنة، والأسباب التي كانت وراء اختيار الأطباء للحضانة مكاناً لتعيش فيه نبتة قائد البلاد.

وحـــين استفـــسر عن الوقت الذي سينتهي فيه هذا العمل، عـــرف أنه يتوقف على سرعة استجابة الجسد، واتجاهه إلى النمو الطبيعـــي مثل باقي الأطفال الذين ينـــزلون إلى الدنيا من بطون أمهاتهم أصحاء.

استدعى رئيس الفريق المشرف على الحالة، طلب تقريراً مفصّلاً عـــن التطورات التي جرت منذ ما قبل الولادة، وما يتوقع أن تشهده في الأيـــام المقبلة، أراد معرفة ما الذي يمكن أن يقدّمه الأطباء لإعادة الرضيعة إلى طبيعتها، أن تعيش مثل باقي الأطفال.

أثارت حكاية الحضانة فضوله، دفعته للتفكير فيما هو أبعد، غير أنـــه كان مثل كل الأباء تجاه أطفالهم المرضى... متلبساً بالهواجس، خشي فقدان من انتظر طويلاً لحظة وصوله إلى الدنيا، ازداد رعباً من احتمال أن تعاني من إعاقة لا علاج لها.

في تلـــك الحالـــة، مـــا الذي على زعيم خارق مثله أن يفعله، حـــتى لو كان كل هؤلاء البشر خاضعين لإشارة من سبابته المقوسة، ولـــو كانت تسخّر لرغباته إمكانات الوطن، وتخفق له الأنفاس أنى شاء؟

مـــا الـــذي يمكن أن يفعله سوى الرضوخ لتعليمات الأطباء، هؤلاء الذين يخضعون في الأصل لتعليمات وزير في حكومته؟

لم يضع وقتاً، حين نبتت في ذهنه الفكرة، سرعان ما تضخمت فامتلكته، أخذته بعيداً عن المكان والوقت، عن الحدث الذي توقفت له حياة مواطنيه الصالحين، تركهم في همه الخاص يغرقون، واستغرق في مـــا هـــو أهـــم، استدعى وزير الصحة، هرول كالعادة حاملاً ارتجافاتـــه، قبل أن يدلل على كونه وزيراً مهذباً، ولديه براعة في ثني الركبتين:

- سيدي إنها بخير، ستكون على ما يرام.

• لا أســـألك عن هذا، إهدأ قليلاً، كن منتبهاً، لترد بدقة على التساؤلات.

- أمرك سيدي، أنا طوع البنان.

• كـــف عـــن هذه العبارات قليلاً، أسألك عن الحضانة، ألا تصلح لغير الرضع؟

- هي تستخدم هكذا للرضع الذين يهبطون إلى الدنيا قبل أن يكملوا 37 أسبوعاً من الحمل.

• وما الذي ينقص هؤلاء عن غيرهم من الذين أكملوا المدة؟

- ســـيدى، إن الجنين أثناء وجوده داخل الرحم، يحصل على الأوكـــسجين اللازم للتنفس عن طريق الحبل السري من الأم، لكنه حين يهبط خارجاً من العتمة، ومع أول شهيق له عندما يبدأ بالبكاء

فإن رئتيه تمتلىء بالهواء، هذا بالنسبة للتنفس، أما عن دورته الدموية، فـإن الـدم القادم من قلبه وهو في داخل الرحم لا يصل إلى الرئتين بسبب زيادة الضغط في الأوعية، لأجل هذا فإن الدم القادم من القلب عبر الشريان الرئوي ينتقل إلى الأورطي من خلال فتحة بين الشريانين، أي أنه يحدث اختلاط بين الدم المؤكسد في الجهة اليسرى للقلب، مع الدم غير المؤكسد في الجهة اليمنى له.

• هذا في داخل الرحم، فما الذي يحدث عند الخروج؟

- عند الولادة، سيدي، وبعد انفصال الطفل عن الأم، في أعقاب قطع الحبل السري، ومع أول شهيق، تمتلىء الرئتان بالهواء، ويتلاشى اختلاط الدم المؤكسد بالدم غير المؤكسد، وتبدأ الدورة الدموية الطبيعية، عندئذ يتحول لون الطفل من الأزرق إلى الوردي.

• ولماذا تحدث المشاكل الصحية إذن؟

- الجنين يا مولاي، يبدأ من الأسبوع الثاني والعشرين من العمر في تكوين مادة دهنية، تكون وظيفتها تغطية السطح الداخلي للحويصلات الهوائية، وتساعدها على البقاء منتفخة بعد أول شهيق، الأمر الذي يسهل عملية التنفس، وهذه العملية بالتحديد تكتمل في الاسبوع الرابع والثلاثين من الحمل.

• من لا يكمل تلك المدة إذن يفتقد تلك المادة الدهنية؟

- نعم، ولذلك فإنه يكون عرضة لمشاكل في التنفس، مما يستدعي توصيل الطفل بجهاز صناعي، لمساعدته على عملية التنفس.

• المشكلة في التنفس فقط؟

- لا، فهناك أعضاء أخرى أيضاً قد تكون غير مكتملة النمو، مثل المخ والكليتين، والجهاز الهضمي، وهذه قد تسبب مشاكل متعددة مثل نزيف في المخ، وفشل كلوي، بل إن الالتهابات المعوية

الحـــادة الـــتي قـــد تكون ناتجة من عدم قدرة الجهاز الهضمي على امتصاص الحليب تؤدي في الكثير من الأحيان إلى وفاته...

• ووزن الطفل، ماذا عنه، ألا ترى أن جسد ابنتنا هزيل؟

- ســيدي، وزن الجـــنين يــبدأ في الزيادة بشكل لافت بعد الأســبوع الرابع والعشرين من الحمل، ثم يتضاعف هذا الوزن عندما يــبلغ الأسبوع الثلاثين أسبوعاً، ويزداد أكثر في الأسابيع التالية، في الوقت الذي يتم تخزين المواد النشوية في الكبد وتخزين الدهون تحت الجلـــد خلال الأسابيع الأخيرة من الحمل، وإذا حدث وهبط الطفل قبل هذه الفترة، فإنه يكون عرضة لانخفاض في درجة حرارة الجسم، وأيضاً انخفاض في نسبة السكر في الدم، الأمر الذي يؤدي إلى التأثير سلباً على الطفل.

• ومـــا الذي يمكن للحضانة أن تفعله مع من هبط إلى الدنيا ولديه كل تلك المشاكل؟

- ســيدي، حــين يكون الجنين داخل الرحم يكون بحاجة إلى مقـــومات معينة كي يستمر في النمو، ومنها الغذاء الكامل، الذي يصل إليه عن طريق المشيمة، وأيضاً درجة الحرارة المناسبة، وإبعاد الجنين عن المؤثـــرات الخارجية، كالميكروبات، فإذا تمت ولادة طفل مبستر فيجب على الفور مثلما حصل، مع ابنتكم المبجلة، أن يتم وضعه في الحضانة.

• ألم تدرك معنى سؤالي؟ كف قليلاً عن الارتجاف، وأخبرني بما يمكن للحضانة أن تفعله؟

- الحـــضانة يا سيدي، هي جهاز يوفر ظروفاً مشابهة للرحم الطبيعـــي، إذ يستطيع ضبط درجة الحرارة بما يناسب الطفل المبستر، ويمنع المشاكل الناجمة عن قلة الدهون تحت الجلد والتي منها تبخر الماء السريع، وما قد تؤدي إليه نقص السوائل في الجسم من فشل كلوي

وهبوط في ضغط الدم، كما أن بقاء الطفل داخل الحضانة يبعده عن الميكروبات والجراثيم الموجودة في الجو.

• مـــا دامت الحضانة قادرة على توفير ظروف ملائمة لإعادة الأطفال إلى الحياة الطبيعية، فهل يمكن أن يسري ذلك على من أهم أكبر عمراً؟

- إنها للأطفال الذين يولدون لتوهم، ناقصي النمو.

• وإذا كان هناك كبار يعانون أيضاً من نقص النمو، ألا تصلح الحـــضانة لإعـــادة تقـــويمهم، لإزالـــة السلوك السيئ منهم وتقويم سلوكهم، أعني إعادة صياغتهم بشكل أفضل؟

- سيدى، الحضانة للصغار.

• فلنجلعها للكبار، عليك دراسة الأمر، بما يجعل هذه الفكرة تتحقق؟

أصـــابت الدهـــشة الوزير فانعقد لسانه، غير أنه لم يجرؤ على الإفـــصاح بما اضطرم داخله، كان المسموح له محدداً بالاستماع، ثم المـــوافقة علـــى مـــا قد يطرأ في ذهن الملهم من جنون، فتعيينه ومن أســـندت إلـــيهم المناصب، تحدد بإبداء الطاعة، والاستماتة في جعل المـــستحيل من الهواجس مجسداً، والخيالي ممكنا، كان المطلوب منه، تقديم دراسة وافية ومحددة عن إمكانية استخدام الحضانة في علاج من تخطوا سن الحلم.

راح يحشد إمكانات الوزارة، أصدر أوامره بأن تكون القيادات في حالـــة انعقـــاد دائم، حتى يتم التوصل إلى نتائج تصب في النهاية باتجاه واحد، يحقق ما خطر على بال بهي الطلعة، على الوزارة وكل أجهـــزة الدولة تسخير ما لديها لأضغاث أحلامه، تلك التي عادة ما تكون في أقصى درجات جنوحها.

لم يـــستغرق الأمر وقتاً، فمع إصرار الوزير على إنجاز المهمة، تحول المبنى إلى خلية نحل، تفرغ كل من فيها، للمهمة الوطنية.

وقبل الموعد المحدد، كان يحمل تقريراً كاملاً، مشمولاً بدراسة تفصيلية لمشروع تجرى بموجبه التعديلات، كي تصبح الحضانة قادرة على التعامل مع الكبار.

ابـــتهج الزعيم حين تسلم التقرير، وراح يستمع إلى ملخص وافٍ، وجـــده يصب في الاتجاه الذي خامره منذ تابع تفاصيل الوضع الصحي لابنته.

استند على هذا التقرير، أبعد عن ذهنه ما يشغل، أزاح هموم الأمة وأحداثها، وتجاوز حضانة ابنته إلى ما هو أكبر، توجه سريعاً إلى حديقة القصر الرئاسي، راح يدور هناك، دورات عدة، مستغرقاً بكامل حواسه في هدف وطني جديد، بزغت في ذهنه العديد من التفاصيل، راح يبلور الأفكار، نجح في نهاية الأمر في بلورة تصور لقرار بات يضع له اللمسات الأخيرة، هنا لا بد من دراسات قانونية وفقهية، وأخرى تتناول الأبعاد التي يمكن أن تنتج عنه، التأثيرات الدولية والتوازن الداخلي، ثم التنبؤ بما قد يترتب عليه فيما بعد من نتائج.

(6)

الـــزعيم الذي غرق في تصوراته لمستقبل الوطن والمواطنين، تناسى في لحظات اعتبرها فاصلة في تاريخ البلاد، أمر زوجة كانت لا تـــزال تحـــت الرعاية الفائقة، لم يأبه كثيراً بما وصله من أخبار حـــول تطورات صحتها، وهو ما دعاها حين أفاقت للمرة الثانية، للـــسؤال عـــن بعل كهذا مستغرق في أمور أخرى، بعيدة الصلة عـــن مـــن وضـــعت للتو أول أطفالهما، أومأت إلى اقرب طبيب

كــان يقــف إلى جــوارها، طلبت منه ابلاغ الزعيم برغبتها في رؤيته.

علــى وجه السرعة جاء، لم تستطع في وضع كالذي كانت عليــه، أن تكتم غيظاً ظل يتفاعل داخلها، سألته حين رأته يومىء لمــن في الغرفة بالخروج، إن كان يتابع حالة الإبنة التي يفترض أن تشغل تطوراتها الصحية الخطيرة جانباً مهماً من اهتماماته، وجهت لــه لوماً غاضباً على الرغم من كلماتها الواهنة، راح ينظر إليها، غــير آبــه، لكنه لم يكن قادراً على إظهار ما يبطن، إذ لم يكن تفكيره ليتوقف في ذلك الوقت، عند حالة تضع فيها الأم طفلتها، بــل أحــوال الــوطن الذي ضربت فيه المواطنين موجة استكانة واصــفرار، فــيما كــان الأطباء يرجعون السبب إلى فيروس غير مألــوف اختــرق البلاد منقولاً عبر هواء خارجي، قادم من دول تضمر شراً للوطن.

أكد الأطباء أن هذا الفيروس هو المسؤول عن حالة إعياء مست أبناء الشعب بمختلف أعمارهم، الأمر الذي يتطلب اتخاذ قرار عاجل، يكون كفيلاً بوقف رخاوة أخذت تنتشر كالنار في الهشيم، وتساهم في تفاقم البلاهة وفقدان الحمية.

كانــت الحالة التي اجتاحت الوطن غير خافية، فتطوراتها تصل إلى الزعيم أولاً بأول، وكان في قرارة نفسه يتصور ان الأمر يعود إلى صفات جينية لدى الشعب، تمنعه من إبداء الاستياء، جعلته يتماشى طــيلة الــسنوات الماضــية مع كافة الظروف، وممالاة من تلقى بهم مصادفات العالم الثالث في مقاعد السلطة.

فــسر الأمر أيضاً بأنه راجع للتسابق على إبداء فروض الطاعة، طمعــاً في عطايــا وكفاً لشرور، قد تنتج يوماً عن تقرير أمني يكتبه

أحمق، فيأخذ البشر بالنوايا، ويتسبب حتى لمن هم في أقصى درجات المسالمة بأذى.

تطلب الأمر، اتخاذ القرار الذي ظل يتداول صيغته خلال جولاته في الحديقة الرئاسية، في أعقاب حصوله على تقرير الوزير، ذلك القرار الذي بزغ في الذهن وقت أن رأى الرضيعة ممددة فوق سرير معقم، محاط برعاية لا تغيب عنها طرفة العين.

رأى المحاليل تعطى للرضيعة من الأنف، تابع الفحص اليومي لوزنها، ترك زوجته تلقي باللوم كيفما شاءت، هكذا اعتاد، هذه المرة تعيب عليه عدم الاهتمام بابنة هي الأولى في سلسلة أبناء قرر أن يهبهم للوطن، كي لا يتركه – بعد عمر طويل – في مهب الريح.

ليدعها تقول ما لديها، حتى تحين الساعة التي تشعر فيها بالإنهاك، فتميل رأسها أي جهة، وتنام، أما هو، فيعرف ما الذي يجب عليه عمله، التفكير في هذا الشعب، والبحث عن طريقة يمكن بها إنقاذه، حتى لو استغرق الأمر وقتاً، كان يوهم ما حوله بعبارات خادعة، بينما لا يريد في حقيقة الأمر من هذا الوطن ولا من مواطنيه إلا ما يساعده على تحقيق أحلامه، لتذهب الأمة إلى الجحيم، وليذهب أفرادها وقوداً في أي معارك قد يتفتق عنها ذهنه، المهم أن يكون الشعب قادراً على تحمل مسؤولياته التاريخية بكفاءة.

ما أن سمع صوتها يتحول ببطء إلى حشرجة، حتى أدرك أن الفرج بات قادماً ولو بعد دقائق، غير أن الأمر لم يستغرق سوى لحظات مالت بعدها الرأس نحو جهتها المفضلة، وراح الوطن وأمه في سبات، انتهز في أعقابه الزعيم الفرصة، ليمضي خارجاً، متجهاً على الرغم من الوقت المتأخر إلى مكتبه الرئاسي لاستكمال تفاصيل جديدة، لاحت له وهو يرى زوجته على سرير المرض.

الصور تكاملت، اختلطت ببعضها الأفكار والمشاريع، الأحلام والاخفاقـــات، والخطوط العريضة التي وضعها، والتفاصيل التي قدم شـــرحاً لهـــا كـــل جـــنود الوطن المخلصين: الأطباء المتخصصون والمهندســـون، رجـــال القـــوات المسلحة، وفقهاء السلطان، رجال التوجـــيه الـــبارعين في تعبئة الجماهير، كل الأمور اختمرت في ذهن الداهية، وبقي عليه في الخطوة التالية، أن يتكرم بتحديد ساعة الصفر، تلك الساعة التي لا يجب أن يقف أمامها عائق حتى ولو كانت ابنته الرضيعة التي انتظر، أو كانت امرأته، أو نبعت تلك العوائق من دول خارجية تواصل مراقبتها لتطورات الوضع.

في تلـــك اللحظات بزغت سراً، فكرة بناء حضانة كبيرة تدور أركانها حول زوايا الوطن، تمنع عنه الهواء الملوث، وتمنح أبناء الشعب رعايـــة سريرية متكاملة، وخدمة فندقية فائقة، يوضع بموجبها جميع الأفـــراد داخـــل وحـــدة هائلة للعناية المركزة، يتعاطون فيها الغذاء والـــدواء، وجرعات مكثفة من التوجيه المعنوي، والدروس الدينية، متـــزامنة مع حصص للتربية والتهذيب، تكفي لإعادة صياغة البشر، وتعـــيد إلى عـــروقهم نبـــضها، تساهم في دفعهم للإكثار من عشق الوطن، وتلبية نداءات القائد مهما كانت، لأن في تلبيتها إرضاءً له، ومنفعة في الدنيا.

كانـــت تلـــك هـــي المهمة التي حين أسر بها فيما بعد لكبار مستـــشاريه، باركوها، اعتبروا أنها لم تخطر من قبل على مخيلة بشر، فكرة عبقرية، من تلك التي يجود بها الزعيم كل فترة، لتنضم إلى رؤى مبدعة، يقدمها خدمة للوطن ومواطنيه.

أصـــبح الطـــريق ممهداً، من كل الجوانب، فقرر إصدار القرار، علـــى أن يكـــون في مراحله الأولى مجرد سر، غير قابل لأن يعلم به

أحـــد من خارج الدائرة القريبة جداً منه، حتى لو سعت أعتى أجهزة التجسس لكشفه.

(7)

مـــا أن انـــتهت عملية الولادة بسلام، حتى بات عليه أن يفكر مجدداً في أمر خلافة المقعد الرئاسي، كانت التقارير الطبية التي تابعت مرحلة اخصاب، ثم حمل الزوجة قد خلصت إلى نتيجة واحدة، هي أن هـــذه الـــسيدة التي امتدت أنشطتها الاجتماعية في مجالات عدة، وارتبطت بشكل أو آخر بمصائر العديد من الأسر المتوسطة والفقيرة، واكتسبت عبر ذلك شعبية جارفة، لا تتجاوزها إلا المكانة المحفورة في أفئدة الشعب لزعيمه، هذه السيدة وفق التقارير لن تكون قادرة على تكـــرار الحمـــل، وإنجاب الأطفال، لم يعد من الممكن إعادة تكرار الجهـــود الكبيرة، التي استنـــزفت من خزانة البلاد تكاليف باهظة، كما ان جسدها لم يعد بعد رخاوته، يتحمل المزيد، عليها أن تعرف هـــذه الحقيقة، وعلى الزعيم إدراك أن الأمل في إنجاب ذكور منها، تحول إلى سراب، وأمنية من تلك التي تذروها الرياح بعيداً.

ومـــع انـــه منذ البداية كان على اطلاع تام بالأمر، فقد فضّل ارجـــاء اتخاذ قرار، إلى الوقت المناسب، مراعاة لشعور زوجة، يضع لغضبها ألف حساب، ولا يريد إعطاء انطباع لمواطنيه بأن زعيمهم لا يعـــرف للـــوفاء قيمة، وأنه في لحظة واحدة، وحين اكتشف جفاف ينابيع الخصوبة، سرعان ما غدر بأم الشعب.

يعـــرف أن انطباعاً كهذا لن يستطيع مهماً فعل أن يمحوه من ذاكـــرة الأمة، ولن تقدر الفتاوى، ولا بحار الحبر على تغيير ما علق بالذاكرة في وقت هو أحوج ما يكون فيه إلى رص الصفوف.

ومــع أنه بين يوم وآخر، ووفقاً لما تمكّنه المسؤليات، كان يقوم بزيارات للحضانة، حيث تقبع الطفلة، إلا أنه كلما انتقل إلى هناك، بزغت في ذهنه تفاصيل راح يضمها إلى أخرى، اختمر المشروع تماماً في ذهـــنه وتـــشبث به، بات يؤكد لنفسه أنه لا سبيل سواه لتعديل الطباع.

ولمــا جاء وقت المواجهة بين الزعيم وأم الوطن من جديد، فإن الاتفاق الأول الذي تم كان ينص على امتيازات سوف تحصل عليها من الأشياء العينية والنقدية، كي توافق له على الارتباط بزوجة أخرى تـــنجب له وريث المنصب الرئاسي، غير أنه بقدوم الإبنة إلى الحياة، حتى وإن كانت قابعة في عناية فائقة داخل حضانة، فإن المعادلة هذه المـــرة باتـــت مختلفة، رأت أن هناك حاجة بعد تلك التطورات، لأن يكـــون الاتفـــاق مختلفاً، وأن يدخل عليه طرف ثالث لم يكن عند التوصـــل له قد جاء بعد إلى الدنيا، كان الزعيم هذه المرة أشد لباقة وهو يقول لها:

• تعـــرفين أنني ما كنت أرغب أن يرث السلطة من بعدي، مـــن لا يكـــون خارجاً من رحمك الطاهر، لكنها الأقدار، كانت بالمرصـــاد لأحلامنا، وتعرفين أنك ستبقين الزوجة والأم، وستظل مكانتك لدى أكبر من أي مكانة، لكن هناك ما يضطرني إلى حماية كرســـي الرئاســـة، وألا أتـــركه يذهب إلى أحد الدهماء، وأبناء السوقة، أنت لا ترضين بعد كل هذا التعب، وبعد التضحيات التي بذلـــناها من أجل الوطن، أن يأتي "جربوع" ويتولاها، وفي تلك الحالـــة، إذا كان كريماً معنا فإنه سوف يتركنا نعيش بنفس طريقة هـــؤلاء الكـــسالى الخائبين الذين يشكلون غالبية الشعب، إن هذا كما أنا أعرف، لن يرضيك.

- ولكـــن، أيرضيك أنت أن أتحول إلى "الزوجة القديمة" بعد كل التضحيات التي قدمتها؟

• هـــذا كلام اتفقنا عليه، وانتهى الحديث فيه من قبل أن تولد ابنتنا، مكانتك ستظل محفوظة، وامتيازاتك كما هي، لا شيء سيغير ما رتبناه.

- ولكـــن هـــناك أمور استجدت الآن، لا تحاول أن تمنحني انطـــباعاً بأنـــك لا تفهـــم مغزى ما أقول، هناك الإبنة، أليس من الضروري أن نوفر لها ضمانات لائقة بابنة زعيم مبجل؟

• لا اعتراض لديّ، ولكن اتركي هذا الأمر إلى الوقت المناسب.

- أي وقت مناسب، تقصد إلى أن تفعلها وتتزوج؟

• نعم ليكن الزواج أولاً، وبعدها سنرى تطور الحالة الصحية للإبنة، ثم نقرر بعد خروجها من العناية المكثفة.

- هـــذا ما لا يجب أن يحدث، فلا يمكن أن تنطلق إلى الزواج، قـــبل أن نتفق على ترتيبات جديدة سوف نتعامل بها مع الإبنة، لن أنتظر حتى تخرج من الحضانة، لنتكلم الان.

• ومـــا الذي تطلبينه لها، ما الذي يجعلك ترضين بإغلاق تلك القضية، كي نتفرغ لمهامنا.

- أطلب لها نصيباً من الثروة، ومن السلطة، اتفاق واضح، لن أقـــبل بوعود، ولا بكلمات مخدرة، أريده مكتوباً بنسخ متعددة ينفذ في الوقت المحدد، وعليه شهود.

• أي سلطة لرضيعة لم تكمل أياماً معدودة، أي سلطة وهي لا زالـــت في العـــلاج، لمـــاذا لا تتركين هذا الأمر لوقت آخر، أعدك بتحقـــيق ما تريدين، ولكن كيف يمكن أن نحدد أنصبة، بينما الذي سوف تخصص لها لم يكد يصل إلى شاطىء الدنيا؟

– المفروض أن الكلام حول هذا الشأن منذ كنت حاملاً فيها، كـــان يفترض أن ينتهي، وارجاء ذلك كان تقديراً مني للظروف التي كنت مشغولاً فيها.

• لـــيكن، أنا أعرفك جيداً، ما دام الأمر داعب مخيلتك، فإنه سيكون من الصعب أقناعك بغيره.

– كأنني أتحدث عن ابنتي فقط، أليست هي ابنتك أيضاً؟ لماذا لا تهتم بها؟ ألا يكفي أنك لم تعط لمجيئها العناية اللائقة بأبٍ تجاه مولود؟

• مـــن المفروض أنك على معرفة بالهموم الرئاسية التي لا تترك لي وقـــتاً، للاهـــتمام بالأمـــور الشخصية، كنت أتوقع منك تقديراً لهذا.

– كل الحكام لهم ما يشغلهم، لكن هناك أمر من الضروري أن تنتـــبه لـــه، هو أن ظروفاً تستجد، منها ماهو خاص بالعائلة، وأظن مـــن المهم حين تلد المرأة أن ترى في عيون زوجها اللهفة، والخوف عليها.

(8)

في تلـــك اللحظة كان يدرك أن لا شيء هناك سوف يخسره، عليه أن ينهي جدلاً أدخلته فيه زوجته، تلك التي لم تكتف قبل إنجابها باقتـــناص لقـــب "أم الوطن" تعويضاً للحرمان، ها هي حتى بعد أن أنجبت، لم تعد قانعة، وتريد المزيد، وعلى الرغم من أنها السيدة الأولى وأم الشعب والوطن بكل ما يحتويه، تساوم على امتيازات جديدة لها وللـــصغيرة التي لم يكد بؤبؤا عيناها يريان ضوء النهار بعد، لم تصب الـــزعيم اندهاشـــة، فهو يعرف ما الذي يدفع بالزوجة للاكثار من مطالباتها، يعلم أن لا حدود لأطماعها.

طلبت منصباً للإبنة فمنحها وعداً، ثم تعهد كتابة في عقد شهد عليه شخصان من كبار العاملين في المكتب الرئاسي، باعتلاء الإبنة سلّم الدولة وبما يضمن لها التساوي في المناصب العليا، مع الأبناء الذين قد ينضموا يوماً إلى أفراد عائلته، وأن يكون لها نفس السلطات، وأن يتم استشارة أم الوطن والأخذ برأيها في التعيينات التي يختار لها أبناء من صلب الحاكم.

كان هذا الاتفاق، هو الأغرب في تاريخ الأسر التي حكمت دولاً في العالم، لكنه جاء في سياق القوانين والقرارات التي مهرها الزعيم بتوقيعه، والتي كان من بينها فرض الحراسة على العديد من الأسر لمجرد أن أبلغته الجهة التي تراقب أجهزة المواطنين التنفسية، انها أقامت أعراسها في الوقت الذي كان هو فيه قلقاً، وكانت أم الشعب فيه تعاني من قسوة الولادة، وكان من بينها القانون الذي كان يمنح لرئيس البلاد الحق في اعتقال أي شخص في أي وقت وبدون إبداء أي سبب ولأي مدة، دون أن يكون لهذا المعتقل الحق في التظلم أمام أي جهة.

وفي ظل هذا، كان الاتفاق العائلي لتوزيع التركة التي اختطفها الزعيم ذات يوم بإعانة دبابة وبعض الجنود، مجرد نقطة في بحر مساخر قوانين قام الخائطون بتفصيلها لتتواءم مع طموحاته وتحوّله بتدرّج من قائد محبوب، يتظاهر بالتواضع، يعف عن الهتافات، إلى زعيم مغرور، تختفي عيناه وراء نظارة سوداء، ويتحول من ادعاء الزهد، إلى حض معاونيه على نشر أكبر عدد من المجسمات، ورص الشعارات الداعية له بطول العمر، في الشوارع والميادين.

أعاد الأغاني إلى سابق عهدها، فأعمل صناعها القريحة، وعاد اسمه يصدح في الإذاعة الرسمية، بعد أن اعتقد الناس أن حبيب

الملايـــين، ورجل الإيمان وصاحب الطلة، ليس أكثر من مجرد طاغية، ينتـــشي بمن يهتفون له، ويمنح العطايا والمناصب، الحقائب الوزارية، وأنواع المدد المالي والمعنوي للقادرين على زيادة جرعات النفاق.

كـــأن شـــيئاً لم يكن، عادت البلاد إلى حالتها، على مستوى الأمـــة، وعـــاد أبـــناء الـــوطن يستيقظون مبكراً، يستهلون يومهم بالـــدعاء أن يحفـــظ الله للـــشعب ملهمه، أن يطيل له العمر ويوفق خطواته.

ولمـــا حقّق للأم الخالدة ما أرادت، انفتح الطريق أمامه لترتيب الحكـــم، وكـــان الهدف التالي هو الزواج بأخرى، وبذر أقصى ما يستطيع إنتاجه من الحيوانات، في تربة خصبة، تعوضه عن الأيام التي أضاعها حارثاً في صحراء.

وهكذا في اللحظة التي وقّع فيها على الاتفاق، خرج مسرعاً من جـــناح الزوجة إلى حيث كان ينتظره كاتم أسراره، ومتعهد تزويجه، يطلـــب منه إعداد عش الزوجية، لمن اختارها في التصفيات النهائية للمسابقة، ساحرة العينين، مليحة القد، باذخة الجمال، التي ستصبح الـــزوجة والأم المفترضـــة للوالي المنتظر، ذلك الذي سوف يخترع له البارعون في أساليب البلاغة، بمجرد بزوغه، بركات وفضائل لا عدد لها ولا انتهاء.

لم يجـــد المارشال هذه المرة ضرورة للاستعجال، دعاه للتريث حـــتى تمر الإبنة من المحنة، قدّم إليه نصحاً بارجاء الزواج ذاته تقديراً للظـــروف الحالـــية، ومشاعر أم الوطن، وقلق الشعب، أكد له أن التأجيل سوف يحسب لصالحه.

وللمـــرة الثانـــية، وجد الزعيم نفسه، يرجىء ما كان اعتزمه، وجدها فرصة للاطلاع، كلما سنح الوقت، على أحوال الإبنة داخل

الحضانة، طلب من المارشال استدعاء وسائل الإعلام لتصاحبه في تلك الجولات، أمر أن يتصدر خبر كل جولة عناوين الصحف ونشرات الأخبار وأن يعاد بثه طيلة اليوم في برامج في الإذاعة والتليفزيون، كان يريد استغلال الأمر في الدعاية، لا بدافع الأبوة، بل لإشباع رغبة لدى شعب، يزداد إعجاباً به كلما أطل عليه من شاشة التلفزة، ورآه يتجول في المستشفيات، كان يزداد اقتناعاً بمزايا قائده العطوف، الودود والمحب لمواطنيه، المتابع لأحوالهم، سيرونه في تلك الجولات أباً من النوع الفاخر، يقوم بنفسه بالانتقال من غرفة إلى أخرى داخل القصر الرئاسي، حيث ترقد في إحدى الحضانات، فلذة كبده، وأمل الأمة، الإبنة التي جاءت بعد طول انتظار.

هكذا جاء التحول، من قائد ظلت صورته الرائجة تشير إلى الزهد والبساطة، التواضع والحكمة، إلى حاكم مثل كل المتحكمين في الدول القابعة فوق أجزاء من الخارطة، يعشق الاستعراضات، ويجيد التعامل مع الحسناوات، وتجتاحه النشوة ان أطلقت إحداهن ذات لحظة ضحكة غنجاء.

لم يعد يضع أي حساب للشعب، لا في عشقه الوله، ولا في بغضه المكتوم، ولا في اعتماد البلاهة حتى في الحالات التي تتطلب تفاعلاً.

أخذ يتابع حالة الإبنة بشكل مكثف، هذه المرة كان يزور المكان بين وقت وآخر، وحتى في الأيام التي لم يكن يذهب إلى هناك، فإن تقاريراً صباحية ومسائية كانت تصل إليه بتطورات الحالة، بالفحوصات والتغذية وإمكانات التحسن، والأجواء المحيطة بها، وهذا هو الأمر الذي أسعد أمّاً سبق أن اتهمته بإهمال الإبنة، بات الآن حتى دون أن يقصد أباً مثالياً، وهو ما زاد من تقديرها، ومن زيادة تمسك

الــشعب به، لكنه هو نفسه كان يهدف من تلك المتابعة، إلى معرفة كــل ما يمكن أن يحدث في حال الإقدام على مشروعه الكبير، الذي سيتمكن فيه من جعل تلك الحاضنة الصغيرة، التي تكاد تتسع بصعوبة لطفلــة لا يــتجاوز طولها عدة سنتيمترات ولا يزيد وزنها عن ثقل كــرة قدم، إلى مشروع أكبر، أشد اتساعاً، وأن يكون النــزيل فيه هــذه المــرة لــيس مجرد عدد من المواليد الهابطين لتوهم من دفء الأرحام.

كان الهدف أكبر من الأحلام التي مرت على مخيلة البشر، فكرة لا تنــبع إلا من عقول زعماء أفذاذ مثله، لا يستطيع أن يجاريهم في درجتها، إلا هو، حيث لا منافس، ولا مفكر، ولا أحد.

هــو الــزعيم العبقــرى، أمل الأمة ومصدر كرامتها، فخرها واطمئنانها، ها هو هذه المرة يستنبت فكرة عبقرية، انطلقت في لحظة متابعــته لابنته، لتأخذ أبعاداً أخرى، تحولت من مجرد حاضنة لرعاية طفلة، إلى سجن صحي كبير لإعادة تقويم شعب.

(9)

ما أن استوى الأمر، وبدت الحضانة واقعاً، حتى وزّع حصص البلاد رسمياً على الأبناء، أعطى لكل واحد منهم واحدة من الشطائر، ولايــة منفــصلة عن الأخريات لكنها مرتبطة بالكامل بوطن أصبح يتكون من أربع ولايات لكل منها حاكم وحكومة وبرلمان، على أن يكــون الــزعيم هو حاكم الجميع، والقائد الأعلى للجيش الموحد، الرئيس الأعلى لكل السطات في الدولة، وهو في الوقت نفسه رئيس المجلس الأعلى للرياضة والمجلس الأعلى للصحة والأعلى للتعليم والمالية والإعلام والآداب والثقافة، والمجلس الأعلى لحماية القيم.

كـــل السلطات الأساسية والهامشية اجتمعت في يديه، أمسك بــزمام الـــبلاد، وما يتحرك فوق أرضها، كل حومة لطائر، دبيب لحشرة، أنة لمريض، وشهقة لكائن من الكائنات التي تقع تحت رعاية حامي الحمى، وباعث الأمن والسكينة في النفوس.

ومـــا دام الحـــال كذلك، لم يكن ليضيره أن يتنازل عن بعض السلطات الشكلية، على أن يتم صب الجهود، في نفس المسار الذي اختطه منذ البداية، تأمينا لسلوك الشعب ومراعاة لخصوصياته، ونأيا بـــه عـــن ما يحدث لدى الآخرين من ممارسات غير راشدة، إذ كان يـــزعجه في الكثير من الأحيان ما يقرأه في صحف الدول الجارة من دعـــوات للمزيد من الحرية، والشفافية، والضرب بيد من حديد على الفـــساد ورموزه، ومن مطالبات بمزيد الحقوق للمواطنين في التعليم والصحة والترفيه، دعوات إلى اقتسام السلطة، والسماح بهامش أكبر للتعـــبير في الجامعـــات ووسائل الاعلام، والإقرار للتيارات السياسية والنقابية بالتظاهر والاعتصام السلمى، بل وحرية تشكيل الأحزاب.

لم تكن مثل تلك الكتابات تروق لزعيم مثله يقود شعباً وديعاً، يفـــضل معظمه الابتعاد عن الشر، ثم الغناء له، إذ كان لديه يقين لا يتزعـــزع بـــأن الشعوب التي تقع في المنطقة، قاصرة وناقصة للعقل والـــدين والحـــصافة، وإن هكـــذا شعوب، لا بد أن تقاد بالخيزران أحـــياناً، وحيناً بالاغداق الذي يسد العينين فلا ترى، ويغلق الأذنين فلا يعود لها السمع، إلا حين تجوع.

تلك هي القوانين التي يعتمدها حكام ابتليت بهم بلادهم، وهي التي يتبعها المفدى، ويواصل بها الحكم، وهي الوصايا التي لا يمل من تـــرديدها على مسامع الأبناء، الذي أصبحوا حكاماً حتى من قبل أن يدركوا أي معنى للقيادة والحكم والسياسة وارتداء القماط.

كانت الإبنة هي الأكبر قليلاً بين الحكام، على الرغم من عدم مرور وقت على خروجها للحياة، لكنها منذ أن جاءت الدنيا وأمها الــتي هي أم الوطن، تعتبرها مشروع حاكم، وترى أن وجهها منذ لحظة الميلاد كان يحمل قسمات حاكم.

تلــك الفــتاة، وفقــاً للاتفاق المبرم بين الأب والأم وبشهادة الــشهود، مــنذ الأيــام الأولى لولادتما، تشرفت بما أكبر الولايات مــساحة وأكثــرها اكــتظاظاً بالــسكان، بعــد أن قــام الزعيم بحشد عشرات المستشارين إلى جوارها مع رجال الدولة الذين جربهم بــنجاح في كــثير من المواقف، ممن يمتلكون رزمة من المواهب، من أهمها المقدرة على معرفة ما يبتغيه، من قبل أن تصدر عنه ايماءة.

هؤلاء كانوا هم حكام الولاية بالنيابة عنه، يعودون إليه في كل صغيرة وكبيرة، فيما كانت الابنة مجرد صورة داخل الإطار المرسوم، وهو الشكل الذي ارتضته الأم كي لا تخرج من "مولد" التوريث بلا غنــيمة، وكي لا تؤول كل تركة الوطن إلى أبناء الزوجات اللواتي انفــتحت شهية بعلها لهن، على الرغم من أن الصغيرة التي كانت لا تزال تعاني بين الحين والآخر من توابع هبوطها من رحم الأم خديجا، وانتظاراتما الطويلة في داخل الحضانة، حتى تلك اللحظة التي رأي فيها الأطباء بعد سنوات، ان بالإمكان إخراجها من تابوت الأحياء، على أن تعــيش تحــت الرعاية الفائقة، وألا تترك تحت أي ظرف عرضة لعوامل جوية أو تقلبات بيئية.

هكــذا أصبحت حاكمة لجزء من شعب وضع بأكمله في إقامة جــبرية داخــل حضانة متسعة، اسمها الوطن، وهو ما اعتبره الجيران عقــب انفضاح الأمر، من سخرية القدر،اذ أصبحت فتاة كتلك في منصب الحاكم لأكبر شطيرة، ولأكبر عدد من السكان، غير أن تلك

الـــدول نأت بنفسها عن التدخل في الشؤون الداخلية، واصلت هذه المـــرة مقاطعـــتها للحضانة، واستطاعت التكيّف مع الوضع الجديد، واعتبرت العلاقات أمراً لا يستحق عناء النقاش.

انقطعت دولة الحضانة عمّا حولها، قرر الزعيم أن يزرع الأرض بـــسواعد شعبه، ان يستغل الطاقات الممكنة للخروج من حالة النبذ، فـــلا صديق أوشقيق عاد يطرق الأبواب، منذ أن قرر الرجل المهيب اعتبار مواطنيه خدجا، اتخذت الحكومات موقفاً، تطور فيما بعد إلى مقاطعـــة شـــاملة، نأت جميع الدول بنفسها عن التعامل مع شعب اعتبرته الشائعات أجربا، مسلولاً ومصاباً بكل الأمراض، تناثر اللغط في كل الأرجاء مفسراً القرار، وإلا فكيف يمكن تبرير الأمر؟

تطورت الأمور، على عكس ما كان يبتغي والد الشعب، إذ لم يخطر على ذهنه أن بلاده سوف تجد نفسها في النهاية معزولة، بعد أن استوت القبعة في مستقرها، وأظلم الوطن، واحتجبت شمسه.

لم يكن الأمر يسري على المطار فقط، إذ أصدر أوامره بتنفيذ ما تتطلـــبه خطة الحضانة، من إغلاق البوابة الوحيدة أمام العابرين من داخل الوطن إلى خارجه، توقفت المواصلات والاتصالات بين بلاده والعـــالم الخارجي لا شيء يدور إلا في داخل الوطن، فالنهر الوحيد صـــنع له جداراً، كان كفيلاً هو الآخر بمنع عبور الأسماك المشاغبة، وتطلب الأمر توليد طاقة تكون قادرة على تغطية الحاجة من الكهرباء بعد أن تم الاستغناء عن حرارة الشمس، وبالقدر الذي يكفي لتشغيل أجهـــزة الحـــضانة، والا فإن نتائج انقطاعها ستكون كارثية، وكل الجهـــود، والخطـــط التي سهر عليها، وتلك الدورات التي قطعها في حديقته الرئاسية وأعمل فيها فكره، ستسفر إذا ما تعطل جزء واحد من أجزاء المنظومة، عن ضياع هائل وخسارات فادحة، قد تهدد آمال

قائـــد الأمـــة وتقضي على مشاريع، تعد الحضانة رغم كونها عملاً جـــباراً، مجـــرد خطـــوة واحـــدة مطلوبة للوصول إلى تحقيق الحلم المستهدف.

بعـــد وقـــت من إقامة الحضانة، سارت الأمور وفق ما ابتغى، استسلم الشعب لفكرة انه ناقص النمو، راح تحت تأثير الدروس التي اضطلع بها فقهاء الحاكم، ومقالات الصحف، يؤمن أن ما فعله القائد يـــأتي من باب الحرص عليه، وان تلك الطريقة التي اختارها للتعامل معه، تحسدهم الشعوب الأخرى عليها.

أيقن المواطنون الصالحون في النهاية بعد أكبر عملية غسيل دماغ انهـــم قاصرون وفي حاجة للأدب، وان عليهم لاستكمال الفضيلة، واللحـــاق بالعـــصر ومسيرة الشعوب الراقية، ان يستمروا في إبداء الطاعـــة التامة لما يأمر به الزعيم، وما يراه، فهو العارف بما يناسب، ومـــا يـــنفع في الدنيا والآخرة، وما عليهم إلا الاستماع للتعليمات، وتنفيذها حرفياً، "فإن في ذلك فلاحاً ومنجاة"، وفيه طاعة أيضاً لولي الأمر، الذي وهبه القدر لهم.

ومـــع ان الـــشعب تماشـــى مـــع التطورات الجديدة ورضخ للأمـــر الواقع، إلا أن مشكلات أخذت في الظهور، لم تكن بعد قد خطرت في الذهن العبقري، أو مرت على بال من حوله من مطأطئ الـــرؤوس استحساناً للدرر الطالعة دائماً من فمه والمختلطة بدخان سيجاره.

أخـــذت المـــشكلات بالظهور مع مرور الوقت، بدت في أول الأمـــر مـــثل بثور صغيرة، سرعان ما تورمت حتى صارت ثآليلاً، امتلأت على الفور بصديد، لم يتمكن لا هو ولا مستشاروه أمامها، إلا الوقوف مذهولين.

ظهــــرت أولى المــــشكلات، مـــع العالم الواقع خارج حدود الحضانة، فالوفود التي أرسلها الزعيم عقب تنفيذها، لتشرح الفكرة، بعـــد وقـــت من الإخفاء، والتصريح بمبررات كاذبة، والتي راحت تطلب إعادة العلاقات في أقرب وقت، قد رجعت لقائدها الهمام برد واحد وان اختلفت صياغته من دولة إلى أخرى:

"إن طلبك يا سيادة الأخ الرئيس مرفوض، فكما أن من حقك أن تغلق بلادك وقت تشاء، فإن من حقنا نحن أيضاً، إبلاغك بأن من مصلحة بلدنا النأي بنفسها عن التعامل مع دولة منكوبة، تضم شعباً مـــصاباً بأمـــراض خطيرة، وأن علينا أيضاً حماية شعبنا من التعرض للإصـــابة بالفيروســـات المنتشرة لديكم والتي استدعت وضع وطن بأكمله داخل بوتقة".

أســـقط في يده هذه المرة، إذ لم يتصور أن يرفض حاكم، من الـــذين تربطهم بشعبه وشائج الدم والقربى والمعتقد، يده الممدوة، لم يكن يتخيل يوماً أن يرسل موفديه إلى الحكام شارحين السبب وراء إنشاء الحضانة، ويقومون هم بالتشكيك في صحة المبرر، معتبرين ان من كذب في البداية، يجب أن لا يصدقه أحد في النهاية.

فكّـــر الـــزعيم أن يقوم هو بنفسه بجولات مكوكية إلى تلك العواصـــم، على أن يبدأ بزيارة الدول الشقيقة، ثم ينطلق بعدها إلى الصديقة، التي يمكن الاعتماد عليها في المساندة داخل المحافل الدولية، خـــصوصاً عـــندما يقـــوم بإطلاق العد التنازلي للبدء في مشروعه الامبراطوري.

لكـــن الزعيم المهيب، ما أن أبلغ رغبته إلى إخوانه الأشقاء من القادة، حتى سمع منهم رفضاً مباشراً، وآخر مبطناً، كأنه قط أجرب يجـــب علـــى الأرانب أن تبتعد عنه، وألا تسمح له تحت أي ذريعة

بالاقتراب منهم، على الأقل فلا حوار ولا كلام ولإلقاء، يسبق وضع نهاية لحكاية تلك الحضانة، وإعادة الأمور الطبيعية إلى بلاده.

أما الدول الصديقة، فقد رأت انه من السابق لآوانه التباحث في مـــثل هذه الأمور، معتبرة ان الزيارة لا معنى لها قبل التأكد من شفاء شعبه، وما إذا كان الزعيم نفسه، وهو الذي عاش كل ذلك الوقت داخل الحضانة، يتمتع بالعافية هو الآخر أم لا؟

ليس هذا فقط، بل ان الحكم على كفاءة الشعب ومقدرته على التعاطي مع الحياة بشكل طبيعي - وفق ما أبلغه قادة تلك الدول - لا يجـــب أن تـــتم بواســـطة الزعيم ولا مستشاريه ولا حتى الأطباء التابعين له، بل عبر لجنة دولية تحددها المنظمة الأممية التي تنتمي إليها دولـــته، فهـــي المنوطة بذلك، وهي القادرة على الحكم بجدارة على مدى أهلية بلاده للعودة إلى صفوف المجتمع الدولى؟

كانـــت تلك الشروط تشكل ضربة قاصمة للزعيم، الذي كان يتصور أنه بات نموذجاً، يجب أن تحتذى به شعوب العالم النامي، وأن تسانده أحزاب العالمين، غير أنه الآن يكتشف، أن الشعوب في واد، والخيالات التي ظل يحشو بها عقله الباطن في واد آخر، لكن المكابرة، قاتلـــها الله، ظلت صفة راسخة لديه، توعز له بضرورة المراهنة على يقظة الشعوب وانتباهتها، وقدرتها على كسر الأغلال التي قام أعداؤه في غفلة من الزمن بترسيخها لديها، أوهم نفسه أن الشعوب سوف تـــتمكن يـــوماً من محاكمة جلاديها، الذين يتسببون في قهرها ليلاً ونهاراً، متناسياً أنه الذي ساق شعبه كالأغنام وهو يحدثهم عن أحلام الـــثورة، في الكفايـــة والعـــدل، والديمقراطية، عن كسر الأغلال، والحـــرية، عـــن الـــرخاء القادم، والتوزيع العادل للثروة على جميع فـــئات الشعب وقواه العاملة، هو الذي بحت أصواتهم وهم يهتفون

لــه اعجابــاً، حين كان يعدهم بالتحرر من ربقة الظلم، فيما كان يــسهر الليالي وهو يخطط لوضعهم في أكبر سجن سمع عنه في الدنيا أحد!!

(10)

لم يقف الأمر عند اتخاذ دول الجوار تلك المواقف الحادة، فالأمر ازداد تفاقمــاً في الــداخل بعد أن أصيب مواطنو الزعيم بانتكاسة كــبرى، إذ سرعان ما أخذت أمراض العظام تنتشر بينهم، الأطفال اجــتاحهم الكــساح، والكــبار استشرت فيهم الهشاشة، وامتدت خطورتها لتكتسح في طريقها العدد الأكبر من النساء.

لم يــتوقف الأمــر عند العظام، فأجهزة البشرالتنفسية ازدادت ضــيقاً، ســعل الوطن بأكمله، فارتجت من موجات السعال أرجاء البلاد، خربت الصدور، وكادت الأوجاع تحطم أقفاصها.

لم يكن هناك من تفسير، سوى اعتبار ان الحضانة كانت وراء ذلــك، فهي التي منعت الشمس من دخول البلاد وملامسة أجساد العباد، حتى أصبح الشعب بمرور الوقت مقعداً، الأمر الذي استدعى ارتفاعاً في عدد من يحتاجون إلى كراسي متحركة.

عــندئذ استــشعر الزعيم خطورة الأمر، راح يفكر في ما يجب اتخــاذه، وهــو يرى حلمه الأمبراطوري على وشك الانهيار، إذ كيف يمكنه وضع أحلام التوسع فوق أكتاف شعب بات في معظمه كسيحاً، وكــيف يمكن لهؤلاء أن يجتاحوا دولاً، وهم لا يستطيعون الانتقال من مكان إلى آخر إلا على مقاعد ذات تجهيزات خاصة.

إلى هكذا آل الأمر، بعد كل الترتيبات التي أتخذت، وتم خلالها صب الجهود لإعادة ترتيب الأوضاع الصحية والغذائية، وبعدما بذل

لـــرفع الحماســـة وتوحيد المشاعر خلف القيادة التاريخية، وما قام به التـــربويون من إعادة صياغة لأفكار ورؤى أبناء الشعب، في الوقت الـــذي أدت فـــيه كـــل الجهـــات المكلفـــة بمهام مصيرية ما أسند إليها بكفاءة لصالح مشروع الحضانة، الأمر الذي أعطى نتائج مبشّرة في بداياتـــه، وأدخل البهجة إلى نفس الزعيم، وزاد من حجم الغرور لديه.

في وقـــت كهـــذا، جاءت مشكلة الكساح لتلقي بظلالها على المشروع بأكمله، وتضع منذ تلك اللحظة علامات استفهام في وجه مشاريعه الكبرى.

بعـــد أن اطلع على العديد من التقارير الطبية التي تخص صحة رعايـــاه، والسياسية منها التي تدور حول رصد مواقف وردود أفعال الـــدول الـــشقيقة والـــصديقة، وبعد أن تراكمت المشاكل الداخلية والخارجـــية، راح يطلب اجتماعاً عاجلاً لمجلس الأمن القومي، وضع أمـــام الحاضرين حجم المشكلة، حدّد تصوّره لما يجب أن يكون عليه العمـــل في تلك الأوقات العصيبة، وهي نفس الخطوط التي يكون في العادة من واجب أعضاء المجلس السير وفقاً لها، والتي يستعيذ خلالها هؤلاء من الشياطين إن لاحت في عقولهم الباطنة مجرد فكرة مغايرة، غـــير أن الأمر جد خطير هذه المرة، والبلد الذي تصوّر أبناؤه وفقاً لوعـــود القائد وأمانيه الخضراء، إن المسافة التي ستحوّلهم إلى أنموذج تقـــتدي به شعوب الأرض، أقصر من حبل الوريد، بات الآن يقف علـــى كف عفريت، ويواجه تحديات بعد أن اتخذت كل دولة على انفـــراد قـــراراً بقطـــع العلاقـــات، في وقـــت تناقص فيه المخزون الاســـتراتيجي مـــن المواد الغذائية، وكادت قطع غيار محطات توليد الطاقـــة داخل الحضانة، تقترب من لحظة التوقف، بدت كل الأمور

بعد شهور من الاحتمال، على حافة الانهيار، تناقص عمرها الافتراضي بشكل متسارع، وباتت الحاجة للاستيراد من الخارج في أمسها.

في هذا الوقت وصل الرهان على الشعب المقعد إلى آخر درجات اليأس، لم يعد هناك من يمكن أن يراهن عليه، لا في الوقوف بصلابة في مواجهة التحدي، وفي الصمود أمام المحنة، أو حتى انتاج بدائل محلية.

دخل الأمر إلى مرحلة ما قبل التسليم بالفشل، إذ لم تستطع العقول مسلوبة الثقة، ولا الأجساد الفاقدة للعافية، ولا الأرواح التي انتزع منها بصيص الأمل، مجاراة رغبات الزعيم، لم تفلح في حقيقة الأمر - رغم المكابرة - محاولاته للاستغناء عن الخبز بالكلمات الحماسية، كما لم تنجح مساعي الجاهزون لكل حادثة، في دفع البشر للصمود حتى آخر رمق، مقابل وعود بأن الثواب الأكبر والأجدى، الأنفع والأصلح... مؤجل القطاف.

عند تلك النقطة وقف الزعيم وللمرة الأولى، يتجرع الكأس شديد المرارة، يفكر في الحال التي وصل إليها، والمآل الذي انقلب سعيراً في النهاية، ها هو يرى بأم عينيه، الأمور وهي تزداد سوءاً، فلا الشعب قادر في ظل الكساح على التقدم لخطوة، ولا تمكن المستشارون بألسنتهم المقطوعة، وعقولهم المرتجفة، من تقديم النصائح بما يمكن عمله، ولا تركته دول كان، لجعلها تركع عند قدميه، يعبر المرحلة التي تصوّر أن ثمارها باتت دانية.

وجد نفسه يقبع وسط المتاهة، داخل مأزق صنعته يداه، وعليه وحده أن يجد نفقاً في نهايته ليتسلل، أو متسعاً لقبر يحتويه.

(11)

بمــرور الأيــام كانت الإحصائيات تشير إلى تصاعد المصابين بهــشاشة العظــام، هــذه الدولة التي أراد الزعيم مباهاة العالمين بها، تتحول إلى عكس ما كان يبتغي، فأي خيبة أمل يشعر بها، وهو يقرأ كل يوم بيانات تصيبه بالغم، وتزيده إحباطاً؟ ما هذا؟ ولماذا حدث؟ وكيف لم تضع جيوش مستشاريه هذا الاحتمال في الحسبان؟ لماذا لم يتم في الأصل اتخاذ الاحتياطيات الكفيلة بالتعامل معه؟

يحدث هذا في الوقت الذي ترفض فيه دول العالم التعامل معه، تعتبر أن الاقتراب من وطنه المحبوس داخل الحضانة، فعل محظور على مواطنــيهم ارتكابه، تشترط قبل التفكير في إعادة العلاقة، الحصول على تأكيد من جهة محايدة، بأن البلد السجين أصبح خالياً من وباء ضــرب مناطقه، واستدعى إغلاق أجوائه، منع شعبه من الاختلاط بالآخرين، أو الخروج من البوابة الوحيدة.

ضــاقت الخيارات على الزعيم، في وقت بات على يقين من أن الوقت هو العدو الأول، إذ بمروره سوف ينفذ مخزون الغذاء، الوقود، الأدوية، قطع الغيار ومواد الصيانة، الحركة في الوطن سوف تتوقف، ما لم تأت امدادات من الخارج.

اقترب رهانه سريعاً من درجة الخسارة، ذلك الرهان الذي صبّه علــى شــعبه، ضخّ في أرواحهم الشعارات، دعاهم للشعور بعظم المسؤولية، بالتحدي الذي ألقاه التاريخ على عاتق الأمة، طالبهم دون خجــل بالارتقاء إلى مستوى التحديات، والوصول إلى الدرجة التي تــستطيع فيها البلاد الاكتفاء ذاتياً، الاعتماد على إمكانياتها في توفير الغــذاء والكــساء، الأدوات والأجهزة، إدارة المصانع وبناء الوطن

وتجهيزه للوقوف بصلابة، والتصدي للقوى الطامعة في مقدراته، لكنه الآن رغم النجاح الأولى في تكريس مشروعه، واستمراره لفترة محدودة في إثبات جدارة الوطن والمواطنين، بعد هذا الوقت الذي وصفه في خطابات كثيرة ألقاها أمام حشود الجماهير، بأنه مثال لقدرة الشعوب على التصدي والصمود، ومقارعة الأخطار المحدقة، بالعزيمة والإصرار، وإعطاء أدلة للأعداء المتربصين على مدى صلابة الجبهة الداخلية، والتفافها حول قيادة بايعها الشعب، وزكاها بجميع قطاعاته وأجياله، وأرسلها القدر في ليلة سعد، كأجمل هدية لوطن معطاء، وشعب من الميامين، لا تلين لهم قناة، ولا تفتر عزيمة، ولو كره الخاسئون.

ها هو الآن لا يصدق إنه فعلاً دخل إلى عمق نفق، هذا الرجل الأشبه بطاووس، الذي تلوّن كالحرباء، منذ أن كان طالباً، إلى أن فضّل الالتحاق بالقوات المسلحة، ليتحول إلى ضابط نظامي، وهو ما أتاح له البقاء الدائم فيه، ليتمكن بعد ذلك من إعداد إنقلاب شديد السهولة وبمساعدة عدد قليل من الضباط، سرعان أيضاً ما تخلّص منهم في أقرب فرصة، لم يشأ وقتها أن يضيع الفرصة، تحججاً بوفاء، أو نأياً بالنفس عن الاتهام بالغدر، فتلك كلمات لم يكن معترفاً بها في قاموسه الشخصي، بل إنه كان يرى إن الذين يتعاملون بها هم السذج، وعديمي الطموح، هؤلاء الذين يكتفون من الدنيا بالعيش خلف ظلال.

احتار مستشاروه، ما الذي يمكن تقديمه لإنقاذ الموقف، بعد أن أخذت الأمور تتجه نحو مزيد من التدهور؟ ما الذي يمكن قوله، وهم يرون الشعب الذي راهن عليه الزعيم، غير قادر على التحلي لفترة أطول بروح متحدية، سرعان ما أصابه الملل، قبل أن يضرب جسده

الكساح، راح المفدّى يصرخ في هؤلاء الذين توافدوا، اكتظت بهم قاعة الاجتماعات الكبرى في القصر، أطباء وخبراء في كل المجالات، كبار رجالات النظام ووزراء الحكومة، هؤلاء الذين يحصلون على امتيازات جمة، وقفوا هذه المرة عاجزين عن إيجاد حلول ملائمة للحدث الجلل، ما دفع الزعيم إلى خبط المكتب الرئاسي بقبضته مرات عدة، صرخ في وجوههم، أن ينطقوا:

• ألستم أنتم الذين قدّمتم التقارير؟ ألم تستحسنوا فيها فكرة الحضانة؟ ألم تذكروا أنكم قمتم بدراسة المشروع من جميع جوانبه؟ فلماذا استشرى المرض إلى هذا الحد بين الناس؟ لماذا أقعد الكثيرين منهم، وما زال يواصل زحفه دون أن تتمكن محاولاتكم من وقفه؟

أخيرا نطق أحدهم، كان الطبيب الأكبر سناً:

– إن منع الشمس يا سيدي، من اختراق الحضانة لمدة طويلة، كان وراء إصابة البشر بهذا المرض.

التفت الزعيم، يعلو وجهه الغضب، باتجاه وزير الصحة، الذي ابتل جسده عرقاً، صمت الجميع، فواصل أكبر الأطباء عمراً الحديث، أكد وكأنه يضع رقبته بين اليدين اللتين قد تقبض عليها بشدة:

– إن الشمس ضرورية لإمداد البشر بفيتامين (د)، ذلك الذي يكمن تحت جلد الإنسان، إنما تحفزه، حين تسلط أشعتها فوق البنفسجية، فيندفع لتغذية العظام، أما الحضانة التي صادرت هذه الخيوط ومنعتها من الوصول إلى جلود البشر، فقد كانت السبب المباشر في المشكلة.

• ولكن هناك المشاكل التنفسية، لقد أصيب الشعب بأمراض الصدر، هل هي أيضاً نتيجة لغياب الشمس؟

- الالـــتهابات الرئوية والربو، أغلبها ناتج من التأثير السلبـــي للضغط المستخدم في أجهزة التنفس الصناعي، التي لم يكن لأحد أن يتنفس دونها.

- أين متابعتكم الدقيقة إذن، أين الكلام المتحمس لبناء الحضانة الذي ذكره تقريرك؟

خرج الوزير مضطراً من انكماشه، جاهد حتى تمكّن من تجميع بضع كلمات، رتّبها في عبارات متصلة، فقال:

- ســـيدي لقد فعل الجميع ما تم تكليفهم به، لكن العواصف تسير في بعض الأحيان على عكس ما يشتهي الملاحون.

- هـــذا كلام يصلح لتقوله في سوق للشعر، لا في مأزق مثل الذي أصبحنا نعيش فيه، اعتبر نفسك مقالاً، وفي الغد توجه إلى أحد الأقفاص التي يختفي فيها الوزراء الفاشلون.

ارتفع فجأة نشيج الوزير مختلطاً، بنداءات استرحام، لم تجد لها أُذناً صاغية، فاستدار، مبتعداً وهو ينطق الشهادتين، فيما كان الملهم يواصل الصراخ، متوعداً بإنـــزال أقصى العقاب على كل من ساهم في إيصال الأمور إلى هذه الهاوية.

- ســـيدي إننا في حاجة للبحث عن حلول، حتى وإن قاسية، فأعـــداد الأطفـــال المـــصابين بالكساح يزداد، والهشاشة تنتشر بين الكبار، حتى لم يعد هناك من ليس لديه كسور في الوركين والعمود الفقري والمعصم... قال الطبيب.

• وما هي هذه الحلول؟

- أن نرفع القبعة، يا مولاي؟

• أهذه نصيحة أم مصيبة؟

تقدم المارشال هذه المرة، قال:

- ذلك ما لم يعد هناك مفر منه، يا مولاي؟

• أنا أرفض هذا الحل، ابحثوا عن وسائل أخرى، لوقف زحف هذا المرض، ألا توجد أغذية، أدوية، للإنقاذ العاجل؟

• سـيدي، نـصحنا الأطباء بضرورة إمداد الشعب بالألبان والأسماك، بالبيض واللحوم والخضروات... لكن.

• لكن ماذا؟

• لكنـنا، كما تعلم، لم يعد لدينا ما يزرع، توقف المزارعون عن فلاحة الأرض، واعتزل الصيادون العمل.

• كيف حدث هذا؟

• سـيدى، الزراعة تحتاج إلى المياه، وتحتاج النباتات الشمس، ونحـن منذ منعنا خيوط الشمس من الدخول، لم يعد هناك إمكانية لزراعة ولا لصيد.

• إلى هذا الحد وصل الأمر؟

• نعـم، ولدرجة أن اللحوم والبيض لم تعد تتوفر، فلا أبقار تعيش، ولا دجاجات منذ أن تم وضع القبعة.

• ألا توجد حلول أخرى..؟؟؟

• للأسف، سيدي، لاحل إلا بدخول الشمس إلى ساحة الوطن.

• أتـريدني أن آمـر بـرفع القبعة؟ كيف، ما الذي سيقوله الآخرون، الجيران والدول الأخرى؟؟ كيف يحدث هذا؟ وفي عهدي أنا؟؟ لماذا لم يستخدم الأطباء الأدوية؟

- سـيدي، إن هـذه الحلول جرّبناها، فشل الأطباء في وقف زحـف الأمراض، لو استمر الشعب على هذا الحال، لن تجد هناك شـعباً لـتحكمه، في نهايـة الأمر، إن الحل المطروح هو إيجاد منفذ للشمس فقط، مع الإبقاء على الحضانة.

• ولكـــن ألـــن يؤثـــر رفع الغطاء على الرعاية التي نقدمها للمواطـــنين؟ ألـــن ينهـــي الهدف الذي أقيمت الحضّانة لأجله؟ ألم تقولـــوا لي أن الهـــواء الـــذي يقدم لهذا الشعب معقم؟ كيف يمكن أن نـــضمن تعقـــيمه، بل كيف يمكن حماية رأس الوطن، إذا رفعنا القبعة؟

- نفتحها لمدة ساعة في اليوم، ويتم تعريض أبناء الوطن لأشعة الشمس، ثم نغلقها بقية الساعات.

• ادرســـوا الموضوع جيداً، وقدموا لي تقريراً بما توصلتم إليه خلال 24 ساعة، وإلاّ كان قراري بالنسبة لكم صاعقاً.

خـــبط بـــيديه القويـــتين فوق مكتبه الفخم، فتحولت نثارات الزجاج إلى ما يشبه أمواج تتلاطم في بحر، كان لا يزال يشعر ببعض القـــوة إذ لم يـــصبه الدور في طابور الكساح، ولا أصاب أحداً من الحاشـــية، هـــؤلاء الذين ينساهم المرض في العادة، بعد أن يكون قد افترس بقية المواطنين.

اجـــتاح الزعيم شعور بالحسرة، فليست تلك هي النتيجة التي تـــوقعها، ولم يكن قد قرأ في أي تقرير، قدمه هؤلاء الذين يطبّلون له دائماً ويصفّقون، كلمة واحدة عن النتائج السيئة المحتملة، لعزل بلاده عـــن الـــدول المجاورة، وعن دول العالم الأخرى، لم يشر أي تقرير لنتائج ابعاد عين الشمس عن مصافحة رؤس أبناء شعبه، ولعل هذا ما أغاظـــه، ومـــا دفع الغضب ليجتاح كيانه ضد المستشارين والأطباء والخبراء، وحتى الشعب بأكمله.

مـــأزق كـــبير وجد نفسه في داخله، لم يتصور يوماً أن الأمور ســـوف تصل إلى هذه الدرجة، وانها ستتفاقم حتى تكاد تهدد أحلاماً بناها على مدى سنوات بالانهيار، لكن ليس الآن أمامه وهو المهاب،

الواثــق مــن قدراته إلى درجة الغرور، سوى أن يتعامل مع الأمر، بطريقة تتشابه مع ما سبق أن تجاوز به أكثر الأزمات تعقيداً.

وهكذا ما أن انقضت الساعات التي حددها للاجتماع الخاص بأعــضاء مجلــس الأمن القومي، حتى انطلق مجدداً إلى مكتبه، ليرى جــوقة المستشارين وقد انتظموا في مقاعدهم بانتظار طلعته المشرقة، الــتي ما أن أطلت، حتى انتفضوا مثلما في كل مرة، يؤدون واجب الانحناء.

قدموا تقريراً جديداً، وضعوا فيه احتمالات عدة، حاولوا هذه المــرة تخفيف المشكلة، كانوا يعرفون أن قول الحقيقة بكاملها سوف يمــنح المــبرّر لتطيير رؤوسهم، ذلك ما استنتجوه من نبرات صوت القائد حين حمّلهم المسؤولية بالكامل عن تقديم تقارير وردية، لم يتم التطرق فيها إلى سلبيات يحتمل أن تنتج عن الحضانة.

لم يرد أي واحد منهم أن يتحمل المسؤولية في ظل غضب عارم اجــتاح الزعيم، قالوا إن فكرة بناء الحضانة كانت صائبة وعبقرية، لكــن المشكلة أنهم لم يعرفوا منذ البداية أن هذا الشعب الذي طالما شكك حاكمه في قدراته، تصل به درجة الرخاوة إلى حد لا يستطيع معه الاستغناء عن ضوء الشمس.

حملوا المسؤولية كاملة فيما حدث من تداعيات لشعب لا يصح الاعتماد عليه، اعتبروه غير جدير بالملهم ولا بأفكاره العبقرية.

• لكــن، ألم يكــن عليكم أن تضعوا من البداية احتمالات كــتلك؟ ألم تعــرفوا أن الحضانة سوف تحجب ضوء الشمس عن البلاد؟ وألم تتوقعوا الآثار التي يمكن أن تحدث من ذلك المنع؟ كيف لكــم أن تبرروا ما حدث؟ كيف يمكن أن تشرحوا تلك التداعيات الخطيرة؟ ثم في الأصل ما الذي اقترحتموه للخروج من ذلك المأزق؟

- الحل يا سيدي، يكمن في عمل أربع فتحات في قبعة الوطن، في كل شطيرة يتم استحداث فتحة قابلة للإغلاق، على أن يتم تجميع المواطـــنين القاطنين في كل واحدة منها صباحاً، لإعطائهم جرعات متـــساوية من الشمس، وبعد أن يتم توزيع الضوء بالعدل، تغلق كل فتحة حتى اليوم التالي، وبذلك ينال جميع مواطنيك نصيباً من الأشعة.

• وهـــل ستكون تلك الطريقة ناجعة في معالجة المقعدين؟ ألن تؤثر على سير الأمور في الحضانة، مثل التعقيم والرعاية والنمو؟

- ســيتم تحديـــد ساعة واحدة في اليوم، هي المسموح بتمرير الضوء خلالها، أما ما تبقى فإنه سيكون مخصصاً للعمل العادي داخل الحـــضانة، من الدروس التعبوية إلى الرعاية الصحية والتأهيل المهني، والتدريب والتعبئة القتالية، كل الأمور سوف تسير بيسر، ولكن أمر علاج الكساح والهشاشة سوف يحتاج وقتاً.

- كم الوقت الذي سيستغرقه هذا العلاج؟ وهل سيؤثر ذلك على آلية العمل؟

- الأمر سوف يتحسن بعد فترة، لكن من الضروري مواصلة تعلـــيم الـــشعب، وتأهـــيله على الأقل من الناحية النظرية أثناء فترة العـــلاج، علينا أن نعلّمه كيف يتمتع بالصلابة حتى في أشد لحظات المحنة.

• إذن، كـــيف ســيتم التعامل مع الحكومات الأخرى، لقد أصـــبحنا الآن شبه معزولين، إن لم نكن قد تم عزلنا فعلياً... إلى أي حلول توصلتم؟

- رأيـــنا، بعـــد تـــدارس الأمور من كافة جوانبها، أن هناك طـــريقتين يمكـــن بهما التعامل مع الأزمة، الأولى أن تعاود فخامتكم المحاولـــة مـــن جديـــد، بالاتصال شخصياً مع بعض أصدقائكم من

الرؤساء والقادة، تدعوهم لزيارة دولتنا، فإن نجحت المحاولة، وجاء إلينا حاكم واحد، فإن الحاجز النفسي سوف ينكسر لدى الآخرين وسوف نضمن أن يأتوا إلينا في أعقاب ذلك، إن المسألة هي في الأساس نفسية وبنسبة 99 في المئة.

• وهل هناك غير هذا الاقتراح؟

– نعم يا سيدي، إن لم تفلح تلك، فبإمكاننا اللجوء إلى الطريقة الأخرى، وهي استخدام سلاح الامتيازات، مثلاً أن نمنح لشركات إحدى الدول المؤثرة في صناعة القرار العالمي عقداً لتطوير أحد الحقول لدينا، إن هذه الشركة سوف تقوم بالباقي عندئذ وستمارس هي ضغوطاً على حكومة بلدها لصالحنا، وهكذا كما ترون عظمتكم، فإن كل الحلول تبدأ من القدرة على إحداث ثغرة في الجدار.

• عدنا إلى الثغرة مرة أخرى!!

– نعم، يا سيدي، ما نقصده، إن فتح ثغرة في كل شطيرة من شطائر الوطن، سوف يتيح لنا علاج المرض الذي انتشر في عظام المواطنين. وفي الوقت نفسه فإن حل مشكلة العزلة التي باتت مفروضة علينا، يكمن أيضاً في قدرتنا على كسر تلك الحلقة، إن من المهم أن ننجح في إفشال ما فرضه الآخرون علينا، منذ أن رفعنا جدارنا بطول الوطن، وأنجزنا مشروعنا الحضاري العظيم الذي أصبح مثار فخرنا، ومصدر عزتنا.

• لست أرى أن هناك ضرورة لكي يأتي الآخرون إلينا الآن، لا أريد لأي أحد أن يرى وطني الذي أفنيت عمري لأجله في هذا الوضع، أفضل إرجاء النظر في اقتراح من تلك الاقتراحات إلى ما بعد تجاوز تلك الانتكاسة، لا أريد للآخرين أن ينظروا إلينا

بعطـــف، علينا أن نظهر أنفسنا أقوياء، فنحن كذلك بالفعل، وإن كانـــت قد مرت بنا تلك المحنة، فإن كل الشعوب قد مرت بمحن أشـــد فظاعة، لكنها تجاوزتها، وانطلقت، ونحن سوف نخرج منها أشد قوة.

- وما تراه فخامتكم الآن، ما الذي يمكن عمله؟

• سوف أنتهز أقرب فرصة، يتم فيها عقد أي اجتماع دولي، وأشـــارك فـــيه، إن لقـــاءاتي بالزعماء سوف تساعد في تجاوز تلك المقاطعة غير المبررة، وسوف أستطيع وقتها كسر العزلة، ان علينا الآن وفي المـــرحلة الأولى أن نخـــرج من نفق المرض الذي يهدد بتحويل الشعب إلى أصحاب عاهات، وهو ما يمكن أن يهدد مسيرتنا، ويمنع طموحات وطننا العزيز من الانطلاق.

- لكنكم تدركون أن المخزون الاستراتيجي بدأ في النفاذ، وان الأمر يحتاج إلى تحرك عاجل لدى الدول التي تمدنا بما نحتاج إليه.

- أعـــرف، وأعرف أكثر ان هذا الشعب الخامل خذلني للمرة الثانـــية، فلم تكد الحضانة تعطي بعض الثمار، وما كدنا ننتهي من المـــرحلة الأولى مـــن إعادة تأهيل الشعب، وتقويم مساره، حتى جاء الوباء، ليعطل زحف الوطن إلى العلا، ويضع عقبات في طريق المسيرة المباركة، لكن هيهات، إنكم وهذا الشعب بل وجميع شعوب العالم، تعـــرفون أن الزعيم ليس يعترف بالمستحيل ذاته، تلك عثرة صغيرة، سوف نتجاوزها، وننطلق، أليس كذلك؟

- كـــذلك يـــا مـــولانا بالفعل، نحن قادرون على التحدي والـــصمود مـــدى العمـــر، إنهم لا يعرفون عزيمتنا، ولذلك فسوف يفاجـــأون عـــندما نخرج من تلك العثرة المؤقتة وننطلق إلى الأعالي، بفضلكم.

انفـض الاجـتماع، لكن فخامته كان قد وصل إلى قناعة بأن عليـه أن يـستدعي حكام الشطائر، ومع كل منهم أمهاتهم اللواتي يقمن عمليا بدور الأوصياء، عليه أن يناقش أمر الوطن، والمستجدات التي باتت تشكل هاجساً مقلقاً له، في لقاء عائلي أولاً، قبل أن ينتقل فـيما بعـد إلى اجتماع موسّع، سوف يشارك فيه أعضاء الهيئات الاستشارية الأربع التي تقدم النصح والإرشاد، وتقوم في الوقت نفسه بمتابعة عملية تنفيذ قراراته في كل جزء من أجزاء وطنه.

لم يكن في اللقاء الأول متحمساً لإذاعة أي إعلان، يشير إلى أن الأبناء سوف يرتقون إلى مستوى المسؤولية، لكنه في النهاية رأى أن حالـة الوطن والمنعطف التاريخي الذي يمر به تتطلب ذلك، فقرر أن تنـشر وسـائل الإعلام القومية خبراً عن الاجتماع الطارىء له مع حكـام الولايات، يشير إلى أنه تم تدارس كل ما يخص الوطن وهموم المواطـنين، وأنه أسفر عن قرارات مصيرية، سوف تغيّر مجرى تاريخ الأمة، ان لم يكن تاريخ البشرية أجمع.

ذلـك الشكل كان مطلوباً فهو يقدم رسالة إلى الداخل، يرى الـزعيم أنها ضرورية، وتساهم في الايحاء، بأن هؤلاء الأطفال أيضاً، قـد أصبحوا حكاماً مثل بقية الحكام، وأنهم قادرون رغم أعمارهم الصغيرة على مناقشة كافة الأمور التي تهم الوطن، وبل واتخاذ قرارات مصيرية أيضاً.

وفي الوقت الذي انبرت فيه كل واحدة من الأمهات الحاضرات في كيل الاتهامات للأخرى بالسعي للاستحواذ على النصيب الأكبر مـن المزايا، وهو ما مهد الطريق لهن وسط صمت الزعيم، إلى صب الانتقادات اللاذعة ودونما تنسيق عليه هو ذاته، ما دفعه إلى الاسراع بفـض الاجـتماع، وطرد الحكام مع أمهاتهن إلى خارج القاعة، ثم

العدول عن قرار كان سيدعوهم بموجبه إلى المشاركة في اجتماع موسع مع الهيئات الاستشارية الأربع.

أبلغ هؤلاء ما لم يستطع أن يقوله إلى الحكام وأماتهم، أمرهم باستحداث ثقب في كل جهة من جهات القبعة يسمح للشمس بالدخول للوطن في ساعة محددة، قبل أن تعود مجدداً لتغلقها بقية اليوم.

لانقاش، ولا استفسار، فقط تطبيق ما يقول، وحتى دون علم الحكام الصغار وأمهاتهن اللواتي لا يلتفتن كثيراً لخزعبلاته التي تتغير كل ساعة بتغير المزاج، كان الهم الأساسي هو الحصول على أقصى ما تستطيع الواحدة منهن اقتناصه من كعكة الوطن، أما الأشياء الأخرى فهي متروكة بكاملها لأوصياء الحكم، الذين يفضّل الزعيم إطلاق لقب المستشارين عليهم، والذين يعتبرهم عيونه على الوطن، وعلى من يتحرك في إطاره، وفي مقابل ضمان الولاء الكامل، كان يبسط قبضته بين الحين والآخر ليغدق عليهم من عرق الشعب.

بات الكساح شغله الشاغل، هاجسه الذي يسعى لإيجاد وسيلة تقضي عليه، لن تنفعه ما تبقى من دورات الحديقة الرئاسية هذه المرة، تلك التي كان يلجأ إليها كلما داهمته فكرة واحتاج إلى بلورتها، أو وقع في مأزق، نتيجة لتسرعه، وهوسه بالمفاجآت.

هذه المرة كان عليه أن يفعل ما فعل، أن يستمع إلى الأطباء الذين يتابعون حالة الشعب، ويقدمون في كل يوم تقارير عن صحته، وعن النجاح الذي تحققه الحضانة، كان يستبعد من ذهنه حقيقة لجوئهم إلى تضخيم النتائج، اللعب بالألفاظ، لإرضاء غروره وهوسه بتحقيق نتائج جيدة لكل ما يتحمس له، وهو ما أوصل الأمور إلى حافة مأساة أصابت في النهاية الوطن، ووضعت زعيمه في مأزق.

لم يكـــن يريد أن يسمع إلا ما يروق له، وكان على هؤلاء الذين وقعوا بين قطبـــي الرحى، أما اختيار الفوز بذهب المعز، أو لخـــضوع للجانـــب الأكثر إظلاماً، حيث ينتظرهم سيف الحاكم الباطش.

لكن المأزق سرعان ما ازداد، إذ إن الخوف من إعطاء الصورة الحقيقـــية للحـــاكم، إبلاغه بما يجري في الواقع، فاقم الأمر مع مرور الأيام، حتى أن القائد ظل سادراً في الخديعة، يعاقر أوهاماً صورت له الفـــشل إنجـــازات لم يشهد الدهر مثيلاً لها، فيما كان الرعب يلجم مستـــشاريه، يـــدفعهم لتعليق الآمال على مرورالوقت، وهو الرهان الذي كان يتجه نحو الخسران، بتوالي انضمام أعداد جديدة إلى قائمة المقعدين.

وعلى الرغم من أنه، أراد لتلك المرحلة أن تمر في هدوء، ليعالج المـــأزق دون إعطاء أعداء راهنوا على فشل مشروعه، فرصة للشماتة إلا أنـــه بات يكتشف أن المحيطين به يضللونه، يخبئون عنه ما يجرى، ويعطونه بدلاً من الحقائق الأليمة نتائج وردية.

عـــندئذ بـــات قـــرار الاستغناء عنهم جاهزاً، بانتظار الوقت المناسب، تماماً كما كان يرى أن هناك ضرورة لمعاقبة الأوغاد الذين خدعوه، والذين لا يجب تركهم ينعمون بما فعلوا.

لم يخطـــر على باله في تلك الأيام، إن الخوف الذي أنـــزله في قلـــوب شعبه، كان السبب، لم يقم بمراجعة النفس ليعرف أن طغيانه كان وراء التباري في إظهار النفاق، والسعي المحموم لاسترضائه، بعد أن بـــات الوطن بجميع من فيه يدور حول رجل واحد، يأتمر بأمره، ويرضى برضائه، يفكر بالطريقة التي رسمها له، ويمارس تفاصيل حياته وفق المسار المحدد مسبقاً.

وعـــندما ألقى المأزق بنفسه على البلاد والعباد، وبعد أن وصل الأمـــر إلى حد الخطورة، وجد الزعيم نفسه أمام ساعة الحقيقة، كان عليه أن يلجأ لهؤلاء الجبناء، لأنه على الرغم من ثقته الزائدة في نفسه، ليس يستطيع أن يتعامل مع وباء اجتاح الشعب، ويواصل زحفه على بيت الحكم.

كان عليه أن يبتلع طعم الحنظل، أن يلجأ إلى من لم يعد يثق في رجاحة تفكيرهم، على الرغم من وصوله إلى درجة التشكك في مدى مـــصداقية مـــا قدمـــوه مـــن تقارير، ومنها تلك التي نصحوه فيها باســـتحداث فتحات في قبعة الوطن تسمح بتسلل الشمس، بل إنه أيضاً بات متشككاً في جدوى ذلك، غير أنه وهو المهاب، السادر في التصلب، محقق المعجزات ومبدع الخوارق، هذا الذي لم تلد مثله أمٌ في الـــبلاد، هـــا هو الآن يجد نفسه خالي الوفاض، من أي خيارات مغايرة.

(12)

كان البشر في ذلك الوطن، الذي هو هبة من هبات المفدى قد باتوا يوقنون أن ما حلّ بهم راجع إلى عدم رضا الرجل المبجل عنهم، باتوا يسترجعون ما قاموا بعمله طيلة السنوات الماضية، ما اقترفوه من نوايا، وما مرت في أذهانهم من أفكار هي في الأصل رجس من عمل الـــشيطان، وتحريض شائن منه للبشر على اقتراف معصية الشك في نوايا الحاكم.

لم يجـــدوا في الحال الذي أصبحوا عليه اختلافاً كبيراً، سوى في القـــيد الـــذي أخذ يكبّل تحركاتهم، بعد أن بات عليهم الانتقال من مكان إلى آخر فوق كراسي متحركة، الأمر الذي أحدث بتوالي عدد

المـــصابين أزمـــة كبرى، إذ تناقص مخزون الوطن الاستراتيجي من الكراسي ذات التجهيز الخاص، حتى بات هناك الكثير من المقعدين لا يجـــدون مـــا يتحـــركون به، قرروا رفع أصواقم ولو على استحياء ليسمعها من يجلسون على كراسي الحكم في الولايات الأربع، ما دام المـــسؤولون فـــيها لم يتحركوا بالشكل المأمول، غير أهم في النهاية تراجعوا، خشية أن يصب الزعيم غضبه عليهم.

ومـــع انضمام أعضاء جدد إلى مقعدي الشعب، باتت الأزمة تستحكم، حتى لم يعد هناك مفر من التعامل معها بالسرعة المطلوبة، ما دفع المبجل إلى إصدار أوامر بضرورة تصنيع الأجهزة التي تحتاجها البلاد على الفور في الورش المحلية، غير أن نوبة شجاعة نادرة، دفعت وزيـــر الـــصناعة إلى إبلاغه بصعوبة تنفيذ ذلك بواسطة شعب يعاني معظمه من الكساح، فمن غير المعقول أن يقدر هؤلاء الجالسون فوق كراســـي متحركة على تحقيق رغبته السامية، ومنذ ذلك اليوم لاحظ الجمـــيع أن صورة الوزير اختفت، وأن اسمه لم يعد مطروحاً، كأنه اعتباراً من ذلك اليوم، لم يعد كائناً يدبّ في الحياة.

أســـقط في يـــد الزعيم، أدرك أن الشعب الذي راهن عليه، لا يـــستطيع تـــصنيع كرســـي متحرك واحد، فكيف ينتظر منه فعل المـــستحيل؟ قام والحال كهذا، باستدعاء وزير التجارة، الذي عندما جـــاء مهرولاً، دعاه إلى المسارعة باستيراد الأجهزة اللازمة في أسرع وقت ممكن، قبل أن يجد نفسه في النهاية قائداً لشعب في معظمه، من المقعدين.

لم يـــستطع الوزيـــر التلفظ بكلمة واحدة، كان ما صدر أمراً واجـــب التنفيذ، فما الذي يمكنه عمله، في وضع كهذا وجدت فيه البلاد نفسها، غير أنه ما كاد يخطو خارج المكتب الرئاسي، حتى عاد

لاهـــثاً مـــستأذناً، وقد طرأت في ذهنه فكرة أراد تحذير الزعيم من مغبّتها، كان في الواقع يريد أن ينجو بنفسه، وأن يعيد إلقاء الكرة في ملعـــب شخص آخر هو وزير الصناعة الجديد الذي تمّ تكليفه خلفاً للمأســـوف علـــيه الذي ذهب في مهمة رسمية لاستكشاف ما وراء الشمس، وما أن تمّ السماح له حتى راح يبلّغ الزعيم بمخاوفه:

– يا سيدي لو أننا اتصلنا بالدول الموردة للكراسي وطلبنا منها تلـــك الكمية، فإنها سوف تتيقن من أن الوطن أصيب بوباء، عندئذ ســـترتفع درجـــة الشائعات، ستصبح في نظرهم مؤكدة وهذا ما لن يكون في صالح مساعيكم لإعادة دمج الوطن في العالم الخارجي.

• نحن في مشكلة ويجب أن نتصرف بالسرعة الكافية، لا أريد أن أرى الـــشعب كلـــه مـــشلولاً، على الأقل دعوه يسير ولو على كراسي متحركة.

– إن استيرادها سوف يؤثر على سمعتنا الخارجية، سوف يجعلنا في النهاية بلداً يتجنّب الآخرون التعامل معه، سوف نعزل تماماً يا مولاي.

• لا حـــلّ إلا في اعتمادنا على أنفسنا، تلك هي الطريقة التي يمكن بها تجنّب الإساءة إلى بلدنا في الخارج ونستطيع بها إبعاد ظنون الذين يتربصون، ويريدون لنا السوء، ولكن من تريد أن نعتمد عليهم مقعـــدون، مـــا الذي يمكن أن يقدمه مقعد في معركة التحدي التي يخوضها الوطن؟

– الكـــثير يـــا مـــولاي، إن المعاقين لدينا مصابون في عظام الأرجل، لكن الأيدي صحيحة والأذهان لم يصبها السقم، ونحن في معـــركة الـــتحدي مـــن أجل الاكتفاء الذاتي ووقف الاعتماد على منتجات الغير لن نحتاج إلا ليدين ولعقول مدركة، ويمكن أن نشحذ الهمم لدى هؤلاء برفع الروح المعنوية ومنحهم الثقة في النفس.

أصـــاب الزعيم الضجر، وصل إلى درجة اليأس من الوزراء، أحـــدهم يتحجج بأن الوطن سوف يصبح علكة في فم الحكومات الأخرى، لمجرد أن يطلب من الدول المصنعة مقاعد إضافية، والآخر يتحجج بأن الشعب لا يمكنه تصنيع احتياجاته بنفسه، أضمر لوزير الـــتجارة قراراً صاعقاً، غير أنه عاد عن التنفيذ، فليس من المعقول أن يقـــوم بإنـــــزال العقاب على من نجوا حتى الآن من الكساح، قرّر إعطـــاء فرصة أخيرة، فقد رأى أن عليه التمهل في تلك الظروف العصيبة في اتخاذ قرارات حادة، خصوصاً وأنه بات في حاجة ماسة إلى جهود مساعديه، خصوصاً في ظروف وطن بائس كهذا ونادر الكفاءات.

خذلـــته النتائج التي تحققت في الواقع من فكرة الحضانة، على الـــرغم من التقارير التي ظلت ترفع له طيلة الوقت، تخبره عن التقدم الذي يتمّ إحرازه في كل ساعة، وتشير إلى أن ما تحقق يفوق بمراحل جمـــيع الـــتوقعات، تقارير وراء تقارير، جعلت نشوة الفرح تصيبه بغـــرور، وهـــا هو في نهاية الأمر يكتشف حجم الكذب الذي نثرته الحاشـــية، ها هو يواجه واقعه المرير، وعليه أن يتعامل معه، فهو في الـــنهاية المسؤول الأول عن الوطن، ليس أمام هذا الشعب المستكين، الـــذي لن يخرج من بين جنباته في أي يوم من يسائله، بل من الدول الـــتي ترصـــد مـــا يدور في داخل سجنه الكبير الذي بسببه قرّر هو مقاطعتهم، قبل أن يعود مجدداً طالباً الود.

اتجـــه أبـــناء الوطن البررة فوق مقاعدهم المتحركة، إلى المكان الـــذي ســـوف تتـــسلل منه خيوط الشمس، يحدوهم الأمل في نيل جـــرعات منها، غير أن ما تمّ تحديداً لهم أخذ في التناقص مع ازدياد أعداد المصابين، وتدافعهم باتجاه الثقب الشمسي.

لكـــن الأزمـــة الجديدة حلّت، ففي الوقت الذي تكاثرت فيه أعـــداد الـــذين يسقطون ضحايا لأمراض هشاشة العظام، تناقصت أعداد الكراسي بشكل حاد، حتى أن تلك التي تنفصل عنها إطاراتها، يجـــد أصـــحابها صـــعوبة في إعادتها إلى حالتها الأولى، تصاعدت المطالـــبات، وانهالت أوراق التوسل إلى الوزارات المعنية تطلب مزيداً من الكراسي، وقطع غيار لها، ظلّ الوطن المعطاء في حال عجز تام، لأول مـــرة تصيب الزعيم مثل تلك الحالة التي كادت تعطل حواسه عـــن استيعاب خطورة الموقف، ولأول مرة أيضاً يجد الشعب البائس نفسه يعيش المأساة وحيداً، دون أن يرى المهيب كما في كل مرة من أوقـــات التحدي، طالاً من شاشة التلفاز يجلجل صوته عبر موجات أثير الإذاعة الوطنية، مؤكداً على جدارة الشعب الكسيح بالحياة.

بات المواطنون المقعدون ينظرون إلى بعضهم، تعلوهم خيبة أمل كبيرة، في كل ما يدور، حتى وإن فضلوا كما في كل مرة، الاكتفاء بالنظرات.

كـــان لسان حالهم يتساءل: إذا لم تكن الدولة بكافة أجهزتها، بعبقـــرية زعـــيمها، غـــير قادرة على الصمود في معركة الكراسي المتحـــركة، فأين ذهبت إذن شعارات التحدي للأعداء، وردّ كيدهم إلى نحورهم؟

وفيما أخذوا بعيونهم يتساءلون، كان شعور حامي الحمى يتزايد كل لحظة بأنه أصبح في ورطة لن يخرجه منها إلا قرارات صعبة، عليه أن يـــبدأ دون إبطاء، فالوقت أصبح يداهمه، والأمور كلما تأخرت، تـــزداد تفاقماً، بات عليه أن يتحرك وحده، أن يفكر دون الاستعانة بالوزراء المرتجفين، الذين يقدمون حقناً مسكّنة في كل مرة يحتاج إلى مـــشورتهم، ســـقط من دائرة الثقة وزير الصحة، ومن بعده الصناعة

فالـــتجارة، كلهم خدعوه، ولا يوجد لديهم ما يقدمونه، ليسوا من أصـــحاب القـــرارات، هم في النهاية مثل كل وزرائه مجرد موظفين عـــاديين، لو استبدلهم ببعض الكتبة في أجهزة الدولة فلن يخسر شيئاً، غير أنه في هذا الوقت الصعب لا يريد لأحد من حاشيته أن يستشعر نـــواياه، لـــيدع الأمور تسير على النمط الحالي، على أن يكون لكل زمان مقال.

ومـــع تـــزايد أعـــداد المطالبات التي راحت تستعطفه، تدعوه للإسراع إلى إيجاد حلٍّ لمشكلة الكراسي المتحركة، قرّر أن الوقت قد حان ليشارك جميع أبناء الوطن في تحمّل أعباء المرحلة التاريخية، كي يشعر كل مواطن بما تواجهه البلاد من تحديات ويشارك في التصدي لها.

عندئذ أصدر قراراً بفرض ضرائب باهظة على الواردات، وعلى الـــرغم مـــن أنه لا أحد في العالم بات يوافق على تصدير أي سلعة لـــوطن موبـــوء، فـــإن هذا القرار لم يجد اهتماماً، غير أن الضربات القاصـــمة للمواطنين حدثت عندما قرّر قدر الأمة رفع أسعار السلع الاستهلاكية، بحجة أن الإيرادات المتحصلة من تلك الزيادات سوف تصب في صالح رفع كفاءة الموطنين، ودعم المجهود الوطني.

وفي خطوة استغربها المواطنين الصالحون أصدر أبو الوطن قراراً تاريخياً:

"تطبـــيقاً للعدالـــة والمساواة وعملاً بضرورة تعميق الإحساس بـــروح الجماعة، فإن على جميع أصحاب الكراسي المتحركة الصالحة للعمـــل استضافة إخوانهم من المواطنين الذين أقعدهم المرض العدو، فـــوق كراسيهم، على أن يتم منع استغلال الأوضاع الطارئة التي يمر بهـــا الـــوطن في تأجير أجزاء من تلك الكراسي، وأن تكون الخدمة

مجانـــية خالـــصة، وسوف يقوم معالي الأستاذ الدكتور وزير الصحة بالنـــيابة عن الزعيم المحبوب المفدى بتخصيص تلك الحصص في قرار سوف يصدر في وقت لاحق".

اســتغرب المواطـــنون الذين اختاروا قبل سنوات وظيفة الشلل الاختـــياري لألسنتهم، أن يصدر قرار مثل هذا من أبو الوطن، فقد اعتـــبروا في وقـــت مـــن الأوقات ووفقاً لما استنتجوه من خطاباته وكـــتاباته التي حفظوها عن ظهر قلب، أن الكراسي المتحركة مثلها مـــثل الغذاء والمحاليل الطبية والحفاظات والملابس المعقمة والشراب، باتت حقاً مكتسباً، يجب المحافظة عليه مثل المال والعرض والولد.

لم يـــصدقوا أن يـــصدر قـــرار كهذا، تشككوا في الأمر منذ اللحظـــات الأولى لإذاعته، غير أنه بتوالي إلحاح وسائل الإعلام على تكـــرار بثّه باعتباره بياناً هاماً، مترافقاً مع جملة القرارات الاقتصادية والتعـــبوية والـــثورية، تأكد لهم بما لا يدع مجالاً للشك، أنه صادر بالفعل من حبيبهم البديع، وأن عليهم السمع والطاعة، فلعل في ذلك حكمة لا يعلمونها هم. يعرفها الحصافة وبعد النظر.

بـــات الوطن منذ اللحظة التاريخية، التي صدر فيها هذا القرار، يسير على إطارين كبيرين، غير أنه بعد صدور توابعه، تلك التي تمّ بها تحديد من يحق لهم التشارك في الكراسي المتحركة، أصبح الوطن أكثر بهجة، إذ أصبح على كل مواطن مقعد أن يحمل على ركبتيه الهشتين، كـــسيحاً آخر، وعليهما الاثنين، أن يواصلا كل يوم مسيرة الزحف إلى حيث تهبط الشمس من صنبورها.

بات الوطن أروع مما كان، وازداد الجميع ثقة في إلهام الزعيم وقدرتـــه الفائقـــة علـــى التفكير الصائب لصالح الوطن وأبنائه، ومـــستقبل أجياله القادمة، غير أن المسيرة ازدادت تعقيداً مع عجز

السلطات عن إيجاد حلول ناجحة لحالة أمة باتت تتطلع إلى الشمس بنظرات كسيرة، فيما الآلام المبرّحة تكاد تهشم العظام، إذ كان البشر ينطلقون للعلاج بعد أن يكتووا في الطريق إليها بآلام هائلة، لكن مسيرة كتلك أرادها الزعيم، وتصورها حلاً لمشكلات الوطن، سرعان ما واجهت عقبة أخرى، نتجت هذه المرة عن زيادة الأثقال، وانعدام العدالة في توزيع الأجساد المشلولة على الكراسي، فما أن كاد الحامل والمحمول يطلق صرخات الأنين، حتى راحت الكراسي تتلوى، انفصلت إطاراتها وهرولت راكضة بعيداً إلى جهات الطرق، تاركة المرضى يطلقون صرخات، ليس لها أن تسمع أحد في وطن، كل من يعيش فيه اختار الصراخ المكتوم، والعيش في الدنيا مقطوع اللسان.

(13)

باتت كل الاحتمالات مفتوحة، غير أنها في النهاية كانت بحاجة إلى تضحية مؤلمة، ولأن الزعيم بطبيعة تكوينه لم يكن يرضخ للاستسلام، فإن المعاندة ظلت هي الطاغية في معالجته لتلك الحالة.

لو أنه كان في وضع أقل خطورة مما وجد نفسه فيه، لاتخذ قراراً أولياً يقضي بتصفية كل من حوله من أفراد الحاشية، هؤلاء المرتجفين، الذين يصبون كل الحلول في اتجاه ما يرضيه، طمعاً في مكاسب أو خشية غضب، غير أن ما قصد به مرضاة الزعيم، انقلب في النهاية وبالاً عليه وعلى شعبه وعلى النظام بأكمله.

انطلق، مع تزايد أعداد الذين راحوا ينضمون يومياً إلى قوائم المصابين، يبحث في جميع دفاتره عن ما يخلصه من وضع صعب، لم يكن قد مرّ بخاطره يوماً أنه سوف يواجهه، انطلق مرات عدة إلى

حديقته الرئاسية، راح يذرع جنباتها جيئة وذهاباً، اجتمع بمستشاريه عشرات المرات، سهر الليالي كما كان معتاداً في بدايات الحكم، استنفر حواسه، أطلق ما كان كامناً في تلافيفها، لكنه في النهاية وقف عاجزاً عن إيجاد حلول، تخرجه من هذا المأزق بأقل الخسائر، وكلما حاول الهروب، عاد مجدداً إلى الحل شديد المرارة الذي راح يطرأ على الذهن مهما سعى إلى إبعاده، قرّر هذه المرة التفكير جدياً في وقف المشروع الذي طالما راهن عليه، وحشد له موارد البلاد، وضع لأجله البشر والكائنات التي تضمها بلاده، في حالة طوارئ قصوى، حيث لا عمل ولا تفكير ولا مهمة للجميع سوى التفرغ الكامل لأجل الحضانة.

وفيما أخذ الضباب يتكاثف أمام عينيه، وتزداد الظنون بالتدريج مع قراءته للتقارير الواصلة بانتظام، أخذت عيناه ترشق نظراتها على الأرقام التي كانت في الغالب توضع في المنتصف بعد الديباجة المعتادة، تلخص له ما ذكرته المقدمة الطويلة، التي تستهدف في الأصل تهيئته نفسياً قبل سرد الأخبار السيئة.

كانت البيانات دليلاً على أن المشروع الكبير آخذ في الأفول، وأن عليه أن يختار بين طريقين، إما الاستمرار في تجاهل ما فيها من إشارات مخيفة، وهو ما سوف يحول المأساة إلى كارثة وطنية هائلة تأكل الأخضر واليابس وتقضي على الشعب، ثم تنصبه بعد ذلك سلطاناً على دولة من الخراب، أو أن يحتكم إلى لغة العقل التي لم يعد أمامه من مفر سوى إمعان النظر فيها، ثم اتخاذ القرار الشجاع الذي سبق أن اتخذه قادة سارت الرياح بعكس ما كانت سفائنهم تشتهي، سواء كان الوصول إلى النهاية، عبر سلسلة أخطاء فادحة ارتكبوها، أو بفعل متغيرات خارجية، وظروف محلية.

كـــان إذن قـــد وصل إلى ساعة مواجهة الموقف، وهو ما بدأ بالفعل يميل باتجاهه بعد مكابرة.

لم يقتـــصر الأمر عند حدود الأرقام المخيفة التي كانت تصدر علـــى شـــكل تقاريـــر، بل إن هناك شروطاً راحت تفرضها الدول المحـــيطة، كـــي تستجيب لدعوات ممثليه الذين أرسلهم، لفك عزلة مـــضروبة علـــى الوطن، ومحاولة استيراد المواد الغذائية وقطع الغيار والمعدات المطلوبة لتسيير الحياة في بلاده.

لكـــن الأمر حتى لم يقتصر على الدول الشقيقة ودول الجيران، فقد عاد إليه موفدوه من دول العالم الكبرى برسائل تحذير، تفيد بأن صبرهم طال على هلوساته، وتمدده في حال استمرار إغلاق الحدود، بإحالة ملف تلك القضية إلى مجلس الأمن ليصدر قراراً ينبذ فيه دولته، ثم استصدار قرار يتيح للمجتمع الدولي التدخل لتطبيق ما ينص عليه ميـــثاق حقـــوق الإنـــسان، وإنهاء الاحتجاز القسري الذي يقوم به لشعبه، وإعادة فتح البلاد أمام الجميع من مختلف الأجناس والأعراق والجنسيات.

بـــات الخطر، موزعاً على عدة جبهات، طلب الزعيم اجتماعاً للمجـــالس الاستـــشارية العلـــيا، تلك التي كانت تدير من الناحية العملية، تفاصيل الأمور في الولايات الأربع بعد الرجوع إليه، وضع أمامهم آخر التطورات، أبلغهم أنه سوف يتعايش مع الوضع القائم، وبمـــا تتطلـــبه المـــرحلة الحالية، قال للمرة الأولى وبنبرة ران عليها الانكسار، إن المواقف الكبيرة تحتاج إلى خطوات جريئة، ولذلك فإن علـــيهم اعتباراً من انفضاض ذلك الاجتماع ولمدة أسبوع أن يقوموا بالتمهـــيد للقـــرار الذي سيعلنه وسيقول فيه إنه استجاب للنداءات الدولـــية الـــتي تواصلت تناشده فتح أبواب وطنه أمام أبناء الشعوب

الشقيقة والصديقة المولعين بترابها البديع، والمعجبين بحرارة الود التي يحملها شعبها، والهائمين بمناطقها السياحية ومناظرها الخلابة، وشمسها الذهبية، وبحالة الأمان التي يستشعرون بها في كنف حامي الحمى المبجل.

قال إن إيجاد مخرج مناسب أمام الشعب، وأمام العالم لن يكون أمراً صعباً، لكنه لا يفضّل أن يأتي الأمر بغتة، لذلك فإن المهمة الأساسية الموكلة لهم هي العمل كلٍّ في المجال الذي يخصه، للبدء بحملة ضخمة في المدارس والجامعات، الجمعيات، ووسائل الإعلام المقروءة منها والمسموعة والمرئية، حملة لا تهدأ ولا تتوقف قبل انتهاء الأسبوع، الذي في نهايته سوف يخرج هو نفسه، بشحمه ولحمه على الناس، كما خرج في أول مرة، سيلقي بياناً هاماً كما هي عادة كل ملهم، يعلن فيه عن تفضّله بقبول المناشدات، وأنه لن ينتظر اللحظة التي ستأتي فيها وفود من عدة شعوب للوقوف عند بوابات الوطن التماساً لتقبيل يده الطاهرة، من أجل أن يوافق.

هذه المرة كان على الشعب الذي بات كسيحاً، أن يستمع إلى ما تردده جوقة الزعيم دون مبالاة.

في المرة الأولى التي راح القائد يستخدمهم فيها لترويج فكرة الحضانة، كانوا بلا عيون ترى، ولا لسان يحتج، هذه المرة باتوا على كراسيهم المتحركة يستمعون لما يجري، بعد أن فقدوا حتى الرغبة في مواصلة الحياة، نفوس مقعدة، وقلوب أكثر هشاشة من العظام الواهنة، كان حجم الانكسار المتدلي من الجفون أكبر من حدود البوح، ولذلك فإن الدعوة التي راحت في اتجاه مغاير هذه المرة، لم تكن تعنيهم لا من قريب ولا من بعيد، كانت تخص زعيماً اكتشفوا، للمرة الأولى منذ تجرعوا كؤوساً مريرة من سابقين له، وملهمين أيضاً

مـــثله، أهم في نهاية المطاف، مجرد خيط ضئيل في منتصف الشمعة، مطلـــوب منه أن يتحمل أكثر ويشع، كي يرضى الزعماء عنه، بضع قطـــرات من الزفت، ليس لها من وظيفة سوى التجمع لتعبيد الطريق الذي سيمر من فوقه المبجل ويعلو، لكن، على الرغم من قيامهم بكل ما طلب منهم في عهود عدة، بل وأكثر من المطلوب، فإن مصيرهم في الـــنهاية، وضع في يد حاكم أهوج، استخدمهم وقوداً في البداية، وهـــا هو يعود مجدداً لنفس اللعبة، بعد أن لم يتبق في روحهم مكان شاغر لمزيد من الندوب.

نفـــس الوقائـــع التي عايشوها قبل سنوات، هي التي تتكرر في أرجـــاء الـــبلاد، نفس السيناريو، وإن اختلفت الكلمات هذه المرة وتبدلت الشعارات، بات عليهم تجرّع ما تردده الحملات الموجهة في منتصف الوقت الفاصل بين جرعة الدواء ووجبة الطعام، وشيئاً فشيئاً تقلـــصت دروس العـــادات الحميدة، وتقلصت معها الساعات التي كانت تخصص يومياً لتعليم الشعب كيف يكون مهذباً ولبقاً وأريباً، كيف يجمع بين الطاعة الواجبة لولي أمرهم، والرضا بالقليل ثم انتظار الجائزة الأخرى، القادمة على وجه اليقين بعد الممات.

وفـــيما توقفت نهائياً الدروس الخاصة بتنمية العضلات وتنشيط الـــذهن وتحفيـــز حاسة التفكير، تلك التي كانت تقدم لأمة الخدج بالتلازم مع التدريب القتالي، باتت الحضانة أشبه بالمصنع الذي تعطل فجأة عن العمل بسبب عطل شديد الاستعصاء، انهارت أحلام الزعيم فجـــأة، وأخـــذت الأحـــداث تزيد من شعوره بالورطة، قرّر أن لا يـــتوقف عـــن الشحن المعنوي وإن بجرعات أقل، إذ كان يدرك أن شـــعباً لن يكون محتشداً وراء مشروع كبير، سوف يتجه مباشرة إلى الـــتفكير في التمرد على الحاكم، راح يقرأ في التجارب التي مرت في

العـــالم، أدرك أنه لا يوجد شعب في أية لحظة تاريخية، كان مضمون الجانب، أيقن أن حكاماً اعتقدوا أنهم تمكنوا من وضع شعوبهم داخل لفافـــة، ثم ألقـــوا بها في قعر جيوب بزاقم العسكرية، قد صحوا من الغفوة على حقائق مريرة، أطاحت بهم في النهاية وبأحلامهم وألقت بها في صناديق القمامة.

كانت لديه ثمة قناعة بأن تلك الحوادث لا تنطبق على حالته مع شـــعب كالذي يقوده، مختلف تماماً عن بقية الشعوب، مستكين إلى درجـــة أثـــارت اشمئزازه هو نفسه في بدايات صعوده، قانع بكل ما يلقـــى إليه، حتى في اللحظات التي لا تتحملها أشد الشعوب صبراً، مطـــواعاً وليناً وخجولاً، مطأطئ الرأس حتى أن قرص الشمس الذي كان يسطع يوماً في سماء الوطن، لم يكن قادراً على ملامسة شوارب رجاله.

ومع أن الوقت الذي ثارت فيه تلك الهواجس في ذهن الزعيم، تـــزامنت مرحلة اجتياح الوباء لأجساد المواطنين، فإنه رأى أيضاً أن الـــوقت يـــسير في صالحه، فالأبناء الحكام مع مرور السنوات تزداد خبرتهم، وسوف يأتي في النهاية، ذلك الزمن الذي يتحول فيه هؤلاء الـــصغار، الـــذين يحتاجون إلى من يوجههم للمكان المناسب لقضاء الحاجـــة، إلى الاعـــتماد علـــى أنفسهم، والاستغناء عن جيوش من مستـــشارين هـــم من الناحية العملية يسيّرون كافة شؤون الولايات الأربع، وإن كان ذلك الأمر يتمّ تحت أسماء المساخيط، ورعاية الأب القائد، ووفقاً لتوجيهاته.

لم تداخلـــه شكوك، في عدم إمكانية تحوّل الشعب الخامل ذات يـــوم، ولو بعد أن يتمّ شفاؤه، إلى الثورة على الحاكم، لا عليه هو، المحبوب الذي تحمد سجاياه طيلة ساعات اليوم، ولا في الزمن الذي

سيتحول فيه الأبناء إلى ورثة، وفق النظام الذي كان قد حدده في الوصية، والذي سيتم بموجبه تداول سلطة البلاد، بين الأبناء، وفقاً لتدوير سيتيح في الوقت نفسه صعود أبناء جدد إلى سدة حكم الولايات، كما يمكّن في الوقت ذاته من إعادة تقسيم الوطن، وتوسيعه، بل وإضافة ولايات جديدة، كلما كان هناك ضرورة توجبها زيادة المنحدرين من صلب الزعيم، ويصبح من الضروري، أن يتمّ توزيع أجزاء الوطن بالقسطاس عليهم.

كان أمر الوطن لا يسبب له أية هواجس، فهو على قناعة بأن شعباً كهذا لن يخرج من أصلابه يوماً من يسعى للاستيلاء على السلطة، كما أنه موقن من هيام الشعب به، ومن أنه لن يسمح لأي من كان بارتكاب حماقة كتلك، أو بأي تشكيك ولو همساً في مدى حرص الزعيم على الوطن، وتصور أن هذه البلاد يمكن أن تقوم لها قائمة، إذا لم تكتحل عيون شعبها كل يوم بوجه الملهم وإطلالته البهية من على شاشة التلفاز.

لا شيء كان يزعجه من الداخل، كان الأمر الذي راح يثير الهواجس لديه آتياً من هؤلاء الملاعين المتربصين له في خارج البلاد، هؤلاء الذين أغاظتهم فكرته العبقرية، ويظنون أنه في تلك البوتقة، يدرّب شعبه على القيام بالدسائس ضد الجيران، لا يعرف هؤلاء البلهاء أن رهاناته حصدت فشلاً ذريعاً، ولا يدركون أن الذي راهن على انتشاله من الخمول، قد بات قعيداً، وأن الزعيم لا يستطيع الانتصار بمثل هكذا شعب على سرب من الفئران.

أدرك بعد وقت طويل من المكابرة، أن أحلامه انتهت، وأن عليه في الخطوة التالية أن يفعل ما بوسعه لإبعاد الوباء عن مواطنيه، والعمل في الوقت ذاته على جلب الشفاء لمن افترس الوباء أجسادهم،

على الأقل فإن تلك الخطوة يجب أن تتم قبل أن يقرر الرضوخ عملياً للمطالب الخارجية، تلك التي إن نفذها، فسوف تعني فتح البلاد من جميع الجوانب، اعتباراً من رفع القبعة عن رأس الوطن، إلى إعادة فتح البوابات الحدودية، بل وحتى الوصول في مرحلة لاحقة إلى خطوة إزالة الجدار العازل مع الجيران.

كان عليه أن يخرج من هذا المأزق قبل أن يعرفه القاصي والداني، ففتح بلاده قبل جلب الشفاء، سيكون معناه أن المهيب سيصبح مصدر إضحاك للشعوب الأخرى، سوف تتبادل دول العالم النكات عليه باعتباره زعيماً كاريكاتورياً، مسخرة متعددة الجوانب، لتسلية الشعوب وقادها في أرجاء المعمورة، وستتحول أحلام اليقظة التي كثيراً ما داهمته في مكتبه الرئاسي وحديقة القصر إلى نكات من العيار الثقيل، إذ إن أمر الإمبراطورية سينكشف، سوف يفصح عنه أحد رجال الحاشية المنافقين، إذا ما أغراه أي حاكم حاقد بالمال والأمان.

سوف تهتك أسرار ما كان يدور على أرض الوطن، سيتم معرفة التدريبات التي كانت تهيئ الشعب لمعركة التحدي، وستنفضح تفاصيل الحملة التعبوية الضخمة التي اعتمدت لتحفيزه، سيرفع النقاب عن دروس التوجيه الديني المحفزة للقتال والصمود والتوسع وفداء الوطن والزعيم بالروح والدم، سيعرف الجميع بما تمّ إعداده، وبالهدف من وراء بناء الحضانة، عندها لن يستطيع الدفاع لا عن نفسه ولا عن بلاده إن وقعت في بؤرة أطماع الكبار.

لكن الزعيم أيضاً، وفي خضم ساعة الوقوف أمام الحقيقة، كان يدرك أن لا بدائل متاحة أمامه، فات الوقت الذي كان يمكن فيه التحرك لدرء الخطر القادم، منذ أن حاصرته أرقام أعداد المواطنين،

وهي تتساقط مع مطلع كل يوم في شراك المرض، كانت جبهة العدو الداخلي قد انفتحت بشدة، وهبّت معها بالتزامن، جبهة الأعداء من الخــارج، ســاعية لانتهاز فرصة لم يسبق أن كانت سانحة، إلى هذه الدرجة من قبل.

أيقن تحت ضغط التطورات المتسارعة، أن التهديد بقدر ما هو موجّه للوطن، فإنه في الأساس يقصده شخصياً، وأن هؤلاء المتربصين لن يتركوه هذه المرة دون تنازلات موجعة، إن حدثت فقد تشفع له عــندهم للــبقاء في مكانه، وفي إمداده بالدواء اللازم لعلاج الشعب الكسيح، وبالكراسي المتحركة التي ستمكن المواطنين من التوجه إلى المــيادين العامة للاستماع إلى خطبه ومشاهدة طلعته البهية، أما عدا ذلــك، مــن رفع القبعة قبل أن تنتهي المهمة التي أقيمت لأجلها، أو إعــادة فــتح الــبوابات الحدودية، أو حتى أن وصل الأمر إلى إزالة الجــدران المرتفعة، فإن تلك تفاصيل صغيرة تتضاءل أمامها مهمتان اثنتان: حماية استقرار الزعيم فوق الكرسي الرئاسي، وتوفير الكراسي المتحركة والدواء وأشعة الشمس، للشعب الذي بات يتكوّن معظمه في العهد السعيد من كبار رضع.

وفي الــوقت الذي انطلقت فيه وفود جديدة إلى مختلف شعوب العالم ممهدة الطريق للقرار التاريخي، ومحاولة الحصول على مكاسب ولو من الناحية الشكلية، يمكن بها حفظ ماء وجه الزعيم، فإن الاستعدادات كانت تجري على قدم وساق داخل حدود البلاد، مصحوبة بحملة دعاية ضــخمة وشديدة التركيز، تمهّد الأجواء لليوم الموعود الذي سيعلن فيه قــراراته القاسية، هذه المرة عليه هو وحده، بعد أن نال الشعب نصيبه بقــرارات صــدرت في وقت سابق، دافعة إياه إلى شدّ الأحزمة على البطون الخاوية، والتشارك في الكراسي المتحركة.

تــزامنت التحركات على الجبهتين الداخلية والخارجية، استنفرت الــبلاد بأكملــها، كانــت خلالها المشاركة الشعبية بأطراف العيون، والقلــوب الراجفة، وكان الزعيم يجهّز نفسه لكل الاحتمالات، اعتباراً من إعداد أكثر من طائرة خاصة له وللأسرة الكريمة، إن تطورت الأمور إلى مــا لا يحمــد عقــباه، وتهيئة المواطنين الصالحين للدفاع، بقدر ما يستطيعون، عن الوطن وزعيمه حتى آخر قطرة من دمهم رخيص الثمن، حتى لو تطلبت المعركة استخدام آخر كرسي متحرك في الوطن الصامد، معتــبراً أن ذلك هو الدليل الحقيقي للشرف الرفيع، الذي لا يسلم من الأذى في العادة، ما لم يراق على جوانبه دماء الضعفاء.

ربضت الطائرات في المطارات السرية، فيما انتظرت السيارات المــصفحة في مرآب سري على بعد خطوات من جدار الوطن، كل التجهيــزات استكملت لإنقاذ الزعيم وأسرته المبجلة إذا ما تطورت الأمــور إلى الأسوأ، أليست حمايته في حدّ ذاتها من ضرورات الأمن القومي؟ وأليست تضحيات الشعب بحياته فداء لأبــي الأمة وسيلة معتمدة للحكم على صلاح المواطن؟

شــعر المقعــدون علــى كراسيهم المتهالكة، وفي ظل ازدحام مــروري خانق، تزيد من صعوبته اكتظاظ كراسيهم على الطرقات، بــأن هــناك تحركات غير عادية، ولأول وهلة تبادلوا تحريك الشفاه وتعبيرات الوجه، غير أنهم كانوا يطرحون أسئلة، ولا يستطيعون إيجاد أجوبة عنها، كأن الوطن لم يعد هو ذلك الذي اعتادوه.

تحــركات متسارعة لبشر قليلي لم يصل إليهم الدور في قائمة المرض، يركضون يميناً ويساراً، يبحثون عن مخرج، عن ثقب يمكن أن يكــون منــسياً في الجدار العازل، يعودون منهكين في النهاية دون فائــدة، ينتحــبون على قارعة الطرق، وقد باتوا موقنين أن لا فائدة

سوى الرضوخ للأمر الواقع، ينطلقون مجدداً نحو المخازن العامة، إلى محلات بيع الكراسي المتحركة، يعودون مثل المرة السابقة محبطين، يتجهون إلى القصر الرئاسي يكتبون عرائضاً طويلة يملأونها بالدعاء بطول العمر لقائد الأمة، وفي نهايتها يكتبون سطراً واحد يستجدون منه العطف، توفير كراسي متحركة، لتساعدهم حين يصل المرض إلى أجسادهم، يردهم الحرس، يلقي بهم بعيداً، يحذرهم من عقاب صارم إن فكروا في المرة القادمة بالاقتراب.

فجأة يرى المقعدون الشوارع شبه خالية من الشرطة، يتوقعون أن الوباء وصل إلى أفرادها، استطاع هذه المرة أن يخترق الطوق الحديدي الذي يتمتعون به، ويساويهم – في الشعور بالحسرة – بالفقراء.

يبحثون بعيونهم عن أفراد الجيش النظامي، قواته المسلحة، التي ظلت دائماً مستعدة لفرم من يجرؤ على منع حنجرته من الهتاف للرجل الملهم، أو التباطؤ في تنفيذ ما يدعوهم للقيام به.

ليس هذا هو الوطن الذي اعتادوه، إنه وطن يهرول فيه الأصحاء، وينحشر مقعدوه في كراسي لا تكاد تدور إطاراتها، إلا ويتصاعد الأنين منها وممن يمتطيها، فيما وسائل إعلامه تواصل ضخ المواعظ، والدعوات للذين كبّلهم المرض، بعدم الخوف، بضرورة امتلاك قلوب صلبة، وإرادة لا تلين في مواجهة الظروف، في الوقت الذي تشير بين وقت وآخر إلى أن هناك أمور راحت تستجد في المسيرة، وتتطلب إعادة النظر في ما تمّ إنجازه حتى الآن، وتقييم الموقف وفق المعطيات المتاحة.

بات مشروع الحضانة الذي هلّل له الزعيم وجوقته في البداية، محلاً لإعادة النظر بعد الوقت الذي قطعه، وها هم البشر الذين لم

يفهموا في البداية سر الحماسة له، يسمعون بآذانهم عبارات تؤكد أن مشروع الأمة سوف تجرى له إعادة تقييم، دون أن يفهموا مجدداً ما الذي تعنيه.

عادت الوفود من الدول الكبرى، حمل القادمون رسائل محددة، الـــزعيم الذي انتظر وقتاً حتى يكتمل وصولهم، قرّر عقد اجتماع مع رئيس كل وفد على انفراد.

لم يـــصدق أذنـــيه حـــين استمع إليهم، كأنهم التقوا معاً، فالرسائل القادمة من كل دولة تكاد تتطابق، والطلبات تتشابه إلى حـــدٍّ كـــبير، لكل منها حزمة من المطالب، لو نفّذ واحد منها، لقـــضي علـــى أحلامـــه، ولدفع جيرانه إلى صبّ الاتهامات ضده بالخـــيانة والعمالـــة، لم يصدق أن يسمع ذلك بعد أن تمكّن من امـــتلاك قلـــوب الجمـــاهير، بعد هذا المشوار الذي حشدهم في المشروع الهائل، وكان على وشك قطف الثمار، ندب حظه، فلولا مداهمـــة الـــوباء، لكان لديه شعب من الأسود، يخوض بهم البحر ويجتـــرح المعجزات، وقتها لم تكن أي دولة مهما كانت، ستجرؤ على إبلاغه برسالة كالتي أبلغها له موفدوه.

كيف لتلك الدول أن تطلب منه ما طلبت؟ كيف لها أن تنسى تاريخـــه النضالي، ومبادئ ثورته المباركة؟ كيف يمكن أن يرهن عمره كلـــه لمحاربة الاستعمار والاحتلال، وهم بكل صفاقة يريدون منه أن يكـــون وكيلاً لمخططاتهم في تلك المنطقة الحساسة، البعيدة جداً عن ديـــارهم؟ ثم في الأصـــل، كيف قام هؤلاء المتضاربو المصالح بتنسيق جهودهم هكذا ضده؟ كيف اتحدت كلماتهم، وتوافقت مصالحهم، وهو الذي كان يتصور حين أرسل موفديه إليهم، أنه سوف ينجح في اللعب على التناقضات؟

(14)

ها هو يقف وجهاً لوجه أمام ساعة الحقيقة، عليه أن يتعامل مع لحظـــة شديدة التعقيد من عمر بلاد اعتبرته منقذاً من العهد السابق، وآمـــنت بـــشعاراته، ورهنت مستقبلها وصدّقته، خرجت للميادين تهـــتف لـــه، وها هي الآن، قد بات مطلوباً منها أن تتحمل وحدها نـــتائج مغامرات وأفكار غير مدروسة، أن تماشي ما يجري، إذا وجّه سفينتها يميناً، أو أمر بحارتها بقيادتها نحو المجهول.

لكـــن مـــا أزعجه، كانت الشروط القاسية التي قدمتها تلك الـــدول، كي توافق على مساعدته في علاج مرضاه، في الوقت الذي كانت فيه دول الجوار من الأشقاء والأصدقاء، ترفض مجرد النظر في طلـــبات قدمها لإمداد بلاده بمواد استهلاكية، بعد أن كاد المخزون الاستراتيجي يقترب من النفاذ، وبعد أن أيقن من استحالة قيام أبناء الشعب، بتحقيق الاكتفاء الذاتي.

كـــان يهـــدف من وراء إرسال الوفود التي غطّت جميع أرجاء العـــالم، وقطعت مسافات طويلة في الطائرات، إلى تحقيق أقصى قدر من التعاون مع الدول الكبرى، بعدما راودته الشكوك في إمكانية أن ينسى الجيران له القرار المنفرد بإقامة الحضانة.

كـــان أيضاً يدرك أن الأمصال المطلوبة لوقف استشراء المرض، والتجهيـــزات لا يـــتم تصنيعها إلا هناك، تلك أمور كانت شديدة العجلـــة، في الوقت الذي لا يملك من وسيلة أخرى ليوقف تدهوراً، راح ينتقل من بيت إلى آخر ومن جهة واحدة، لجهات عدة.

وبعـــد أن وصلت الأمور إلى حافة الخطر، بات عليه أن يقدّم تنازلات مؤلمة، ذلك هو المقابل المرير الذي لا بد من تجرعه، وإلا فإن

المشاكل سوف تتفاقم، ولن يتمكن أي تحرك في الوقت غير المناسب من إنقاذ الموقف.

في نهايـــة المكابرة، وافق على جميع الشروط التي وضعتها الدول الكبرى، مستبعداً في ذلك الوقت ما طالب به الجيران، إذ كان يثق في أن إقامة علاقات مع الكبار، سوف تتكفل بفك أي حصار تمّ ضربه حـــول بـــلاده، وعـــند هذه النقطة، قرّر إلقاء خطابه التاريخي، عبر التليفـــزيون الرسمـــي، بعـــد أن بات إحضار المواطنين المشلولين إلى الأســـتاد الـــوطني أمـــراً صعباً، لأنه ليس يليق به كمهيب أن ينقل التليفـــزيون الحكومـــي صورته وهو يلقي خطابه التاريخي بحماسته المعروفة وسط قوم مربوطين إلى كراسي متحركة.

عـــندما جاء اليوم الموعود، الذي سيتجه بكلماته المنتظرة إلى شـــعبه، كانـــت وســـائل الإعـــلام قد ملأت الأثير بصداع اسمه "الخطـــاب المصيري"، حتى أن الناس أصابها الملل، وتمنت أن يأتي ذلـــك الـــيوم وينتهي، في الوقت الذي كانت تدرك من تجارب سابقة، أنه بعد انتهاء الخطاب، سوف تصعد نوبة صداع جديدة، يـــتم خلالها تحليل الخطاب وما ورد فيه من حكم، لم يسبق إليها الأولون ولن تخطر على بال الآخرين، سوف تنبري وسائل الإعلام الـــرسمية في مطـــاردة الناس ببرامج يتصدى فيها محللون سياسيون يجيدون تكرار نفس العبارات، مع تعديل الصياغة، وسوف تخرج الأغـــاني الـــتي تمّ طبخها على عجل، وسيعيد التليفزيون الخطاب وفقـــراته، في الوقت الذي سيكون على المواطنين انتظار صحف الغد التي كالعادة ستخصص وعلى مدى أيام صفحاتها لاستطلاع رأي الخـــبراء والمشاهير والمواطنين المنتقين بعناية، للإشادة بالدرر التي نطق بها المبجل دام عمره، وسمي مقامه.

(15)

على الشاشة الفضية، أطلّ وجه الرجل الذي تفتديه جموع شعبه بالروح والدم والسيقان الكسيحة، فانخطفت القلوب مثلما يحدث في كل مرة، راح يشيد بالوطن الذي أثبت صلابته على مدار الأزمان، والـــذي قـــدم منذ القدم التضحيات المتتالية، وأثبت للعالم أنه جدير بالحياة وقادر على إعادة صياغة التاريخ.

اســتطرد الــزعيم مشيراً إلى أن ذلك التاريخ سوف يكتب في صــفحاته بحروف من نور، تضحيات أبناء الوطن، والتفافهم حول ثــورتهم المباركة، وافتداءهم لها بالأرواح، ومدى تجاوبهم مع الدعوة الصادقة لبناء مستقبل مشرق للوطن وأجياله القادمة.

بعـــد تلـــك المقدمـــة، التي حشد فيها عبارات منحوتة بعناية، وإشادات التي لم يكن في قرارة نفسه يؤمن بكلمة واحدة منها، قال لشعبه الكسيح:

- "يـــا شـــعبـــي الصامد الصابر، أيها الشعب الذي استطاع الـــتحكم في الـــشمس والقمـــر، يخفيهما وقت يشاء ويسمح لهما بالسطوع أنى أراد، أيها الشعب الذي صنع المعجزات، والذي تقف له جميع شعوب العالم احتراماً وإعجاباً وإكباراً، تقديراً لروح التحدي الـــذي يمتلكها، وإعجاباً بقدرته على اجتراح المستحيلات، نحن الآن أمـــام منعطف تاريخي في حياة أمتنا ووطننا العزيز، ونعيش في خضم مـــرحلة سوف تسجلها الأزمان بحروف من نور، للشعب الذي لم يـــتوقف يوماً عن السعي لتعديل مساره، والذي قدم نموذجاً تحتذيه الأمـــم، فما فعلتموه حتى الآن لن تنساه ذاكرة التاريخ مهما حاول الحاقدون طمس المواقف المضيئة لأبناء هذا الوطن".

تبادل الجالسون في بؤس أمام أجهزة التليفزيون نظرات متسائلة، لم يكـــن أي منهم يدرك ما الذي استدعى لذلك التمهيد؟ وما الذي يمكن أن يأتي من بعده؟

- "إن الـــرياح يـــا شـــعبـــي العزيز، أتت بما لم تكن السفن تـــشتهيه، علـــى الرغم من أن سفينة الوطن قد قامت بما يجب عليها القـــيام به، كما أن الربان استعد بشكل عبقري لكل ما يجعلها تبحر في سلام، لكن ومع كل الإجراءات المتخذة فإن هناك أموراً طرأت، تعـــرفونها جيداً ويجب أن نتصارح بشأنها ونقول ما يجب أن يقال في مثل تلك الحالة".

ازدادت نظـــرات المقعدين حيرة، وضعوا أياديهم السليمة على قلوبهم خوفاً، استمر الزعيم:

- "لقـــد ضرب وطننا العزيز، وباء أشبه بالأعاصير حين تجتاح المـــدن وتتسبب في الإطاحة بأمان المواطنين، لقد صحونا ذات يوم على المرض الذي غزا أجساد مواطنينا، والذي نشك في أنه تمّ بفعل الأعداء، بعد أن بلغت درجة حقدهم على هذا الشعب مبلغاً خطراً، وازدادت درجة الحسد التي صبوها عليه، إلى الحدّ الذي خرجت من عـــيونهم اللئـــيمة شرارات الحقد والبغضاء، فأصابت وطننا بوباء لم يشهده طوال تاريخه، وأقعدت الكثيرين ممن كنا نعول عليهم في بناء نهضتنا الحديثة، ودفعت جهودنا لتتحول إلى اهتمامات أخرى، أراد الأعـــداء إرباكـــنا، وإلهاء الأمة عن مواصلة السير على الخطى التي ارتضيناها، أرادوا دفعنا للاستسلام، فأصابوا سيقان أبناء شعبنا، حتى كاد الأمر يصل إلى أعز ما يملك هؤلاء لولا أن الله سلم".

ارتفعـــت أكف المواطنين بالشكر، عادوا لتبادل نظرات قلقة، كـــان لـــديهم إحـــساس قوي بأن القادم قد يكون مفزعاً، فراحوا

يـــستعدون من الناحية النفسية لتقبل ما يمكن أن يكون بانتظارهم، استطرد الزعيم قائلاً:

- "والآن أمـــام تلك الفاجعة الكبرى، والتي لا بد من اتخاذ قـــرار شجاع إزاءها، من أجل صالح الوطن وجميع المنتسبين إليه، فـــإنني أعلـــن أمامكم أن الغرض الذي أقمنا من أجله الحضانة قد انتفـــى، بعد أن استطعنا عن طريقه تدريب العديد من المواطنين، والنجاح في إعادة التأهيل المطلوب، ومن هنا فإنه بات من المؤكد القـــول إن معظـــم الشعب بعد قضاء هذا الوقت في الحضانة، قد أصـــبح مـــؤهلاً للأغراض التي كنا رغبنا فيها، وأصبح كل فرد، يمـــتلك العديد من المواهب والإمكانيات العالية التي ستمكنه من إكمال المسيرة ومواصلة عملية البناء، وهو الأمر الذي سوف يجني الـــوطن ثماره في أقرب وقت، وخصوصاً في أعقاب تحقيق الشفاء من المرض، وتحقيق الانتصار عليه، وهو هدف نضعه نصب أعيننا، واعداً إياكم بأنه لن تقرّ لنا عين ولن يهدأ لنا بال قبل القضاء عليه قضاء مبرماً، وفي وقت قريب.

فلا تجزعوا، ولا تخشوا، وثقوا في قدرات بلدكم، فأنتم الأعلى شأناً، والأصلب عوداً، يا شعبـــي الحبيب الرائع".

ما أن انتهى من خطابه، حتى راح المعلقون يشيرون إلى الحكمة الـــبالغة التي كانت وراء قرار إلغاء الحضانة، باعتبار أنه جاء في وقته التاريخـــي، ليتماشى مع ما يجري في عالم يعيش ظروفاً متغيرة، حيث السماوات باتت مفتوحة، ما يستدعي أن يندمج الوطن في هذا الأفق الـــواحد، وأن لا يـــتخلف مهما كانت المبررات عن الالتحاق به، مؤكدين أن ذلك يعد دليلاً إضافياً على الحكمة البالغة، وبعد النظر، والرؤية الثاقبة التي يمتلكها زعيم الوطن المفدى.

واعتـــباراً من اليوم التالي، راح الذين لم يصبهم الدور في قائمة المــرض، ينطلقون إلى حيث الجدران الحدودية، لم ينتظر أحد منهم صـــدور الأمر ببدء عملية الهدم الوطني، إذ راحوا مدفوعين بحاجاتهم إلى خيوط الأشعة، لرفع قبعة الوطن واقتناص أي قدر ممكن الحصول علـــيه من العلاج الشمسي، كانوا قد فقدوا أي طعم للحياة منذ أن اجــتاح المرض أشقاء لهم وأهل وأصدقاء، وجدوهم بين طرفة عين وانتباهتها فريسة للألم، والمصير المظلم، ورأوا أطفالاً في عمر الزهور تتــساقط، تــصاب بالكساح منذ اللحظة التي هبطوا فيها من بطون أمهـــاتهم، وعلـــى الـــرغم مما بشّر به الزعيم وقت أن زفّ مشروع الحضانة باعتباره نموذجاً للاقتداء.

منذ ذلك الوقت، توقفت الزوجات عن ممارسة الحياة الطبيعية، خشية الحمل بأجنّة شوهاء، كما أن الرجال الذين كانت لديهم نية التـــزاوج، سرعان ما ألغوها، هجرت الأعراس الوطن، فلا أفراح فيه ولا معاشـــرة، أصـــبح الـــزواج في عهد الحضانة المباركة، فعل غير مـــرغوب فـــيه، منذ أن تحولت الأمنيات بإنجاب الأطفال إلى رعب حقيقي.

غـــير أن العجيب، الذي سرى الحديث عنه همساً بين الأهالي، هو أن المفدى الذي كانت شهيته مفتوحة، لم يتوقف لا عن الزواج ولا عن الإنجاب، بل لم يزر الوباء أنجاله ولو بطريق الصدفة، كما لم يـــصل أصلاً إلى أي من رجالات الحاشية ولا من يعولون، ذلك ما دفع المواطنين الصالحين إلى تفسيره بالسر الكامن في الزعيم، والبركة التي تحوطه، تلك التي تتمدد أغطيتها لتشمل المقربين منه، ولا تزيد.

الاعتقاد بأن إزالة الحضانة هي الحل للخروج من حالة الشلل، تحـــول إلى هـــاجس مقيم، يصاحب الأهالي طيلة الوقت، آمنوا بما

رددته وسائل الإعلام الرسمي وقامت بعزفه أفواه المنتمين إلى الحاشية، وهـــو مـــا عجّل في قيام الشعب بإبداء ردّ الفعل التلقائي، إذ اندفع الأصحاء فيما يشبه أداء الواجب، لتنفيذ ما سمح لهم به.

قفز الذين لم يصل الوباء إليهم بعد إلى أعلى الجدران، بحثوا عن المكـــان الـــذي يمكن منه إزاحة طرف القبعة، حاولوا حتى أصابهم اليأس، عصت تلك اللعينة ذات الثقل الهائل، الملتصقة إلى حدّ الدمج مع أطراف الحوائط، ما أضاع يوماً كاملاً بغير جدوى، ودفع الشبان الأقوياء إلى الارتماء أرضاً، في وهن.

لم يعد هناك مفر من استدعاء الآليات التي جاءت في المرة السابقة، لن ترفض الدول الجارة غير الشقيقة بعد تلك التطورات إرسالها مع أطقمها، حين يكون المبرّر هو إزالة ما تسبب في فصل شعوب المنطقة عن بعضها، وفي إغلاق البعثات الدبلوماسية، سوف تبتهج تلك الدول ليس لأنها ستتقاضى أموالاً هائلة كما حدث في المرة الأولى، ولكن لأنها سوف تعرف تماماً السبب الذي أقيمت من أجله الحضانة، وستزداد ابتهاجاً حين تدرك أن.غرور الزعيم قد وجد في نهاية المطاف، صخرة ليتحطم عليها.

ما توقعه المبجل في هذا الشأن كان صائباً، في البداية حين أخذ يراقب محاولات الشباب لإزالة القبعة، أوعز إلى أجهزته بدفع الفكرة إلى ذهـــن الـــبعض مـــنهم، أصدر أوامره بألاّ يقوم أحد باعتراض طـــريقهم، غير أنه لما علم بأن الأمر لم يجد نفعاً، كان عليه أن يأمر معاونـــيه بالاتـــصال بتلك الدول، التي يعلم أنها تعاديه، لدعوتها إلى إرســـال فـــرق الإزالـــة مع إبلاغها أن التكلفة سوف يتم تسديدها لاحقاً، كان ذلك يعني أن الخزانة التي كانت متخمة حين تسلّمها في أعقاب الانقلاب، تكفلت مغامراته المهووسة بإيصالها إلى حدّ الخواء.

عـــندئذ، توقف كل نشاط في البلاد، واندفع الملهم يتخذ قراره بـــإغلاق الحـــدود، فلـــم يعد أمام الوطن إلا الدخول في تحدي غير مدروس، للاعتماد على الذات.

على الرغم من ذلك، فإن الدول التي وصلت إليها الرسالة، حتى من دون الإفصاح عن حقيقة الأوضاع المالية المزرية في وطن الزعيم، وافقـــت على الفور، إذ كانت الإزالة في حدّ ذاتها مكسباً تجنيه، ثم كـــان تكبـــيل الوطن في الدين العام حبلاً آخر يمكن لفّه فيما بعد، وبقدر الإمكان على رقبة الوطن وحاكمه.

لم تمـــض أيام قليلة، كان الزعيم فيها مثل عادته قد حشد الوطن، وضعه بالكامل في حالة طوارئ، استعداداً للحدث المشهود، كأن الوطن المسكين بات مكتوباً عليه أن يرقص فرحاً حين توضع القبعة، وينتشي طـــرباً أن أزيلـــت، راح هذه المرة يراقب ما يجري في سيارته الرئاسية الفخمـــة، فيما الجمهور الوفي أتى إلى المنتصف، متزاحماً فوق كراسيه المتحـــركة، هـــذه المـــرة لم يكن مطلوباً من أفراده سوى رفع الأكف بالـــدعاء، أن يحف التوفيق البلاد في تلك اللحظات التاريخية، ومع أنهم جـــاءوا لحضور تلك الفرجة، إلا أن الأكف هذه المرة لم تكن مدفوعة بذات الحماسة السابقة، إذ اكتشف معظم المحتشدين أن نقصاً فادحاً قد أصـــاب الجهاز المكلف بمراقبة المواطنين، للدرجة التي دفعتهم هذه المرة للاكـــتفاء بالمشاهدة، وترك الأمور كلها لقائد المسيرة المظفر، يرفع كفـــيه وحـــده، لكنهم وفي لحظة أن اتفقت أياديهم على التكاسل، وباتـــوا موقنين أن لا شيء سوف يخسرونه، سواء أرفعت القبعة أم تناثـــرت شظايا، فإن في دواخلهم كانوا يطمعون في عودة الشمس لتشد الأعواد، والهواء ينطلق من جديد في سماء البلاد، والقمر ليطل على استحياء ويضيء لديهم جلسات السمر في المساءات القادمة.

أخــذ الغطاء يرتفع ببطء، فيما كانت تتعالى الصيحات، كأنها هــذه المــرة تؤدي واجباً مدرسياً، في الوقت الذي كانت تخفت في نفوســهم عادة التنافس على إظهار أشد درجات الولاء، كانوا هذه المرة في مجملهم يشعرون أنهم باتوا خارج الزمن، بعيداً عن الحالة التي عاشــوها في مــرات ســابقة، كان في هذه المرة بالتحديد ثمة شيء ينكسر، يدفعهم للإفاقة على حقيقة، أن الأحلام الكبيرة التي اندفعوا يعاقرونها، والمهمة القومية التي أسكنها الزعيم في أرواحهم، وارتهنت أعمــارهم انتظاراً لتحققها، أصابها الفشل، وأن الأماني التي وعدتهم بالوصول إلى العلا، بتحقيق مجتمعات الكفاية والعدالة، بالقضاء على الاستغلال والفساد والرشوة، تحقيق الرفاهية والتفوق على جميع دول وشــعوب العــالم، والوصول بالوطن إلى ما بعد القمة، أسفرت في النهاية، عن شلل أصاب البشر، والوطن، ضرب مفاصله وخثر الدم في عروقه، قتل الحمية والأمل، وأوقعهم بعد تلك الانتظارات الطويلة في جب لا قرار له، بعد أن جاءت النهاية الفاضحة، فارتفعت القبعة وأصبح الوطن عارياً، مكشوفاً.

بعــد لحظات أخذ الضوء يخترق فضاء الوطن، سارع البشر الذين نــسيت أعيــنهم النهار، إلى إغلاق الجفون، كأنهم بعد طول المدة التي قــضوها في الحــضانة الرحبة، اعتادوا البياض القادم من محطات توليد الكهــرباء، أو كــأنهم تحولوا في تلك اللحظة إلى ما يشبه الأجنّة حين تغادر بطون الأمهات، لكن الضوء الهاجم لم يكن لينتظر تأقلمهم، فمع ارتفــاع أجــزاء القبعة إلى الأعلى أولاً، ثم هبوط الجزء المنــزوع بعد الآخر على أرض الوطن، سرعان ما أخذ يقتحم بشدة، مصحوباً بقوة أشعة شمسية ضاربة، لم يجد المواطنون بداً معها من بسط الأكف وتغطية النواظر، علّ بالإمكان، جلب الحماية لمركز الرؤية لدى الأجساد العليلة.

دخلـــت الشمس وانتشر الهواء في أرجاء الوطن، وشيئاً فشيئاً راحـــت السحب تروح وتجيء في سمائه، تماماً كما اعتادوا عليها في المرات السابقة، استنشقوا هواء افتقدوه.فراحوا في نوبة سعال، غطّت بضجيجها على أصوات الرافعات.

مـــرقت طائرة فأخرى فوق سماء الوطن، فانطلقت سيارة قائد الأمـــة المغوار عائدة من حيث أتت، انتهز الأهالي الفرصة، توجهوا بكراسيهم نحو الجدران العالية، لملموا قطع الحجارة، راحوا يرشقونها، ينفثون في يأس عن مكبوت ظلّ كامناً، انطلق رجال الأمن الرئاسي على الفور إلى هناك، كانوا يتمتعون بعافية تتوهج بين الحين والآخر بالعطايـــا الرئاســـية، راحـــوا يرفعون الهراوات، يهددون المقعدين، يحـــذرونهم مـــن التمادي في محاولة هدم الأسوار قبل أن يصدر قرار رئاسي.

اندفعت الهراوات الغليظة تهوى على رؤوس انتابتها للمرة الأولى حماسة عارمة، راحوا هم أيضاً يدافعون بما امتلكت الأيدي، يتحولون عن الجدران ويرشقون الوحوش الهائجة بالحجارة، ازدادوا هم أيضاً شراسة عند رؤية انقلاب أقرانهم من فوق كراسيهم، ومشهد الساحة إذ باتت مفروشة بلحوم البشر المكشوفة، بالدماء الحارة التي اختلطت بتراب الأرض، فتشكلت العجائن، منبعجة، وقانية.

كانت تلك حالة نادرة لم يسبق أن مرت في ذاكرة الوطن، ما أنـــزل هماً بالغاً لدى الزعيم، شكل في ذهنه فيما بعد، طريقاً جديداً قـــرّر السير فيه، لكسر أي سلوك قد يبدر من الشعب في أي لحظة قادمة.

اعتـــبر مـــا جرى خطأً أحمراً تمّ تجاوزه، زلزالاً مباغتاً وهائلاً، لـــرجل ظـــلّ طيلة الأعوام الماضية يؤكد لنفسه أن رصيده من حب

الجماهير يفوق ما حصل عليه أي حاكم في أي زمان، وفي أي منطقة، وها هو، وهو الأب الملهم، المهيب الفذ، صاحب الأسماء التي تمتد لافتاتها إلى عدة أميال، والد الجميع، وحامي الحمى، والساهر، الحنون، الحارس، النادر، يصحو على كابوس، لم يتخيل أن يحدث في عهده يوماً، راح يقلب الأمر، فيما أخذ يتناول تقريراً في إثر آخر، عن تلك الواقعة التي أعقبت فتح سماء الوطن.

على عجل، أصدر أمراً بدعوة مستشاريه، أخبرهم بالمهام الجديدة، بعضها كان تالياً لرفع القبعة، كإعادة افتتاح المطار الدولي، والبدء في المباحثات المتعلقة بإرجاع البعثات الدبلوماسية إلى الدول التي سحبت منها، وانطلاق وفد إلى بنك الإقراض الدولي للحصول على ديون جديدة، تساهم في تسيير الأمور خلال الفترة الانتقالية المقبلة، وفي الوقت نفسه البدء في إرسال الوفود التجارية التي سيتم تكليفها بجلب البضائع والمواد الغذائية التي يحتاجها المواطنون، سواء عن طريق الدفع المؤجل، أو بضمانة من الهيئات العالمية.

كان لا بد له من بدء الطريق من أوله، كأن هذا الوطن سينطلق للتو، ليصبح في عداد الدول الناشئة، وهذا ما أصابه بالألم، وعطل طموحات تصور يوماً أنها ستتوج بإمبراطورية.

غير أن أشد ما أخذ ينغّص عليه أوقاته، تلك التقارير التي رفعت إليه من الوزير الأمين المختص بمراقبة المواطنين، إذ كشفت عن حالة تململ خطيرة، راحت تتصاعد بين هؤلاء الذين لم يكن لديه من قبل أدنى شك في أنهم من أكثر الكائنات وداعة، لدرجة أنه لم يخطر في باله يوماً أن يسري لديهم القلق ولو بالنوايا.

منذ هذا الوقت بدأت مرحلة مختلفة، من مراحل الوطن، سوف يصب فيها الزعيم معظم اهتمامه الشخصي على الناحية الأمنية، تلك

التي لم تكن تشغل حيزاً كبيراً لديه، انطلاقاً من أنه في مثل حالة وطن كهـــذا، فـــإن الغـــضب مرفوع، والتململ ليس يأتي إلا كأضغاث الأحلام.

مـــن هـــنا كان عليه أن يضع مجدداً في حساباته جملة مشاكل صعدت فجأة، أظهرها الوباء الكاسح، الذي هجم على أبناء الوطن وأربك الخطط التي رسمها، وكاد يقضي على أحلامه.

وفي الـــوقت التي وضعت أمام الزعيم جملة من السيناريوهات للـــتعامل مـــع أزمة الاحتجاجات الحجرية ليلة رفع القبعة، فإن ما استوقفه، كان التقرير الذي يشير إلى أن ما حدث، لا يعدو أن يكون احـــتجاجاً طارئـــاً من بضعة شبان لم يستطيعوا التواؤم مع المرض، انطلقـــوا إلى الجدران تلبية لما فهموه من عبارات وردت في خطاب القائد، أشارت إلى أن الجدوى التي كانت متوخاة من إقامة الحضانة، قد انتفت، وأن هؤلاء تصوروا أنهم يقومون بتنفيذ إرادة الزعيم حين يـــساهمون رغم ظروفهم المرضية في إبداء ولو نواياهم الحسنة، أشار التقريـــر أيضاً إلى أن ما أشعل الموقف كان هجوم رجال الأمن إلى المراوات، ما أسال دم المقعدين وكسر كراسي الكثيرين منهم، الأمر الذي دفع البعض إلى إلقاء الحجارة، دفاعاً عن النفس.

الـــزعيم الـــذي يحـــتاج في هذا الوقت إلى إثبات ولاء الجبهة الداخلـــية له، وجد نفسه ميالاً إلى تصديق ما ورد في التقرير، كان يـــريد تأجـــيل أي أمر يتعلق بالداخل، كي يتفرغ ذهنه للتعامل مع جـــبهة خارجـــية، تترصد له ولبلده، تلك التي أخذت بجميع دولها: القريب منها والشقيق، أو البعيد الطامع، هؤلاء الذين يملكون كل ما يحـــتاج إليه الوطن وسكانه للمداواة والإطعام والتنقل والاتصال، بل وجميع الاحتياجات حتى ما كان منها بسيطاً.

ومــع أنه سعى لإدخال الطمأنينة إلى النفس والتأكيد على أن الحادث الذي جرى كان عرضياً، سوف ينتهي بانتهاء مسبباته، فإنه بحكــم تركيبته، كان أقرب إلى الخروج مما حدث بدرس، مفاده أن أي تجاهــل قــادم لمطالب المقعدين خصوصاً الشبان الحزانى، سوف يــشكل الــبذرة الــتي ستنمو منها نبتة الاحتجاجات والإضرابات والمظاهــرات، بــل وحــتى الاضطرابات، وهو الأمر الذي إن سمح بحدوثه، في ظل الحالة الجديدة التي انكشفت فيها رأس بلده، وباتت أي طائــرة تجــسس قادرة على كشف أدق خباياه، فسوف يهدد مشاريع لا زالت ترفض مغادرة ذهنه، ويمني النفس بإمكانية أن يأتي يوم تحقيقها، معتبراً أن ما جرى مجرد نكسة، سوف يفيق من آثارها يــوماً وينطلق مرة أخرى إلى تحقيق أحلام وطن، فرضت الظروف والوباء المفاجئ عليه التراجع لبعض الوقت.

كان لديه هذه المرة ما يدفعه للتشبث بأوهام اعتقد أنها سوف تــتحقق إذا ما تمت معالجة الأخطاء التي ارتكبت والتي من بينها عدم توقــع الأضرار الجانبية للحضانة، وأراد بعد كل هذا الإخفاق العمل من جديد على بناء الجبهة الداخلية، وزيادة تلاحمها.

بات يدرك أن المطلوب العاجل أمامه، هو إعادة معالجة المرضى، مــع التركيــز على فئة الشباب في المرحلة الأولى، فالوطن يحتاج إلى السواعد التي سوف تشارك في سدّ الاحتياجات، كما تحتاج إلى كل المهن التي تسبب المرض في تعطيل طاقات أصحابها يجب أن تعود إلى العمــل مــن جديد لتشارك في البناء، وبالشكل الذي يمنح الأمل في عــدم عودة الوطن العزيز ليستورد قمحه على ظهر باخرة قادمة من الدول الكبرى، وأنه لن يحتاج إلى من يعلمه طريقة الزراعة والتصنيع، أو حتى التدريبات العسكرية.

أمـــا المـــرحلة الثانـــية فسوف تخصص لمن هم أكبر قليلاً، أما العجائـــز فمن الأفضل تركهم وعدم تبديد طاقات الوطن وإمكانياته في معالجـــة وتأهيل من ليس في حاجة لهم، من يعتبرهم الزعيم عبئاً إضافياً.

وفي الـــوقت الذي قرّر فيه الإقدام على تلك الخطوة لكن بعد اكتمال علاج الشبان، والسعي لوقف اصطياد الوباء مواطنين جدد، قـــرّر وضع رقابة صارمة على من يمكن أن تصدر عنهم في المستقبل أي نـــوايا احتجاج، وعلى الرغم من النقص الحاد في موارد الخزانة العامـــة، فقـــد أصدر قراراً بزيادة المخصصات المالية للأمن الوطني، ورفع المكافآت الممنوحة لرجاله، مع وضع خطة لزيادة عدد المنضمين إلى هـــذا الجهاز الحيوي ليصبح بانتهاء تلك المدة عدد المنتسبين إليه مساوياً لعدد أبناء الوطن الآخرين.

انطلقـــت الوفود تجوب مناطق حددها الزعيم، حاملة المغريات الـــتي يسيل لها لعاب الدول التي تتطلع لفتح أسواق جديدة، ومقدمة وعـــوداً مـــصحوبة بامتيازات جمّة، فيما راح الوفد التجاري يخوض محادثـــات شـــاقة مع مسؤولي البنك الذي يقوم بإقراض دول يراها مسايرة، أو التي سيكون هناك أمل في أن تصحح سياستها، وتسير في المستقبل القريب على الصراط الدولي المستقيم.

اســـتغرقت الجولات زمناً، إذ غطّت عدداً من الدول تقع على مساحات متباعدة، لكنها عادت بمثل ما توصل إليه الوفد الذي كان قد زار الدول الكبرى قبل رفع القبعة، معبأة بشروط هائلة، أصابت الـــزعيم بالذهـــول، سواء في حجم طلباتها، أو مدى الوقاحة الذي ذهـــبت إليه، كانت كلها تدور حول ما يدخل مباشرة في السيادة الوطنـــية، غير أن قبولها، رغم ما حملت من إجحاف، لم يكن سوى

الحـــل الوحـــيد المتاح، لإمداد الوطن باحتياجاته، وما يكفل تخفيف وطأة الحزام المشدود.

وفـــيما يشبه اجتراع السم، راح الزعيم يبلّغ الوفود العائدة، قـــبوله كـــل الشروط، كان يريد في النهاية فك حالة العزلة التي فرضـــت، سواء من دول كبرى أرادت ضمان أن لا يمر أي قرار يصدره هو قبل أن يحصل مسبقاً على الموافقة منها، أو من الدول الـــشقيقة ودول الجيران التي كان لديها أعمق الشكوك في نواياه، والـــتي ظلت تعقد اجتماعات دورية تتشاور خلالها بشأن الموقف الذي يجب أن يتخذ من جانبها للتعامل مع الوضع، خصوصاً بعد اكتـــشاف مـــا فعله الكساح وخشيتهم من التعامل مجدداً مع بلد جار... موبوء.

(16)

انفـــتحت سمـــاء الوطن بلا عوائق، فسكنته الشمس، وبعد ما أفلحـــت حملة وطنية في معالجة العيون الرامدة من وهج الضوء، بات الـــشلل الذي ظلّ يقعد المواطنين، ضاغطاً على النظام للتحرك كي تعود الحركة للأجزاء المشلولة.

حـــذّر الخـــبراء في تقرير رفعوه للزعيم عن تطورات الأحوال الأمنـــية في البلاد، من أن عدم العثور على وسيلة لتحسين الأوضاع الـــصحية، قد يساهم في سريان حالة من التململ، إن تمّ السماح لها بالـــبدء ولـــو على استحياء، تتحول إلى حركة احتجاج، سرعان ما تتخذ شكل كرة الثلج، ما ينذر بحدوث تأثيرات سيئة.

كانـــت النصيحة هذه المرة تدعو لإيلاء تلك المسألة مزيداً من الانتباه، وإلا فإن كل الخطط التي ظلت تروح وتجيء في ذهن الزعيم،

ســوف تواجه ما يعيق المسيرة التي يقود خلالها الملهم شعبه إلى ذرى السحاب.

كان عليه أن لا ينتظر حتى وصول المواد من الدول الأخرى، إذ داخلــه فزع، من أن يكون هو في الحالتين، الخاسر الأكبر، فإن عالج المقعــدين فقــد يثورون عليه، وإن تركهم سوف يصبح أضحوكة يتــسلّى بهــا الحكام وشعوبهم في الدول المجاورة، وهو ما لا ينبغي الوصــول إلــيه مهمــا كانت الظروف، كان يود أن يظل في أعين شعوب تلك الدول زعيماً من الطراز النادر، من هؤلاء القادة الذين لا يجود الزمان بأمثالهم.

ذلك ما قالته التقارير التي كتبها أفراد من الحاشية، كانت تركز علــى ما يدخل البهجة في نفسه، والتي عادة ما تشير إلى أن شعوب العالم تتيه به إعجاباً، فيما يتمناه مواطنو الدول الجارة حاكماً، وأنها حــين تقــارن إنجازاته، تشعر على الفور أن قادتها إلى جانبه... أقل قامة.

لكنه على الرغم من المخاوف، كان كالحكام المحنكين يدرك ما الذي ينبغي عليه فعله، فيما لو تمّ القضاء على المرض، وإعادة الشبان المــصابين إلى حالــتهم الطبيعية، عندئذ سيكون أمر التعامل يسيراً، وبــنفس الطــريقة المثلى، إشغال هؤلاء بالتدريب القتالي والشحن المعنوي الذي جرّب مفعوله من قبل داخل حضانة مأسوف عليها، أو إلهائهم في البحث المتواصل طيلة اليوم عن لقمة العيش.

أما الأكبر سناً فهو يعرف أيضاً ما يجب أن يفعله تجاههم، كي يضمن إحدى الأمرين: إما الولاء التام والاستعداد دون تردد لافتداء الزعيم بالأرواح والدماء، والنفس والنفيس، أو مواجهة تفاصيل حياة طاحنة، تلك هي الطريقة التي جرّبت في الكثير من الدول التي تكتوي

في العـــادة بـــزعماء أطبقوا قبضتهم منذ أن صعدوا إلى الحكم على رقاب الأوطان وكائناتها الهشة، ويزيدون في الإطباق، كلما ازدادت الكراسي اهتزازاً من تحتهم.

دخــــل المرض مرحلة التقلص، بدأ مع توفّر أشعة الشمس، فيما بـــدأ شبان كثيرون في التعافي مع توفّر الأدوية، والمواظبة على العلاج الطبيعــــي، يخالجهم شعور بأن ساعات الآلام آخذة في النقصان، وأن التوقف التام سوف يأتي بعد جرعات قليلة من الصبر.

لكــــن النجيب ما أن استمع إلى تقارير المقربين التي ترصد ابتهاج الـــشعب بهزيمة الوباء، حتى راح يفكر في اتجاه آخر، في الوقت ذاته قام المـــسؤولون عن الشحن المعنوي ببثّ رسائل وهمية تشيد بحكمة الزعيم الـــذي يـــتم تحت رعايته ووفقاً لتوجيهاته تحقيق الإنجازات المتتالية في معـــركة القضاء على الوباء، معتبرة أن ذلك هو من أكبر الدلائل على انتصارات الوطن في الأيام المقبلة، هكذا استطاع الإعلام الرسمي، الذي لم يكن هناك في تلك الديار لاعباً غيره، أن يقلب الحقائق، حتى أن أحداً في تلك اللحظات، لم يتذكر ولو للحظة أن الوباء أيضاً كان من النتائج السيئة لمشروع الحضانة، التي تفتق عنها ذهن المبجل في لحظة هوس.

في هـــذا الوقت بالتحديد استدعى الزعيم صديقه الحميم على عجل، وما أن جاءه مهرولاً، حتى أفصح له عن قلق بات يعتريه منذ رشق الشبان رجال الحرس، معتبراً أنه على الرغم من التطمينات بأن الأمر لم يكن مقصوداً، إلا أن ما حدث أعطاه مؤشراً على ما يمكن أن يحدث من ذلك الشعب في لحظات الغضب، أبلغه بأن التدريبات الـــتي تلقاهـــا هؤلاء في الحضانة، يمكن أن تكون ساهمت في إلهاب مـــشاعرهم، وأنه إذا ما جرحت مشاعرهم، أو وقعت أخطاء فادحة في مستقبل، فقد يحدث ما لا تحمد عقباه، وهو ما يجب الاحتياط له.

علـــى الفـــور التقط الصديق الخبير بما يدور في ذهن الزعيم، مقاصـــده قـــبل أن ينطق، نصحه بضرورة تأمين النفس والعائلة من غـــوائل الـــزمن، أعاد إنعاش مخاوفه بالتأكيد على عدم وجود كائن بـــشري قـــادر علـــى درء ما يمكن أن يحمله المستقبل من مفاجآت مزعجة.

استحسن المبجل نباهة كاتم أسراره، غير أنه أراد أن يستمع منه إلى تفاصـــيل أكثر، في الاتجاه الذي يرمي إليه، والذي يتعلق بتأمين المـــستقبل لـــه ولأفراد عائلته، والمنتمين إلى البطانة، وهو الأمر الذي أنطـــق الـــرجل الخبير بما يود الحاكم أن يسمعه، نصحه بالتفكير في الأمـــر، وعدم تكرار ما فعله بعض الذين كانوا زعماء في بلدانهم، ثم عـــندما أطـــيح بهـــم، راحـــوا يقضون بقية العمر، وهم أقرب إلى المتسولين.

لم يعرف الزعيم، كيف يمكن تأمين المستقبل للعائلة بينما الخزانة خاويـــة، والديـــون الخارجـــية تتراكم يوماً بعد يوم؟ أو حتى كيف يستطيع الخروج ببلده من رقبة دين تكاد حباله تلتف ذات يوم على رقبة الوطن والنظام؟

لم يطـــل الوقت، فالمؤسسات الدولية التي راحت تراقب ما يجـــري، وتـــدرك أن هـــناك ضرورة لإلهاء هذا الحاكم، وإفساد مؤســـسة الحكـــم، ونخـــر جـــسدها بنشر الرشاوى والعمولات والإفـــساد، سرعان ما قررت بعد دراسة الأوضاع أن يتم التعامل مـــع هـــذا البلد بتركيز أكثر، هنا ظهرت عمليات شراء الذمم، وتمـــددت ذراع الـــوكالة العالمية، فراحت ترسل الخبراء، وتفتتح المقـــار، تستضيف بها موظفين من الدولة لا هم لهم سوى الإثراء، ولو على حساب الوطن ومستقبله.

تحولت الشعارات الثورية باذخة الزعيق، مع انهيار الحضانة إلى هوس طاغ لجمع الثروات.

حقـــق الزعيم في البداية حلمه في الاستيلاء على السلطة، ولما دانت له بدأ يفكر في أسرع الطرق لتوريثها، لكنه فيما بعد لاح حلم المال أمام عينيه، ليشكل مع مرور الوقت هاجساً مقيماً، بات بالنسبة له هو الهدف الذي سيعوض به فشله الذريع في تحقيق إمبراطوريته.

أصـــبح في مثل تلك الحالة، أكثر استعداداً لقبول ما سيعرض عليه، استعد لإجراء تغييرات كبرى في بلاده، ستعود بالخير العميم علـــيه وعلـــى العائلة الفاضلة والبطانة والأقرباء، عقد اجتماعات مكثفة لأجل هذا الغرض مع كاتم أسراره، طلب منه اقتراح طريقة لـــتوزيع مهام السلطة على الأقارب والأنجال، اقترح عليه أن يقوم بإنـــشاء طـــبقة جديـــدة تكون مرتبطة بالنظام، ولها مصلحة في استمراره، قال إنها سوف تستميت في الدفاع عنه لأن في الحفاظ علـــيه، صـــون مصالحها، ستكون تلك الطبقة مكوّنة من رجال أعمـــال وسياســـة لهـــم علاقات جيدة مع منظمات ومؤسسات وشـــركات عملاقة في خارج الوطن، سيكون هذا الارتباط حافزاً لدفـــع الدول التي تنتمي إليها الشركات الأخطبوطية للاستماتة في الـــدفاع عـــنهم وحماية مصالحهم، التي هي في النهاية تعني حماية النظام، وتأمين بقائه على رأس الحكم.

قـــال عقلـــه المدبّر إن هؤلاء سوف يتحركون بالشكل الذي يصب في النهاية في صالح عائلته، فمعظم الشركات سيكون النصيب الأكـــبر فـــيها لتلك الأسرة، بل إن الكثير من الكيانات الاقتصادية الكـــبرى سوف تصبح مملوكة بالكامل له والأنجال، ولكن بواجهة أخرى تحمل أسماء عدد من المستثمرين والمغامرين ورجال الأعمال.

لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً، كعادة كل قراراته، إذ سرعان ما حسم أمره، ووجّه الحاشية إلى الطريق الأضمن، ذلك الذي سيؤدي بالبلاد، للسير في نهج مغاير لما ظلت تسلكه، منذ أن شهدت صعوده إلى سدة الحكم، في إحدى الليالي حالكة السواد.

تجاربه التي لم تتوقف، والتي هي في الأصل غير مرتبطة بطقوس، ولا تعرف وقتاً للراحة، انتقلت بالبلاد بين جنوب وشمال، عبر مسيرة هطلت فيها من عباءة الثورة شعارات براقة بلا حصر، وأدت في النهاية إلى زيادة فقر المعدمين، وقهر الذين حلموا بالغد الأكثر بهاء، بعد أن دفعتهم في بداياتها لإطلاق العنان للبهجة القادمة، والانتظارات التي لا تنتهي، ثم وضعتهم في أتون الصهد، وقوداً للحرائق، ودماء لمغامرات بلا نهاية، ثم انقلبت بهم ليتحولوا إلى مجرد مياه لإطفاء حرائق اشتعلت ثم لم تظهر أي مؤشرات لقرب إخمادها.

كان أكثر ما نجح فيه، التمكن من تحويل شعبه المستأنس إلى مصفق دائم، متسابق في فوضى المسيرات والمبايعات وحمل اللافتات وابتداع ما يكتب فيها، تصديق دائم ومباركة لكل ما تجود به قريحة زعيم لم تعرف الراحة، و لم تقبل يوماً أن تمنح لحنجرة شعبها المطيع، هدنة.

كان من بين الشروط التي قدمت له لإدماج بلاده ضمن المجتمع الدولي، أن يقوم بإلغاء نظام الحزب الواحد، الذي كان قد أنشأه منذ صعوده إلى الحكم، كانت أحلامه العريضة قد دفعته إلى تصور أن بالإمكان عبره حشد الجماهير في إطار واحد، بوتقة سوف تؤدي إلى صهر البلاد فيها، لينتج المزيج القادر على السير في الطريق المؤدي إلى تحقيق طموحاته الإمبراطورية.

هذه المرة أدرك أنه لم يعد هناك من حاجة ماسة، ما دام الغرض انتهى، مثلما تحولت من قبل تنظيمات أنشأها وحشد لها بشراً وحناجراً قبل أن تتحول في النهاية إلى عبء على التجربة، كان نجاحها في حشد الجماهير مرتبطاً بهدف قومي، بمسيرة انطلق فيها، و لم تعد بعد أن تغيرت الظروف قابلة للتحقق في أيام قادمة.

عليه أن يساير مناخاً يسود العالم، ليس من الحصافة أن يراهن على مشاريع ثبت أنها في النهاية منيت بالخسارة، وعليه إذا أراد الحفاظ على كرسيه، أو انتقال السلطة بعد العمر الطويل إلى بقية الأنجال والأحفاد، أن يغيّر توجهاته، أو يقوم بتعديل الأفكار التي تبناها قديماً، والتي أوهم شعبه لسنوات، أنها ستقوده إلى العزة والكرامة، وستحقق له العدل والمساواة والمشاركة في حكم الوطن.

بات عليه، وهو يرى متغيرات انتشرت في العالم، وامتدت إلى الدول المجاورة، أن يسارعَ إلى إثبات حسن نواياه للدول الأقوى، عليه أن يدرك اللحاق بالركب الراكض، أن يفوز في سباق قادة الدول الجارة في سعيها للارتباط بالعالم الجديد، أن يكون أكبر صديق في المنطقة، أن يسارع في الحصول على مكانة مميزة لدى الأقوياء، وإلا فإن القلاقل سوف تنتظر نظام حكمه، لم يعد أمامه بعد ما جرى لمشروعه الفاشل، أن يدسّ الرأس في بحور الرمال، تلك فعلة لا تليق بالمهيب الذي يظنه شعبه، قادر على إيصال أحلامه إلى العلا.

عادت الاتصالات إلى سابق عهدها مع معظم الدول، فيما راح الزعيم يبالغ في إبداء المجاملات لنظرائه من الحكام، قرّر أن يرسل كاتم أسراره إلى مراكز صناعة القرار في الدول المؤثرة، ومنحه ضوءاً أخضراً لعقد اتفاقات.

انطلــق الصديق إلى الدول الكبرى، كان أُلعباناً، يجيد الوصول إلى ما يبتغيه ومن أقصر الطرق، يتوقع سلوك الزعيم، ويمتلك وسائل تسفر في النهاية عن إقناع رجل متقلّب مغرور، ونــزق.

في دول يتم فيها طبخ قرارات تسيّر العالم، راح المارشال يخوض محاولات مضنية للحصول على امتيازات ترضي زعيمه، وفي كل مرة كــان المارشـــال يتصل هاتفياً بزعيمه، للتشاور، على الرغم من أن المكالمات كانت تحت الرقابة، التي لا يعلم أنها جزء من عملية تنصت ضــخمة، تلتقط حتى دبيب النمل في وطنه، وأوطان الآخرين، فما المانع ما دام كل المكالمات مرصودة، أن يتحدث دون وجل مع زعيم الأمة، لإطلاعه على ما يجري، والحصول على الرأي القاطع.

طرح المارشال نفسه أمام رجالات تلك الدول، باعتباره خادماً مخلــصاً، عيناً ساهرة لهم لدى وطن مستغرق في نوم ليس من المنتظر أن يفيق من سطوته، رقيباً على الزعيم وشعبه وطموحاته، وصاحب مواهب كفيلة بتمرير ما يسعون إليه.

كانـــوا يعرفون مسبقاً أن معظم القرارات المهمة، ومنها المتعلقة بأمـــور الحاكم الشخصية يعود فيها إلى صديقه، وأنه في النهاية هو موضع السر وحافظ كل شاردة في الوطن.

شـــكّل هذا مفتاحاً مهماً، عليهم منح الرجل بعض الامتيازات وحفـــنة من الوعود ليكون حذاء لأرجلهم، وكلباً ينبح وقت الحذر، أو يهجم حين يأمرون.

لم يكن يهم والحال كذلك، أن يكون الحاكم في قبضة اليد، ما دام أمر محركه قد تمّ ضمانه، ليس يهم إشعاره بأنه أصبح مرضياً عنه، وأن ما ينبغي عليه فعله لا يزال أكبر بمراحل مما أعرب عن استعداده لـــتقديمه، أبلغوه بضرورة قيام الزعيم باتخاذ خطوات أكثر جرأة، قبل

إعلانهم الرضا عنه، قالوا إن الإدارة لن تستطيع نسيان ما قام به ضدها في السابق، ولن تقدر على إعطاء مساعدات كبيرة، لن تدعم بشكل كامل سلطته في وجه معارضة بدأت بذورها تبزغ، ما لم يثبت بالأدلة القاطعة أنه استوعب الدرس، وأصبح أكثر إخلاصاً من الجميع، وأنه بات مستعداً ليكون ذراعهم الممتدة في أرجاء المنطقة، وصار أكثر مرونة لتلبية مطالبهم بإرسال قواته للدفاع عن أمنهم القومي في أي بقعة وقت يشاؤون.

كان المارشال يبلّغ الزعيم بالأمر أولاً بأول، هو يدرك أن الرجل الذي تخشاه الأمة، سوف يسأله السؤال التقليدي:

• وأنت، ما الذي تشير به عليّ؟ هل أقبل؟ أم أنتظر حتى تعود؟

- اقبل سيدي، فلو لم تتخذ قراراً عاجلاً فإن زعماء المنطقة، أرسلوا بالفعل موفديهم، إنهم يريدون الفوز بلقب الصديق الأمثل، بينما الطريق بات ممهداً لوطننا.

كان الأمر أكبر من المساعدات المشروطة، ومن القروض التي تقوم تلك الدول بتوجيهها إلى مجالات تعود بالفائدة للمحسوبين عليها في الداخل، ومن بينهم من سوف يصبحون من رجال الأعمال، من سوف يكون لهم في وقت لاحق شأن في الاقتصاد والسياسة، ودفع الوطن إلى رهن مقدراته لدى الدول الأكبر، بل وجعلها تبقى لقرون قادمة في قارورة الفقر والعوز وحافة الإفلاس.

هذه المرة بات على الوطن أن يتجرد من ثيابه، أن يبيع لحم جسده للشركات المتعددة الجنسيات، أن يرضخ تماماً، وهو الذي لم يسبق له الانحناء، حتى في أقصى أوقات التحدي، عليه أن يرهن مستقبل الأبناء، بل يرهنهم أنفسهم إن تطلّب الأمر ذلك، أن يضحي

بهـــم ويلقيهم في أقرب صندوق للنفايات، بعد أن وصل العبث إلى درجة افتداء الآخرين بالروح والدم أيضاً.

لم يستغرق الأمر وقتاً، فعقب عودة المارشال، وما جرى له من اســـتقبال حافل، كانت الاتفاقات التي أبرمها قد مثلت إنقاذاً للزعيم لم يجـــد غـــضاضة معه في تقديم تنازلات صعبة، وإقرار ما يمكن أن يتطلـــبه من تضحية، ما دام الثمن سوف يسدد في نهاية الأمر من دم الشعب ومستقبل أجياله.

(17)

بعـــودة كاتم الأسرار، راحت الخيوط تتقطع في دولة ظلت تـــبدو صلبة لسنوات، لم تعد الصومعة التي أدارها الزعيم كعزبة خاصـــة، بـــنفس الهيبة، شيء ما بدأ ينفلت، منذ انتهت الحضانة وتحـــولت إلى أطـــلال يتوقف الزوار عند بقاياها، لالتقاط الصور التذكارية.

أخـــذ الشعب المقعد يتعافى، فبدأت التساؤلات المؤجلة تتردد للمـــرة الأولى ثم تـــتعالى، تخـــرج عن توجسها، تتواصل بين بشر الحـــضانة، وهو الأمر الذي اندفعت عيونه الساهرة لرصده، مع أن مجـــرد النيّة في التساؤل، كان كفيلاً في وقت سابق بوضع الرقاب في المشانق، ودفع الأجساد للإقامة في غياهب السجون، دون أن يصعد صوت واحد باحتجاج.

هـــذه المرة اتجهت الأمور للانفلات رويداً، حتى أن الزعيم في الـــبداية سعى لاتخاذ موقف صارم تجاه ما يصل إلى سمعه، لكنه أخذ فيما بعد، يتراخى إذ وجد التساؤلات انتشرت، وعمّت معها نكات وصلت إلى حدّ السخرية من أتباعه، الوزراء، الحاشية، ثم وصلت إلى

صديقه المارشال، لتنتقل بسرعة إلى ذاته المهيبة، وزوجاته اللواتي أنجبن لأول مرة في تاريخ المنطقة حكاماً بأقمطة.

استشعر الخطر بشدة، غير أن رجله القوي نصحه هذه المرة بأن يترك الشعب يتحدث كيفما شاء، فلن يصبح بإمكان أي منهم تغيير ما هو واقع، أكّد له أن السلطة باقية، وهي الآن أقوى بحماية دول كبرى لن تسمح بصعود من لا يتوافق مع سياساتها، عاد ليذكره من جديد بالاتفاقيات التي توصل إليها في جولته الأخيرة، تلك التي خرج منها بتأكيد قاطع يضمن بقاء الزعيم على "العرش" الرئاسي.

هكذا كان عليه القبول بحماية مصالح تلك الدول، أن يكون ذنباً لها في كامل المنطقة، على أن تعني أي محاولة للنيل من سلطته، مجرد وهم أهوج في رأس مجنون.

كانت تلك إشارة، سرعان ما فهمتها دول ظلت على عداء مع الزعيم، قضت سنوات تنتظر الفرصة لمساعدة أي مسعى للانقلاب عليه، غير أنها أعطت انطباعاً محبطاً في نفوس هؤلاء الشبان الذين تعافوا لتوهم، والذين انطلق تمردهم من الكتمان في الصدور إلى غليان أخذ يتصاعد، ويثير التساؤل حول مدى ما يمكن أن يصل إليه، وما إذا كان قادراً على التحول إلى انتفاضة شعب لم يعتد في تاريخه ارتكاب معصية الحاكم.

ومع أن الدول المجاورة ظلت تتنافس في الحصول على لقب الصديق الأول في المنطقة للدول الكبرى، عارضة فتح أراضيها وأجوائها، ومؤكدة أن القبول بجميع الاشتراطات التي راحت تملى عليها، فإن الزعيم تمكّن عن طريق صديقه الداهية من تقديم إغراءات أكبر، جعلت نظامه فيما بعد يشعر بالاطمئنان، بل ودفعته إلى اتخاذ

خطـــوة عملـــية لإثـــبات حسن النوايا، قام خلالها بتفكيك جيشه، وتحويل منتسبيه إلى قوات الشرطة، والحرس الرئاسي.

انطلق النظام في هذه الخطوة اثر عودة المارشال، بعد أن توصل إلى خلاصـــة مفادهـــا، أنه ما دام الوطن غير قادر على خوض أي حـــرب ببشر مشلولين، وما دام بالإمكان الحصول على تعهد دولي لحماية النظام بواسطة القوى الخارجية، في ظل مصالح مشتركة لتلك القوى والنظام القائم في الوطن، فما الداعي لاستمرار الجيش، وقادته ورجالـــه كـــثيري العدد؟ وما الداعي أصلاً للإنفاق وتحميل الخزانة الموشكة على الإفلاس كل تلك النفقات؟

راقت الفكرة للزعيم، قرّر الحل، فبات محصناً ضد أي ثورة، فلا الجيش الذي قاد إحدى فصائله يوماً وانقلب به على الحاكم السابق، بات موجوداً، فيما الشرطة تنحصر مهمتها في حماية النظام والدفاع عنه ضد الرعاع من أفراد الشعب.

جاء ذلك متزامناً مع وعود قوية، وتأكيدات متصلة بسلسلة من الاتفاقيات والمعاهدات لحماية النظام من أي محاولة لإسقاطه.

غير أن الزعيم الذي باتت تتردد تقارير عن تململ راح ينتشر في صفوف شعبه، لم يكتف بكل تلك الاحتياطات الداخلية والخارجية، إذ قرّر دعوة الدول الكبرى لإقامة قواعد في كل ولاية من الولايات الأربـــع الـــتي ظلت على تقسيمها رغم انهيار الحضانة، حيث تكون القـــواعد، نقـــاط ارتكـــاز في المـــنطقة، منشآت كبرى للتدريب، والتموين، وقواعد للتجسس تحتشد فيها أحدث الأجهزة التي ابتكرها العالم.

أخـــذت روح المغامـــرة التي انتابته في البداية تخفت، استبدلت بسكينة ودعة، بات همّه الاحتفاظ بالسلطة حتى نهاية عمره، وضمان

أن تنـــتقل بسلاسة إلى أحد الأنجال، دون أن يحدث ما يعكر صفو هـــذه الخطـــة، أما الوطن الذي كان يسعى لتحويله إلى إمبراطورية، وأحلام إنقاذ الفقراء من قاع العوز، فمجرد شعارات تطلبتها المرحلة الـــسابقة، تلك التي كان يريد فيها اكتساب دعم شعبـــي هائل، لم يعـــد الآن في حاجة إليه، أما تحقيق العدالة والرفاهية والحياة الكريمة لكافـــة قطاعات الشعب، فلم تعد تزيد عن مجرد عبارات استنفدت أغراضها في استدرار التصفيق والتأييد والمساندة.

الشعارات انتهى زمنها، والأحلام تبخرت، مع السقوط المدوي لمشروع فشل في إعداد جيش يسدّ به عين الشمس، انهارت الحضانة وانفرط الجيش، تفكك كلاهما إلى شظايا، وبقي هو وحده فوق بقايا الـــرماد، خاويـــاً مـــن الأحلام والمستقبل، خالياً من الشعور بالزهو القـــديم، قابـــضاً بـــشراسة، ومهما كانت الوسيلة، على السلطة، ومستعداً للتضحية في سبيلها بمن بقي سليماً من أبناء الشعب.

مـــنذ ذلك الوقت الذي قرّر فيه الزعيم أن يرتدي ثوباً مغايراً للـــذي ظلّ يستر به جسده، راحت كل الأمور تتبدل، لم يعد ينطلق إلى الحديقة الرئاسية، كما كان يفعل في الأيام الخوالي، بعد أن ضمن الأمن والاستقرار، وباتت حمايته مهمة دولية، لم يعد هناك ما يشغل باله غير بناء القصور في طول البلاد وعرضها، لم يترك زاوية في المدن الكبرى دون قصر باذخ، حتى أن الوفود الرسمية التي كانت تزورها، طالما استمعت لعبارة مكررة:

"زعيمنا هو الذي شيّد والذي كتب الخطوط على جدرانها، وهو الذي اختار الأثاث، وهو من يقوم بزراعة نباتات الحديقة وأزهارها".

كـــل الأمور كانت لا تزال تدور حول رؤاه النيرة، وعبقريته الـــتي لا تتكرر في التاريخ البشري، والتي تدفع بين الحين والآخر إلى

رأســه أفكاراً لا يقدر على الإتيان بها، أي حاكم من هؤلاء الذين يــروحون ويجيئون بين زمن وآخر، فلا يتركون على الأرض بصمة، ولا في تاريخ بلدهم، ولا المنطقة، ذكرى تنفع.

تلك الدرجة العالية من المداهنة، دفعته من جديد إلى التفكير في أمــور لم تكن لتخطر له من قبل على البال، أخذته غيرة مفاجئة تجاه هــؤلاء الــذين تــتحدث عنهم وسائل الإعلام، مفكرون، شعراء، كتاب، فنانون، نقاد، علماء، موسيقيون، ممثلون، وفلاسفة، ما الذي يمــنع أن يكــون مثلهم، بل وأعلى منهم؟ إذا كانت فترته الرئاسية ستنقــضي بالموت، فإن هؤلاء سوف تظل أسماؤهم إلى ما بعد فناء الأجساد، باقية في ذاكرة الأمة، فمن يكون هؤلاء حتى تظل أسماؤهم تتــردد؟ ويكون هو مجرد حاكم مرّ يوماً على الوطن، مثل غيره من عشرات الحكام، الغالبية منهم تركت اللعنة في الذاكرة، والعدد الأقل يتوقف التاريخ قليلاً عنده.

مــن هؤلاء ليخلدوا؟ بينما هو الزعيم القادر على قطع رقابهم فــرداً فــرداً، أو التفضل بتركهم على قيد الحياة؟ من هؤلاء؟ وهو القــادر علــى قــصف أقلامهم، إجلاسهم في السجون أو البيوت منبوذين، ودون أن تنشر صحيفة واحدة عنهم خبراً؟

ولمــاذا لا يــتم تخليده هو أيضاً؟ لماذا لا يكون روائياً، مفكراً، حكــيماً، شــاعراً تتــردد قصائده في كل مكان، يحفظها القاصي والــداني؟ تلك فكرة رائعة، فإن لم يتم تخليده، بسبب فشل مشروعه الكبير، فليكن له الخلود بقصائد وروايات، بكتب فكرية أو نظريات، لم يسبق إليها كائن من كان.

لمــاذا لا يفعــل هو أيضاً؟ أليس حكام الدول الكبرى وكبار المشاهير يصدرون كتباً، سيراً ذاتية وروايات، ما الذي يمنع أن يكتب

هــو سيرته، وصاياه للشعب، أو روايات تجعل منه في النهاية واحداً مــن عباقرة الكتابة في هذا العالم؟ ما الذي يمنع إذن، ما دامت بيديه كل الأشياء، وهو الحاكم الذي لا يشق له غبار، وتنحني له الهامات، مــن المؤكد أنه عندما يكتب سوف يكون الإبداع مختلفاً عما عهده العالم، فليس من المعقول أن يتفوق أحد من الرعاع على الزعيم حتى في الكتابة، ثم ما هي العوائق أصلاً؟ سيملي بعض الجمل العابرة غير المتــرابطة على أحد المحترفين، وعليه أن يصنع منها في النهاية رواية، قصة، قصائد، أي شيء، هذا ما يجب عليه، كواجب وطني، وإلا ما الــذي يفعله هذا إن لم يصنع رواية للزعيم؟ أما الكتب الفكرية التي سيضع فيه نظريته الكبرى، تلك التي يتوقع أن تغيّر مسار العالم، فإنها ســتحفر مكانــاً لاسمــه بين أفذاذ الفكر الإنساني، ولأجلها سوف يستدعي عدد من الكتاب المخضرمين، أصحاب الصياغات الجميلة، وبعــض المشتغلين بالفلسفة والسياسة والتشريع، سوف يملي عليهم أفكــاره وفق ما تتوارد في الذهن، بعدها سيلقي المهمة عليهم، يحدّد لهــم وقتاً للانتهاء من وضع أطر النظرية، ليتم مراجعتها وإصدارها، بملايــين النسخ، ثم فرضها على المناهج الدراسية في المدارس بمختلف المــراحل، وفي الجامعات أيضاً، يجب أن لا يتم السماح لأي طالب بالتخرّج، دون أن يكون قد حفظ ما ورد فيها، بعدئذ سوف يسعى للحــصول على موافقة الدول الكبرى قبل طرحها كواحدة من أهم النظريات التي اكتشفها العقل البشري على مدى الأزمان.

توقــف عن معاقرة أحلام التوسع، وبات متفرغاً للإغداق على الــشعب الــذي تطحــنه الأمية، من بنات أفكاره كتباً ومذكرات وقصائد عصماء، ينظمها له عشرات الذين يسيرون في العادة بسيقان ضامرة وبطون لا تجد ما يسدّ جوعها، باتت الكلمات مخرجاً له من

أوهـــام استعمرت عقله، وفرض على الشعب الابتهاج بها، والتهليل للنعيم القادم الذي ستحمله أجنحتها.

وفـــيما العبقري غارق في أحلام، ارتدت هذه المرة ثوباً مغايراً، كـــان أطفالـــه الحكام بين أيادي حنونة، راحت تستغل غفلة الوالد المهـــيب، في اقـــتطاع كل ما يمكن صبّه من أجل تضخيم ثرواتهما، عقارات في الخارج، إيداعات يومية في بنوك العالم، قصور تشابه ما بات الزعيم وأنجاله يمتلكونها في العواصم الكبرى، كان مناخاً مواتياً، ولا بـــد من انتهازه، عدم ترك الفرصة تفلت، فما الذي يضمن ألا يزداد وعي الصغار إن كبروا، أو تحدث إفاقة للغافل يوماً من سكرة الأدب؟ فـــيهب في ثورة غضب، ويطيح بهم؟ ثم ما الذي يضمن أن يستمر المارشال الذي يقوم بحمايتهم وتسيير أمورهم في منصبه؟ إنها لعـــبة بها من الخطورة، قدر مساوياً للذة، فكثير من المقربين للزعماء كانـــوا في بعض أحداث التاريخ أول الضحايا، هم في كل الأحوال يخوضون مقامرة، حتى وإن كانت خلالها التطورات تحت السيطرة، إلا أن المستقبل، في العادة، دائماً ما يحبل بمفاجآت لا يتوقع حدوثها، حتى خارقي الحجب.

النـــــزق الـــذي اندفع إليه الزعيم هذه المرة، كان يمثل جانباً واحداً من جوانب كثر، سرعان ما كان يندفع باتجاهها، يشحذ قوى الوطن وإمكاناته، غير أنه سرعان ما يتخلى عنها بنفس السرعة التي شدته إليها.

كانـــت لديه ثقة كاملة في المارشال، إلى الدرجة التي لم تدفع لديه الـــشكوك في تـــصرفاته، حتى عندما راح عقب اندحار حلم الحضانة، يـــشكل حاشية مصغرة، من بين بقايا البطانة القديمة التي رافقته معظم أوقـــات الحكم، غير أن الدائرة سرعان ما اتسعت بفعل قدرة المارشال

علـــى إقناع زعيمه، لتمتد إلى غالب المجالات من الصحافة إلى التجارة، فالـــسياسة والرياضـــة والفـــنون، حشد للمقربين من المارشال اندفعوا يحصدون ما خططه، يقتسمون معه كعكة بات مذاقها رائقاً، فيما أصبح للزعيم دائرته من رجال أعمال يقيمون المشروعات له ولأبنائه، دون أن يتم التطرق في أي مستند رسمي لأسماء العائلة الحاكمة، ودون أن يعرف أحد، اللهم إلا بالشائعات حجم الفساد الذي يمارس، وحجم القروض التي تسحب من البنوك للأنجال والعائلة تحت أسماء هؤلاء، الذي يدللهم الـــنظام مقابـــل الخدمات الجليلة، مثلما تدلل الأم الكبيرة زوجة الزعيم الأولى قطط قصورها السمينة.

تلـــك كانت خطوة، لكن الخطوة الأكبر تمت في الوقت الذي فـــتحت فـــيه البلاد ذراعيها دون ضوابط، لكل قادم، وما أن أخذ المشرعون يعدلون القوانين كي تبدأ البلاد عهدها المشرق، بما صاحبه مـــن حملـــة إعلانـــية ضخمة، انبرى خلالها المتخصصون الكبار في عملـــيات غسيل المخ، وهي تلك الحملة التي تمّ فيها الاستعانة بخبراء مـــن الخارج، من هؤلاء الذين يقودون في العادة الحملات الدعائية لانتخابات الدول الكبرى وما أن بدأ ذلك العهد الذي انفتحت فيه الـــبلاد على مصراعيها، وتجمّلت بألوان متنافرة، حتى أوعز المارشال هـــذه المرة أيضاً لزعيمه بضرورة الحصول على توكيلات الشركات العالمية بعد أن بات لها رواجاً كاسحاً.

استخدم الزعيم كبار رجال الأعمال الذين ظهروا على السطح فجـــأة في أعقـــاب انفتاح البلاد، هؤلاء القادمين من إحدى الدول الكـــبرى يحملون جنسيتها وجنسية الوطن لاقتناص أكبر عدد ممكن من التوكيلات، بات عليهم الآن أن يمارسوا لعبة جمع المال واقتسامه مع العائلة المبجلة.

نجحت خطة المارشال في بعض أجزائها، أخفقت في الباقيات، تمكّن الزعيم من نقل معظم التوكيلات من الحاصلين عليها إلى أسماء رجال الأعمال المرتبطين بنظامه، اختطف الكثير منها وكلاء محلّيون، غير أن هناك توكيلاً لمنتج رائج، بات الزعيم مهووساً بالحصول عليه، ومـــع ســـطوته، فإن أقصى ما ناله من الشركة العملاقة كان وعداً بالنظـــر في الأمر، شرط قبول من بيده التوكيل، وتقديراً لتمكنه من تـــرويج المنـــتج بشكل أكبر من المتوقع، هذا الشرط، كان سبباً في حـــشد الزعيم لكافة إمكانيات الدولة، ومفاوضيها العتاة، حراسها أصحاب القبضات الغاشمة، وخبراء متخصصون في تطريز القضايا.

فـــتحت أبـــواب الإغراءات للتسهيلات البنكية، العمولات، الامتـــيازات، المبالغ المالية، ولما فشلت، صدرت فتاوى تحرم التوكيل علـــى صاحبه الأصلي وتجيزه لرجال الأعمال الذين يستتر بأسمائهم الـــزعيم، لكن المحاولات التي احتشدت فيها سيوف المعز، وسبائكه الذهبية، لم تدفع الوكيل الأصلي للرضوخ، أو التنازل عن جزء منه.

أخبروه دون مواربة، وبعد أن باءت محاولاتهم بالفشل، أن من يرغب في الحصول على التنازل، هو الزعيم بشحمه ولحمه، فلم تهتز له شعرة، بل زاد إصراراً على التمسك بما اعتبره حقاً، بما بذل جهداً مـــضنياً لأجله، ولم يعد بمقدوره تحت أقسى الظروف الاستغناء عنه، حتى لو وصل الأمر إلى حدّ الموت.

لم يكـــن الأمـــر في حاجة إلى تنفيذ حكم بالإعدام فبعد تلفيق واحـــدة مـــن التهم الجاهزة والضغوط النفسية، كانت كفيلة بإنهاء الأمـــر، وإحالة أوراق الوكيل المحلي إلى حفّار القبور، الذي قام بما يجـــب، إذ دفـــنه، في ظل موكب مهيب تقدمه الزعيم، في محاولة لم يصدقها أحد لذر الرماد في العيون، وإثبات أن الشائعات التي يروّج

لهـــا أعـــداء الوحدة الوطنية في غير محلها، وأن ما كان بين المفدى والوكيل أشبه بالسمن والعسل.

لم يـــستغرق الأمـــر وقتاً، فسرعان ما أصبحت الأمور أكثر يـــسراً أمام المارشال، انبرى لقيادة حملة مكثفة من المفاوضات مع ورثـــة الوكـــيل، هؤلاء الذين سرعان ما انهاروا وقبلوا الشروط، جرّدهم من كل ما يملكون مقابل تعويض اعتبره هو ولا أحد سواه مجـــزياً، ولـــولا الزعيم الذي قيل وقتها إن قلبه رقّ فجأة، وأمر بتخـــصيص خمـــسة في المـــئة من إيرادات التوكيل سنوياً لأسرة "صديقه" العزيز المرحوم صاحب التوكيل، لكان الأبناء قد خرجوا من المولد دون حبة حمص.

الـــنجاح في إنهـــاء صفقة التوكيل، جعلت شهية المفدى تزداد شـــراهة، وهو ما دفع المارشال لمواصلة نصائحه المدنسة، تمّ التركيز خلال الأسابيع التي تلت على امتلاك الشركات القائمة، وخصوصاً مـــا حقـــق منها نجاحات باهرة في السوق المحلي، حتى باتت ركناً أساسياً من دعائم الاقتصاد الجديد المنفتح، فليس من المعقول أن يترك أبـــو الأمة وحامي حماها، أمراً مثل الاتجار في أيادي حفنة من التجار لهم ارتباطات بالأصدقاء الجدد في الدول الكبرى.

كان المارشال في كل مساعيه يعرف الطريق الذي يسلكه، اللغة التي يستخدمها لإيصال "أبو الأمة" إلى درجة الاقتناع، ثم اتخاذ القرار وتنفيذ الأمر، دون تردد.

وعلى الفور قام أعوانه بحصر التوكيلات:

مطـــاعم الأغذية، شركات العطور والصابون والهواتف والمواد الغذائية، المياه الغازية، السيارات ذات الماركات الشهيرة، مواد البناء، كل ما حقق انتشاراً، وبات المواطنون يقبلون عليه.

بعـــد ذلك إقناع الزعيم باتخاذ الإجراءات اللازمة لتكون تلك التوكـــيلات في الأيادي الأمينة، التي تعمل للنظام، وتقوم إلى جانبه بالدفاع عن مصالحها التي ستصب في النهاية في مصلحته.

نـــبّهه المارشال من خطورة بقاء التوكيلات في أيدي المواطنين، قال إن هذا الصنف الأقل درجة من أصحاب الدماء الزرقاء، سوف يـــتطلعون يـــوماً إلى اقتناص السلطة إذا ما قويت شوكتهم، ومكانة عـــائلاتهم، حـــذّره من أن هؤلاء بمجرد النجاح في تكوين الثروة، ستكون خطوتهم التالية، هي البحث عن الوجاهة، تلك التي لن يجدوا أقصر من السلطة طريقاً للوصول إليها.

أكـــد عقل الزعيم المدبر، أن هذا الأمر سيعني أن هناك أعداء محـــتملين، يجب التعامل معهم من الآن، واتخاذ أقصى التدابير الكفيلة بقطع دابرهم من المهد، فالانتظار لن يزيد الأمر إلا صعوبة، و"النمر مـــا لم تقتله، أو حتى تروضه صغيراً، فمن المؤكد أنك لن تقدر عليه حين يشتد عوده ويزداد شراسة".

احـــتلت البطانة الجديدة مكانها في القصر الرئاسي، في أعقاب إزاحة المارشال لأعضاء الحاشية السابقة، التي قال إنها لم تعد مفيدة، وأن رؤوس أصـــحابها باتـــت جـــوفاء، فبعد سنوات من الخمول، تكلست فوق مقاعدها، ولم يعد لديها ما تضيفه للوطن المعطاء، ولا لملهمه.

كـــان صعود الطبقة الجديدة، واقترابها من مركز صناعة القرار يعـــني أن الحـــبال التي ألقى بها المارشال باتت قريبة للغاية من رقبة "المفدى"، إن سعى يوماً للغدر بصديقه، أو فكّر في الاستغناء عنه.

لم يكـــن ممن يطمحون في اعتلاء أعلى السلطة، وإن كان الأمر بعـــد سلسلة التغييرات الأخيرة بات متاحاً، فبمجرد القفز فوق دبابة

صغيرة، سوف يدنو من الكرسي الرئاسي، لكن المارشال كان يدرك أن الوضـــع الحـــالي، الذي يقبع فيه الزعيم في الواجهة، هو الأمثل بالنسبة له، كي يحقق ما يطمح إليه من اكتناز ثروة دون جهد، وأن يكـــون في الـــوقت نفسه هو الحاكم الفعلي للبلاد، على الرغم من جعجعـــات المهـــيب وتبجحه الدائم بأنه هو الملهم، الذي لا يتوقف شعبه عن رفع الأكف بالدعاء له.

(18)

تحوّلت البلاد بمن فيها إلى مزرعة متسعة، بات المتحكم فيها في الخفاء رجل واحد، ليس الزعيم الذي كان مهاباً، بل صديقه، وشيئاً فـــشيئاً بـــدأ صاحب الفخامة يتقبل الفكرة، بعد وقت من الغليان، ودون أن يـــتمكن من البوح بما أخذ يكبر شيئاً فشيئاً، غير أنه وصل إلى الدرجـــة التي وضع فيها أصابعه على الجرح، دون أن تقدر يداه الآخذة في الارتجاف على وقف النـــزيف.

كـــان الأمر قد انفلت تماماً، لم يعد بمقدوره إرجاع الزمن إلى الـــوراء، ولا الـــتقدم خطـــوة واحدة لتصحيح الأوضاع، هذه المرة استطاع المارشال أن يدير اللعبة ببراعة، وأن يظهر قوته في نعومة، لم يـــستطع الزعيم استيعاب مقاصدها، قبل أن تصل الأمور إلى حافتها الخطرة، وتصبح أي محاولة لتصحيح الوضع، أشبه بعبث الأطفال، لا تعدو كونها مجرد حلم أتى بعد فوات الأوان.

مـــا كـــان أمـــام الـــزعيم في تلك اللحظة إلا أن يتماشى مع الأوضـــاع، أن يترك الظروف تتعامل مع ما يمكن أن يحدث، ها هو قد أصبح عارياً، من الصداقة الوفية، ومن الحاشية المخلصة، بعد أن تمّ إقناعه بضرورة طرد من قال عنهم صديقه إنهم تكلسوا فوق الكراسي

ولم يعد لديهم ما يقدمونه، طردهم، منعهم من دخول القصر الرئاسي، ليأتي كاتم الأسرار على الفور بمجموعة جديدة، شبان يدينون بالولاء أولاً وأخيراً لسيد نعمتهم، المارشال.

لم يحدث هذا فقط، بل إن مستشاري الحكام الأربعة الذين كان قد عيّنهم لرعاية الأبناء وتوجيههم، أقيلوا أيضاً، بعد ما اقتنع بتصفية الحاشية واحداً بعد الآخر، حتى تمكّن في نهاية الأمر من وضع رجاله في نفس أماكنهم، ثم إغداق الامتيازات على الجدد منهم، وضمان الولاء التام منهم له أولاً، لا للزعيم المغرور الذي تحول في النهاية إلى مجرد ديكور، لا حول له ولا قوة.

كل الخيوط باتت في يد المارشال، بعد أن ثبّت رجاله في كل زاوية من البلاد، في وسائل الإعلام، والبرلمان الصوري، في الحاشية التي تدير القصر، ورجال الاقتصاد الذين يتابعون استثمارات الحاكم وعائلته، والذين يعرفون الخبايا، بعد أن قاموا بمساعدة الزعيم والمارشال في عملية، بيعت خلالها الشركات والمصانع التابعة للدولة والتي كانت البلاد تعتمد عليها في سدّ احتياجات الشعب، إلى شركات تحمل أسماء من يديرون العملية الاستثمارية بكاملها في البلاد، ويدينون بالولاء التام إلى المارشال.

تغيّرت البلاد بمن عليها، فلم يعد له من صديق، واختفت الحناجر، حتى صمت الفنانون عن الغناء، وتحوّل الشعب بعد كارثة الحضانة من الوله الشديد بحامي الحمى، إلى إطلاق النكات عليه والسخرية من حكمه، والتظاهر بالمرض في كل مناسبة كي لا يخرج أفراده في المظاهرات، الهاتفة لعبقريته.

أدرك الآن أنه وقع في شرك لن يمكنه التخلص منه، لم ينفعه الذهن الذي كان متوقداً، ولا أسعفته أحلام جلبت في نهايتها

نكسات له وللوطن، ولن ينفعه الشعب هذه المرة بعد أن تسبب بمغامرة غير محسوبة، في تحويله من السير على القدمين إلى القعود فوق الكراسي المتحركة، وبعد أن تبدلت أحوال مواطنيه المسالمين من الاعتياد على الرضا بالمقسوم، والتعايش مع الحياة كيفما كانت تحولاتها، إلى مدّ الأصابع وإزالة صماخ الأذنين، انفتحتا رويداً تحت ضغط الفاقة والجوع والأمراض لوساوس رجيمة، حملت من جديد شياطين الشكوك، فعاقر الشعب تساؤلاته سراً وعلانية، سخر من الوعود، وأطلق الشتائم ضد الزعيم، وضد الأوقات التعيسة التي ألقت به يوماً إلى الوطن، فأذلّه، وإلى الشعب، فأمرضه.

لم يعد أحد إلى جانبه، سوى عائلته التي كانت هي الأخرى في حاجة إلى من يعينها، لم تعد تنفعه الأحلام الخائبة أو الخيالات المريضة، ولا حتى السير في الحديقة الرئاسية بعد أن اختارت أوراق أشجارها الذبول، إثر احتجاب الشمس غائبة عنها.

لم تعد تبزغ في ذهنه أفكار لا من تلك التي رهنت البلاد لمزاجه التعس، ولا من غيرها، بات همّه الوحيد الاستغراق في التفكير فيما يخص المصيبة التي وضع نفسه فيها، في الموقف الذي لا أحد بإمكانه أن يحسده عليه، إذ بات في النهاية، حاكماً بالاسم، فلا قرار يمكن أن يصدره ويضمن تنفيذه، ما لم يمر أولاً على مكتب المارشال، ويحظى بموافقته، كان هذا ما يتم، دون أي ضجة في السابق، وهو الأمر نفسه الذي عليه الآن أن يتقبله، على الرغم من أن المارشال لم يطلب مباشرة منه ذلك، لم يحدث أن أبلغه بما يضعه مباشرة في مواجهة الحقيقة، تلك التي بات يعرفها الجميع، ما يفيد أنه ليس أكثر من مجرد حاكم صوري، اسم ليس له سلطة، لا على الشعب ولا الحاشية، ولا حتى على زوجاته والأنجال.

لم يقـــل المارشال ذلك، لكنه فعل ما لا بد أن يكون المهيب قد أدركـــه، على الرغم من أنه كان بمقدوره، أن يفعل ما هو أكثر، ورغم الهمسات التي راحت تسري في طول البلاد وعرضها، فإنها في النهاية لم تكـــن أكثـــر من مجرد شائعات، يحتاج من يستمع إليها إلى أدلة أقوى ليصدق أن الزعيم بسطوته الحديدية، يمكن لأحد أن ينجح في تحجيمه، في جعلـــه مجـــرد ديكور نسلطة، ظلّ لوقت هو الأشد فيها، وصاحب الكلمة العليا، التي يتسابق الجميع مهما كانت مناصبهم للانحناء أمامها؟

ومـــع أن الشائعات يتم تصديقها في العادة، إذا ما كانت تدور حـــول حاكم بدأت رائحة فساد نظامه تزكم الأنوف، فإنه في حالة مـــن ظل ملء السمع والبصر، داخلاً في كل تفاصيل البلاد والعباد، الماضي والمستقبل، النوم واليقظة، الأحلام والرؤى، لم يكن لأحد في سائر البلاد، أن يصدق ما يقال سوى الحاشية، تلك التي راحت تقوم هي بالنيابة عن الزعيم، بنفس دوره، تاركة له جعجعاته، ومن حين إلى آخـــر يقوم المارشال بالاجتماع مع كبار المحيطين، يتشاور معهم حـــول الشائعات التي يجب تسريبها، وإشغال الرأي العام بها لبعض الـــوقت، ومن خلال تداولها بين ربوع الوطن، يتم ترسيخها، حتى تقترب من الحقيقة، بما يجعل منها أمراً مقضياً ولو بعد حين.

هكذا نهشت الشائعات أحشاء وطن يعاني من أمراض كفيلة بإنهاك أعتى البدن، صار أشبه بالخلاء الذي لا صاحب له، كل من اســـتطاع أن يمـــسك بقطعـــه منه، فعل، كل من دانت له الثمار قطـــف، حـــتى في وضح النهار، فلا فضائح ولا مساءلة، تدفقت الـــشائعات من كل صوب، بعضها يتحدث عن أعداد هائلة من القصور يمتلكها الزعيم، غير آبه بوصول الشعب إلى درجة البحث عن مأكولات بين أكياس القمامة.

شائعات تتحدث عن ثرواته الفلكية، عن تقارير صادرة في الدول الكبرى تشير إلى أنه بات في سنوات قليلة واحداً من أكثر رجالات العالم ثراءً، وشائعات أخرى راحت تنطلق بين طبقات الشعب الأقل تعليماً، تشير إلى أنه يتزوج في كل يوم عروساً، وأنه يفرض على العائلات الثرية في الدولة، أن ترسل له أجمل بناتها حين ينضجن، غير أن أكثر الشائعات التي تركت صدى كبيراً، وراحت تتردد كواحدة من الحقائق المسلّم بها، كانت تتحدث عن مرض ألمّ بالحاكم، من بين أعراضه الخرف والنوم معظم اليوم في نفق محفور داخل الحديقة الرئاسية، وحين تأتي نوباته العصبية ينطلق دون وعي للاختباء فيه والسعي للانتحار، الأمر الذي تطلب تخصيص قوات كبيرة من الحرس الرئاسي، للحفاظ عليه.

كانت الشائعات قد تمّ تجهيزها في مطبخ يشرف عليه الطاهي الأكبر، ذلك الصديق الذي ظلّ إلى جواره في السر، لا ينبس ولا ينظر إلى أي اتجاه إلا إذا كانت أعين الزعيم اتجهت نحوه، والذي ظلّ يمهّد له قراراته، يمتدح الأفكار العبقرية، يزيّنها ويلقي فوقها ما يستطيع من المبهرات، رسم له طريق الأخطاء، وشجعه على خوضها، ثم في النهاية وبعدما وقعت الكوارث، ها هو يخرج منها، كما تخرج الشعرة من عجينتها، ليقع الزعيم وحيداً، وتصب نتائجها الكارثية في صالح المارشال.

الشائعات التي انتشرت بشكل لافت، كان لها مفعول السحر، سرعان ما حملها الهواء، نثرها في كل مكان، لاكتها الألسن ونقلتها إلى أبعد مدى، وشيئاً فشيئاً بات الزعيم الذي سيطر يوماً على قلوب البشر، اتقاء للشر، قبل أن يصبح الأمر عادة، يخسر الكثير من نقاط رصيده، باتت صورته الفخمة، محاطة بضباب كثيف، سرعان ما

أدخل حالة من العصيان في النفوس، وخفّض الأكف التي كانت ترفع عند الصلاة لتدعو له بطول البقاء، حوّلها إلى الابتهال، بأن تزال الغمة، وترفع عن الشعب علامات الكابوس الجاثم على الصدور، ذلك الكابوس الذي باتت له ملامح شخص واحد، له قسمات الزعيم.

فقد بعد مضي الوقت جانباً كبيراً من مهابة الممسك بزمام السلطة، تلاشت بعد أن فقد من الناحية العملية السلطة نفسها، ولم يبق أمامه إلا التشبث بأوهام لم تعد مجدية، تبخرت أحلام اليقظة، تلك التي يمارسها حكام لديهم قناعة بأن السلطة ستظل بانتظارهم، حتى وإن أرغموا على الابتعاد عنها، لا يتصورون يوماً أن الشعب الذي كان يهتف لهم في الميادين ويرفع صورهم البهية بمناسبة وبغيرها، سوف يتخلى عنهم، سوف يدع من أزاحوهم يهنأون بالسلطة، وكل ما يجب عليهم هو الانتظار لبعض الوقت، حتى تهب الجماهير وتطيح بمن أطاح بهم، ثم تعيد لهم السلطة على طبق من ذهب.

لم يكن الزعيم بعيداً عن تلك الخزعبلات، فلم يبلغه أحد أن الشعب الذي قهره سنوات، لا يشعر تجاهه بأي حب، ليس يعنيه أمره، وإن كان يرقص في أعياد ميلاده ومناسبات أنجاله، فإنه فعل ذلك اتقاء لقطع الأعناق والأرزاق، حين كانت تقارير مخبري حزبه كفيلة بإزهاق الروح وإصعادها إلى السماوات.

ظلّ منذ أن اعتلى الحكم يتصور أن الشعب لا يستطيع ممارسة الشهيق دون أن يأخذ البركة من كتبه ونظرياته، بمجسماته النصفية، وتماثيله بالحجم الطبيعي، ملأت الميادين، وانتشرت في الأزقة ومداخل البيوت صورته الباسمة، الموضوعة على أعمدة

الإضـــاءة، وشاشـــة التلفاز، في الهواء المعلق بين السماء والأرض، وداخـــل المـــياه التي تخرج فقاعاتها من خياشيم الأسماك، لم يكن يتـــصور أن الكائـــنات التي تسرح في أرجاء الوطن، من نباتات تـــتمايل أو بشر، أو حتى حشرات هائمة، يمكن أن تمارس حياتها دون أن تكـــون قد حصلت على رضائه، حتى إذ أدركته الوقائع، بات يعلل النفس بقيامة الشعب الذي لن يرضى لزعيمه، القعود في القـــصر الرئاسي مغلوباً على أمره، منـــزوع الصلاحيات، محدد الحـــركة، تحـــيط به نظرات السعاة الساخرة، كلما همهم غاضباً، ويثير اشمئزاز موظفو القصر حين يطلق شتائم ضد من يتأخر منهم عن تلبية ندائه.

مـــا عـــاد الزعيم زعيماً، لم يبق له من أبهة السلطة إلا الاسم، والمراســـم التي يقابل بها عند الدخول والخروج من القصر، الكلمات التي تكتب له بعناية ليلقيها بين وقت وآخر من شاشة التلفاز، بعد أن يكـــون الفنيون قد قاموا بإجراء عمليات عليها تظهره مريضاً، مختلاً، لتتطابق الصورة والشائعات التي تسرى، وتعيد التأكيد على أنه بات بالحالـــة التي وصل إليها، خطراً على البلاد ومستقبلها، وأن التخلي عنه، لو حدث، لن يسبب أي شعور بالأسى لدى المواطنين.

تلـــك كانـــت واحدة من حيل راح ينفذها المارشال بإتقان، وساهمت بعد وقت لم يطل في إيصال الشعب إلى كره الزعيم، راح في الخفـــاء يـــزيل صوره من داخل غرف البيوت، يسحبها حتى من الحوائط، استنـــزفت أغراضاً، ظلت من خلالها تحرض الحوامل على "الـــوحم" وإنجاب شبيه للزعيم، على الرغم من أن الأمل بالنسبة لهن كـــان معدوماً في إمكانية أن يحظى المولود القادم باسم المهيب، بعد أصـــدر القصر الرئاسي في أعقاب صعوده للحكم مرسوماً، ممهوراً

بتوقيع القائد المعجزة، يمنع على الآباء إطلاق اسم الزعيم أو أي من ألقابـــه التي لا حصر لها، على مواليدهم، ليظل هو لا غيره، الوحيد الأقرب إلى حبل الوريد، وتظل الأغاني والقصائد والدعوات توجه له وحده، لا سواه.

كانـــت عملـــية إزالة صوره من المنازل، حدثاً فارقاً في تاريخ الـــوطن، لم يكن أحد يتوقع أن تحدث يوماً، ذلك أن الشعب الذي كـــان اندفع يبالغ في إظهار الولاء، هو نفسه الذي أوصلته خيبات الأمـــل إلى الإحـــساس بيأس لا حدود له من الزعيم وشعاراته، من المـــستقبل والوعـــود، مـــن الحياة ذاتها، إلى الدرجة التي لم يعد يأبه بغضب، أو يخاف من خسارة.

(19)

أخـــذت ارتعاشة جديدة تسري في جسد الوطن للمرة الأولى، ثم تنتشر من مكان إلى آخر، باتت التساؤلات محتشدة، غير أن الفعل ظلّ هـــو الحائر في ازدحام فورة الغضب، كان الزعيم ومبغضوه يعرفون أن الشعب الذي اعتاد الاحتمال، أصبح مهيئاً لتقبل التضحيات والانخداع بكل ما يبرر به الحكام أفعالهم، تلك الأفعال الكفيلة بتحريك الثورة في الجـــبال الـــصلبة، إلا لدى الشعب الخامل، الساكن، الراضي والمرتضي بالهوان، الغاضب المقهور والمنتقد الساخر، دون أن يقدر ولو لمرة واحدة علـــى التحرك للثورة، انتقاماً لكرامة أهينت، أو أمل أضاعه الطغاة، أو مـــستقبل لم يعـــد فيه ما يبعث على التفاؤل، أو حتى وطن بات مرتهناً تحت سنابك العابثين والأغراب.

وعلى الرغم من أن الاحتمال فاق ما كان متوقعاً، إلا أن الشعب ظـــلّ يطلق نكاته الساخرة منه، ومن المستقبل، من العائلة التي لم يكن

أحـــد في السابق يجرؤ على المساس بها، ولو في أقصى درجات الهذيان، تزامن ذلك مع تطورات مكتومة تشهدها البلاد، أصبح فيها المهيب مجرد شـــخص يجلس على الكرسي الرئاسي، دون أن يمتلك من هيبة الرئاسة شـــيئاً، إذ راح الـــصبية الذين قرّبهم المارشال منه، يتحكمون بالخيوط المؤدية إليه، يقررون ما يجب تمريره، بعد أن صار الحاكم في نهاية الأمر، أشبه بلوحة حائط معلقة في صدر البهو الرئاسي.

انـــدلعت المـــواجهة حين قرّر إصدار قرار بتعيين ابنته في سدة حكـــم إحـــدى ولايات البلاد، إذ لم يتم إبلاغ الأمر إلى الصحف ووســـائل الإعلام لنشره، بل لم يتم أصلاً إخراجه من المقر الرئاسي، الأمـــر الذي هاج الزعيم معه وماج، حين لم يجده متصدراً الأخبار، وقف في مكتبه يصرخ، استدعى المارشال، أطلق في وجهه صرخات الغـــضب، تـــوالت الكلمات القاسية، فالبذيئة، لكن صديقه البارد كألـــواح الـــثلج، كان يواجه ما يقال بهدوء، كان قد درّب النفس علـــيه، وجـــرّبه في العديـــد من المواقف، هذه المرة لم ينطق بكلمة واحدة، إلا بعد أن أخذت ثورة الزعيم تخفت، بعد أن قال ما يمكن قـــوله، لـــيهدأ الحريق الذي أخذ وقتاً، واستهلك جانباً من طاقته، فاســـتوى علـــى كرسيه، تاركاً العنان لصدره كي يواصل الارتفاع والهبوط، في خفقان أشبه بمن يتجه إلى موات.

- سيدي أرجو أن تهدأ، ربما حدث خطأ ما.

• أي خطأ، أتريد إفهامي أن ما جرى ليس له علاقة بما يحدث منذ شهور، أساذج أنا كي أقبل بأن عدم نشر الصحافة والتليفزيون لقرار أصدره الزعيم جاء مصادفة؟... عن طريق الخطأ؟

- ربمـــا كان كذلك، سوف نحقق في الأمر، لن ندع ما جرى يمر دون معرفة الملابسات.

• عليك تشكيل لجنة تحقيق فيما حدث، وأن تكون النتيجة على مكتبي خلال ساعة، أفهمت؟

- سمعاً وطاعة سيدي.

• أرسل أيضاً القرار إلى كل وسائل الإعلام، أريد سماعه مبثوثاً في الإذاعة الوطنية قبل الانتهاء من لجنة التحقيق.

- لك الطاعة سيدي، سيكون ما أردت، ولكن، أرجو أن تنعم بالهدوء، فالوطن في حاجة إلى صفاء ذهن مولاي.

• سمعت كلاماً مثل هذا منك ومن غيرك، وها أنا أرى النتيجة، لو صدق ما أشك في حدوثه، فلن تكفيني رقاب الجميع، سأدوس بقدمي على كل من يفكر، ولو مجرد تفكير، بالتلكؤ في تنفيذ قرار أصدرته، هل تفهم ما أقول؟

- سيدي كل من في هذا القصر رهن إشارتك؟ وكل شعبك في انتظار أي أمر منك، إننا سيدي في هذا الوطن لا نعيش إلا من فضل النسائم التي تنعم بها علينا، وصدقني، وأنت تعرف مدى إخلاصي لك، لا أحد يجرؤ، في أي وقت، وتحت أي ظروف على مخالفة ما يأمر به الزعيم، لكن ربما ما حدث كان بفعل الخطأ، إننا بشر ونخطئ، ولا نملك عقلاً منظماً وفكراً ثاقباً كزعيمنا المفدى.

• هذا الكلام لم يعد ينطلي علي، أنا أشعر جيداً بما يدور حولي، وإذا ما تأكدت من صدق حدسي، فلا تتوقعوا أقل من زلزال، عاصفة قوية سوف تزيح كل من يقف أمامها، هل فهمت؟ إن الأمر لن يمر بسهولة، لن يمر.

- سيدي ما تأمر به سيكون، نحن هنا لإطاعة أوامرك، ونعيش من فضلك.

• ومـــا يجري في الوطن دون علمي، والتشكيلات التي تقوم أنت بتكوينها، هل هي أيضاً من بين إطاعتكم لأمري؟ أتظن أن أذنيّ مغلقة، وناظري أحيلا إلى التقاعد؟ ثم هل تظن أن صبري على هذه المغامرات المجنونة سوف يطول؟

– ما تتحدث عنه سيدي، قد تمّ لإبعاد التفاصيل الصغيرة عنك، مـــا جرى تشكيله لم يكن سوى بضعة جمعيات لحشد طاقات الناس، إعـــادة تعبئتهم لصالح الزعيم، ليكونوا جنوداً له، ثم إنهم يشكلون أكبر دلـــيل علـــى وحدة الوطن وتلاحم المواطنين مع القيادة الحكيمة، إنهم جنودك يا مولاي، وينتظرون الإشارة ليفدونك بالروح والدم.

• شـــبعت من هذا الكلام، والآن لا أرى أي مظاهر في البلاد تـــؤكد ما تقول، على العكس أسمع الآن، عن انتشار النكات، عن بطء مهمة تزيين شوارع وميادين البلاد بصوري، كيف تصبح تلك البلاد جميلة إذن؟ أنتم لا تباشرون عملكم على الوجه الأكمل، هناك إهمال ما، ولا مبالاة أيها المارشال.

– سيدي، أنا جاهز، كلنا جاهزون لتنفيذ ما تأمر به، ما رأيك في أن تـــصدر أمراً يمنع النكات من التداول؟ أما الصور فسوف نبدأ علـــى الفور في حصرها، وزيادة أعدادها، سوف نقيم تماثيلاً جديدة في المـــيادين العامة، سنلزم الجمعيات والشركات والجهات الحكومية بوضـــع مجـــسمات طولية بالحجم الطبيعي، وأخرى بأحجام صغيرة ومتوســـطة، تماثـــيل للوجه في كافة المقرات، لن نسمح بإصدار أي ترخيص للبناء يا سيدي ما لم يتعهد صاحبه بوضع تمثال نصفي لكم في مدخل البناية.

• ذلـــك ما يجب عمله في البداية، لكن فيما بعد سوف يكون هناك ضرورة لإعادة صياغة البلاد من جديد، لقد خرجنا من لحظات

مؤلمة، ويجب علينا أن نبذل جهداً كبيراً في ترتيب الأوضاع، وإعداد الشعب من جديد لمواجهة التحديات المقبلة.

- لـــك مـــا تأمر يا مولاي، سوف نبدأ في تنفيذ توجيهاتك، سوف ينتظم الشعب وفق ما تريد.

• سأرى هذه المرة، بعينين مفتوحتين، ولن يكون هناك اعتباراً من الآن أي تساهل، أو مجاملة، أرجو أن تفهم ذلك، أنت وكل من في هذا القصر، بل كل من يعيش فوق تراب الوطن.

مـــا أن غادر المارشال المكتب الرئاسي، حتى أدرك أن الزعيم على دراية بما يجري حوله، غير أنه كان على قناعة بأن الرجل القابع علـــى كرسيه الرئاسي منفوش الريش، سيدرك يوماً حجم التغيرات الـــتي حدثت داخل قصره، ونوعية حاشيته، بل وحتى في شعبه الذي راح يـــتحدث علانية عن سوءات الحكم، ويشيع ما يتبادر إليه من قصص فساد تلتصق برموزه.

"كـــل الأمور تغيرت، وعلى الزعيم أن يعيش الواقع، حتى لو غضب مني"، قال المارشال لنفسه هامساً، استطرد وهو لا يزال واقفاً إلى جـــوار مكتبه "لم يعد هناك شيء يمكن أن يظل في طي الكتمان، وعلى الزعيم أن يكف عن مكابرته وأن يستسلم للواقع".

كان المارشال الذي جمع الخيوط في يديه ببراعة، على حق، فلم يعـــد في القصر الرئاسي، من ليس يعرف أن الرجل الذي كان قوياً، الذي كثيراً ما أنـــزل الرعب في قلوب أبناء شعبه، لم يعد أكثر من مجرد دمية فوق كرسي، وجه منتفخ وعيون جاحظة، وحنجرة تمتلئ كل حين بجعجعة فارغة، تحتاج دائماً إلى مناسبة لإفراغ احتقالها.

ومـــع أن الإبقاء على الزعيم في نفس مكانه كان سيعني إثارة للمـــشاكل، خـــصوصاً مع رجل ليست لديه النية للاعتراف بالوقع

والـــتعامل مع متغيراته، رجل مثل الزعيم لا يزال يفضل التعايش مع ترهات قديمة، فإن المارشال لم تستهوه فكرة إبعاده عن سدة الحكم، إذ كـــان في إبقائــه مصلحة مشتركة، ما دام نجمه يأفل، وتنسحب جميع البسط من تحت قدميه، في الوقت الذي يتزايد فيه نفوذ المارشال وأتــباعه، وتــتطاول قامـــاتهم وامتيازاتهم، وتنتشر خيوط شبكتهم الأخطبوطية لتمسك بأطراف البلاد، ورقاب العباد.

كـــان التغــيير غير مجد ما ظلت الأوضاع على حالها، وعلى الـــشعب أن يستمر في تململه من الحكم الجائر الذي جعله في النهاية يتـــصدر قائمة الشعوب الأشد فقراً، ليكن ذلك، فلا خوف منه، ما بقـــيت الأمور مستتبة، وما اختفت نيّة المواطنين للانخراط في أعمال عنف، وما دام الأمر كذلك، فليكن له ما يريد، ليسخر، أو يتململ، يتداول الحكايات التي لا تنتهي عن الفساد والرشاوى، عن الانبطاح والنــــــزوات والهوس، المهم، ألا يتجاوز ذلك الخطوط الحمراء، التي يخـــشاها نظام حاكم مفكك في داخله، لكنه وقت الخطر سرعان ما سيلتئم، سيقف متكاتفاً، إن شعر أن هناك ما يهدد مصالحه.

استدعى المارشال على الفور مساعديه، أمرهم بإرسال قرار تعـــيين "الـــبلهاء" في المنصب، وأن يتم بث الخبر من جميع وسائل الإعـــلام بالـــسرعة القصوى، كان ذلك أمراً ضرورياً لامتصاص غضبه، يعرف أنها ما كانت لتحدث إلا بتحريض من "أم الوطن"، لكنه في الوقت نفسه، كان يدرك أن ما حدث للزعيم من تهميش، مـــن تحـــويله إلى مجرد واجهة، يمكن أن يحدث أيضاً مع ابنته التي وضـــعها المهـــيب في منصب حاكم إحدى الولايات، غير أنها في الواقـــع، ليست تدرك ما يتطلبه هذا المنصب، بل ولا تدرك أصلاً كنه ما يدور حواليها.

لم يكن هناك ما يدفع التردد لدى المارشال، لن يفقد في النهاية أي من خيوط سطوته الناعمة، سيظل يماشي الزعيم، لكنه وبمباركة مـــن الدول الكبرى سوف يصبح في الوقت نفسه متحكماً في البلاد والشعب، لدرجة أنه لا يمكن حتى للطيور الموسمية عبور سماء الوطن دون علمه، وبغير أن يسمح لها أصلاً.

ما دام الأمر سيتوقف عند حدود منصب، فما المانع؟ لن يكون للابنة في منصبها الإضافي ناقة ولا جمل، فهناك من سيديرون الأمور بالنـــيابة عـــنها، وحتى هؤلاء لن يخرجوا في الأساس من دائرة الذين يحـــيطون بـــه، والذين يعتمدون في استمرار وظائفهم على مباركته وحمايته.

ثمة شيء كان قد ظلّ عالقاً في ذهنه منذ أن غادر المكتب الرئاسي، يتعلق بما قاله الزعيم عن إعادة ترتيب السلطة في الوطن، في النهاية يمكن الـــتعامل معـــه، وفـــق ما يتماشى في الشكل مع رغبات الحاكم، وفي المضمون مع مصلحة المارشال، المتوافقة في تفصيلاتها مع مصالح الدول المهيمـــنة، ولا تتعارض مع الترتيبات التي أقرتها ليس للمنطقة بأكملها، ولكـــن حـــتى في داخـــل أحشاء كل دولة، وتفاصيل الحياة السياسية والاجتماعية فيها، في مناهجها الدراسية وأعداد خريجي جامعاتها وأنواع تخصـــصاتهم، وحـــتى في أعداد البشر وجنسهم، كانت أصابع الدول المهيمـــنة قـــد امـــتدت لتصل إلى جوف الوطن، سواء برجالها الذين يخططون ويراقبون عن بعد، أو بواسطة الذين زرعتهم في كافة مفاصل الـــسلطة، وربطـــت بين استمرار مصالحهم وقدرتهم على تنفيذ أدوار حاسمة، تصب في إطار خطط وضعتها للسيطرة على القرار والموارد.

ذلـــك ما دفع الطمأنينة إلى قلب المارشال، إذ كان على قناعة بأن استمراره سيظل مؤمناً، ما دامت تلك الدول تعتبره حارساً على

مصالحها، ومن دون أن يتم الزج علناً باسمه، كان ذلك الوضع مريحاً لــه ولهــؤلاء الذين ينوب عنهم في الخفاء، وفيما كان الزعيم قابعاً خلــف كل قرار، وفي واجهة كل فعل، ظلّ المارشال محركاً بذكاء، ودافعاً بقدرة فائقة ونعومة، لكل ما يجري تداوله أو قوله، تنفيذه أو حشده في ذلك الوطن النائم، وما دام الأمر يسير هكذا، فما الداعي لتغــيير قــيادة البلاد، ما الذي ستضيفه أي عملية لإزاحة الجعجاع الأكبر عن منصبه؟ حتى وإن ازدادت ترهاته، أو حاول في أي لحظة إصدار قرارات بهلوانية؟

غــير أن المشكلة لم تكن في حاكم سيظل تحت السيطرة، مع قــدرة المارشــال على التنبؤ بالكثير من ردود أفعاله، بالمسارات التي تحدّد نــزقه، وتحفز نــزواته، يدرك كيف يتعامل معها، كيف يحوّله في الــنهاية إلى أداة طــيّعة، شديد الليونة، يعرف جيداً كيف يخمد ثــورته، يطفئ رغباته مهما ازداد جموحها، لكن المشكلة تكمن في هذه السيدة التي أطلق عليها لقب أم الوطن، والتي لا تنتهي طلباتها، حتى باتت تشكل حالة مرضية يصعب التعامل معها، فما أن يتم تلبية ما أرادت، حتى تكون قد أعدت قائمة جديدة، ليت الأمور تتوقف عند حدود الطلبات المادية، بل المشكلة أنها تندفع لاقتناص امتيازات لا حــصر لهــا للابــنة، تحسباً لأي محاولة من الزوجات الأخريات للمطالبة بمزايا أكبر لأبنائهن.

تلك الزوجة التي باتت تواصل الزعم بأن الفضل يعود إليها في نجــاح الانقــلاب، والتي لا تكف عن الادعاء أنه لولا تلك "الثورة المباركة" لكانت البلاد غارقة في ظلام الفقر والجهل والتخلف، إنها لا تريد أن ترى بعينيها الصورة الحقيقية للأوضاع التي آل إليها الوطن، بسبب نــزوات زوجها المهيب ومغامراته، تلك التي أوقعت البلاد في

حفرة عميقة، بات من المستحيل الخروج منها، دون تضحيات موجعة.

كانت الأم سبباً رئيسياً في دفع الزعيم إلى اتخاذ قرارات متخبطة، حدث ذلك منذ أن قامت بجولات خارجية بحثاً عن علاج للعقم، كلفت فيها خزانة الدولة أموالاً طائلة، ثم بعد عودتها، راحت القرارات تصب في طريق وحيد، تأمين مستقبل من لم تكن غير نطفة مزروعة في أحشائها، لتصبح فيما بعد، مشكلة ضخمة واجهتها البلاد حين تحولت بفضل الزعيم ونزوات زوجته، إلى مزرعة كبرى لا عمل للساكنين فيها سوى السهر على راحة الأم وابنتها، والأنجال المفترضين.

كانت بدايات الكارثة قد تزامنت مع هبوط الرضيعة إلى الحضانة، وبداية السعي لضمان مستقبلها، وهو الأمر الذي جعل الوطن من الناحية العملية أسيراً للأم، تمهيداً لتمرير عملية ارتهانه بسهولة أكبر فيما بعد، لمن كانوا يوماً.. رؤوساً للأفاعي.

(20)

شعر الزعيم بارتياح إذ سمع هذه المرة بأذنيه النبأ تبثه الإذاعة الوطنية، أدرك أنه لا يزال على رأس السلطة، وأن الجميع بمن فيهم المارشال يتبعون أوامره، لم يعد يداخله شعور بالقلق، إنه زعيم الأمة، وما يأمر به تتم الاستجابة له، تماماً كما كان يحدث في السابق، غير أن أم الوطن كان لها رأي آخر، فهي منذ البداية لا تشعر بارتياح تجاه المارشال، كانت ترى في الرجل مخادعاً كبيراً، يجيد الانحناء انتظاراً لمرور العواصف، لكنه في النهاية لا يحركه إخلاص بقدر ما يجيد الحفاظ على مصالحه، ولو كان ذلك على حساب كرامته الشخصية.

ظلت تواصل إلحاحها على الزعيم كي يتخذ قراراً بإقصاء صديق عمره، يستبعده إلى خارج القصر، راحت تحذره من مؤامرات يدبرها في الخفاء، تضخمت المخاوف عندما صدق حدسها وتأخر نشر القرار الخاص بالابنة.

صار الزعيم بين فكي كماشة، عليه أن يجاهد كي يتخلص من ألاعيب حاشية لم تعد تدين له بالولاء، وضغوط زوجة ازدادت شراهتها للمناصب والامتيازات، وترفض التعايش مع واقع لم تعد فيه هي السيدة الوحيدة في حياته.

حلقة تضيق حوله، أبطالها من المقربين، أما الشعب فلم يكن له أي حساب في هذه المعادلة، بعدما تمكن خلال سنوات، عبر الخوف والوعود من تحويله إلى مجرد قطيع، لا قدرة لمن يضمه على الوقوف، وليس التحرك لتنفيذ ثورة شعبية ضد نظام فاسد، مدجج بكل أدوات القمع والتعذيب، أحاط البلاد من جهاتها الأربع بأقبية صالحة لإخفاء مواطنيه بأكملهم من فوق وجه الأرض.

لم يكن الزعيم بسطوته قادراً على رفض الطلبات المبالغ فيها التي تتقدم بها الأم، مستندة على ما لديها من حظوة في البلاد، إذ كانت تحظى بشعبية أكبر من زوجها، بعد أن أقامت سلسلة مشاريع وأنفقت عليها من الخزانة العامة ثم نسبتها إليها، أطلقت عليها اسمها، ليصبح أفراد الشعب من بعد ذلك دراويشاً في جوقة مكونة من منشدين هائمين، يرددون طيلة اليوم مدائحاً في سجايا الأم الحنون.

في هذا الوقت لم يكن الشعب يعرف بالصراع الدائر في قلب القصر الرئاسي، بين فريقين كلاهما يلتف حول القائد، الأول يحرضه على إزاحة الحاشية، والثاني من نفس الحاشية التي قامت هي أصلاً بإبعاده في هدوء عن طريقها، ودون أن يشعر أحد بما حدث.

ومــع أن يــد الملهم غلت، إلا أن الأمل ظلّ لديه في أن يقوم الشعب بمساندته إن حاول الإطاحة بحاشية أصبحت تتدخل في كافة التفاصيل، وصار من غير الممكن أن يخرج أي قرار عن إطارها، ومع أنــه فكّر تحت إلحاح السيدة الأولى تارة، وتحت ضغط حالة غضب شــديد كــان يشعر بها في بعض الأحيان من صديقه اللدود، إلا أنه كلمــا ســعى للإقدام على تحويل النوايا إلى فعل، كان يحسب ألف حــساب لغــضب الدول التي بات المارشال رجلها الأول، والوحيد القادر على تزكية الزعيم لديها، بل والوحيد الذي بيده مفتاح بقائه على قمة الحكم.

ذلــك هــو ما كان يؤلم الرجل الذي كان مهاباً، لكنه رغم جعجعاته المتواصلة التي كان يسعى من خلالها إلى تمثيل دور الحاكم القــوي، ظــلّ في قــرارة نفسه يدرك أنه من الناحية الواقعية بات مكتوف اليدين، مجرد ممثل على خشبة مسرح، عليه أن يؤدي دوره بإتقــان، حــتى لــو كان هذا الدور موجهاً لمن هو خارج القصر الرئاسي، عليه أن يجيد الدور، وأن يتشبث بحصنه الأخير.

ومــع أن ممثليات الدول الصديقة وجمعياتها ومنظماتها، التي عــادة ما تتخفى وراء المساعدات الإنسانية، بدأت تحط رحالها في كافــة أنحاء الوطن، فإن ذلك شكّل دعماً إضافياً للمارشال، لكنه في الــوقت نفــسه لم يسبب إزعاجاً للزعيم، إذ سبق له الموافقة وبمحــض إرادته على صفقات، عقدها صديقه خلال سفراته بعد ظهــور مــشاكل الحضانة، وتطلب الأمر معها اللجوء إلى الدول الشقيقة والصديقة، للحصول منها على إعانات عاجلة يمكن لها أن تساهم في إنقاذ شعب كان أفراده قد بدأوا يترنحون، تحت ضربات هشاشة العظام وزحف كساحها.

هبطت الطائرات حاملة وفوداً متعددة المهام، جاءت المعونات مع خبراء، للإشراف والتدقيق، اتخذوا أماكنهم في القواعد العسكرية والبنايات الفخمة، ارتفعت لافتات بأسماء المنظمات الإنسانية والخيرية فوق عمارات شاهقة، واقتطعت من المعونات مبالغ تكاد تتجاوز النصف للخبراء والوكلاء في الداخل، ظهرت المساعدات والقروض في خدمات لامسها الشعب وأخذ يتحدث عنها، يحمدها للدول الكبرى، وينسبها مجدداً لحكمة القائد وحسن تدبيره، كان شعباً عجيباً، إذ على الرغم مما حاق به في عهد ذلك الزعيم، إلا أنه يبحث عن أي حسنة له، يضخمها، ويظل يرددها، ثم يتعامل معها على أنها بعض من سجاياه، سرعان ما يغضب على النظام بأكمله، لكنه يتوجه في أسرع وقت إلى أحضان زعيمه، ويسكن في دفئها.

وفي الوقت الذي كانت تعاود قائد الأمة بين الحين والآخر نوبات من غضب كلما وجد نفسه محاصراً، منزوع السطوة، فإنه عادة ما كان يركن إلى الهدوء بعد اعتذارات تقدم له من المارشال، وعقاب كان يسارع بإصداره ضد المتسبب، ولا ينفذ في العادة.

فكّر الملهم في الاستقواء بالأجنبي للخروج من حالة بائسة وجد نفسه فيها، لكن حين أخذ يبلور الفكرة، ويستحضر ذهنه للإقدام عليها، اصطدم بأمرين، الأول نصيحة صارمة من سفير الدولة الأكبر حين حضر إلى القصر الرئاسي، قالها بوضوح:

- لا يمكن الاستغناء عن المارشال، أو حتى السماح بإبعاده عن منصبه، إن ذلك من الخطوط الحمراء التي لا يجوز تجاوزها.

زاد السفير من النصيحة:

– مـــن المهم لاستمرارك زعيماً، أن تجيد التعايش مع الوضع القـــائم، وإلا سيكون من اليسير التخلي عنك، استبدالك في اللحظة التي سنرى فيها أن مصالحنا تتعارض مع الإبقاء عليك.

لم يستسغ الزعيم ذلك، بعد أن ظلّ يغضّ الطرف مرات عن ما يـــسيء إليه، سواء من تجاهل الدول الكبرى له، أو حتى من تجاهل القـــريبين في القصر الرئاسي، غير أنه هذه المرة وجد نفسه يصرخ في وجه السفير:

• أنتم لا تدركون شيئاً عن هذا الوطن، كيف تأتي لتقول لي ذلـــك؟ ألا تعرف من أكون؟ ألم يخبرك رجال السياسة في بلدك من يكـــون الـــزعيم؟ كيف تسمحون لأنفسكم أن تقولوا لي مثل هذا الكلام؟

– ثـــق تماماً أننا نعرف كل صغيرة وكبيرة عن دولتك؟ نقدر جـــيداً المـــأزق الـــذي أنت فيه، لكن هذا لا يعني أن نتركك تعاقر أوهامـــك، عليك أن تدرك جيداً أن الإبقاء عليك هبة تمنحها بلدنا والمجتمع الدولي لك، على أن لا تتصور أن تلك منحة أبدية، في نهاية الأمـــر فإن الإبقاء عليك فوق هذا الكرسي هو أمر راجع لتقديرنا، وليس بسبب أي مكانة تحتلها لا في بلدك ولا في غيرها.

• أقـــول لـــك مـــرة أخـــرى، عليك أن تحسن الكلام في حضوري، لن أسمح لك طويلاً بأن تستمر في هذا الكلام البغيض، كما يجب أن تعلم أن بقاءك أنت في بلدي مرهون برضائي عنك، وبإمكـــاني أن أطلب من رئيس بلدك أن يستدعيك وأن يستبدلك بآخر.

– أيها السيد، تعلم أن الرسالة التي أبلغتها لك للتو ليست من عـــندي، لقد حمّلني إياها رؤسائي، إنهم هم الذين يقدرون الموقف،

وكمـــا تعرف فإن البقاء في المكان الذي تجلس فيه، مرهون بما يراه قادتنا.

• إنهـــم قـــادتكم أنـــتم وليسوا قادتنا، عليكم أن تفهموا أن بإمكـــاني تحـــويل هذا الوطن، بل والمنطقة بجميع شعوبها إلى بركان يحرق جلودكم إن فكرتم يوماً في الإطاحة بـــي.

- هذا الكلام مبالغ فيه جداً، ومع ذلك فقد كان بإمكانك أن تقوله في وقت سابق، لكن بعد كل التطورات التي حدثت في المنطقة والعـــالم، فإننا نأمل أن تستفيق من الأوهام، وأن تتعامل مع الأمور بواقعية.

• مـــا الذي تقصده؟ ما الذي يجعلك تقول هذا؟ ألم تسر في طـــرقات الوطن؟ ألم تسمع عن مكانة الزعيم في قلوب الشعب؟ ألم تسمعهم وهم يهتفون لي ويدعون لي بطول البقاء؟

- نعرف كل شيء عنكم وعن شعبكم، ربما نعرف نحن أكثر ممـــا تعرف أنت عن مواطنيك، ولعل هذا ما يدفعنا لإسداء النصيحة لـــك في نهاية هذا اللقاء: سر مع التيار، ولا تقف في مواجهته، وإلا فإن أمر إطاحتك سيكون يسيراً علينا، بل وأيسر مما تتصور.

قال كلماته ثم غادر المكان، لكن ما جرى في تلك المقابلة، على الرغم من مكابرة الزعيم، مثل لحظة فارقة بالنسبة له، قبلها كان يظن أن البقاء في السلطة أمر حتمي، واهماً بأن ذلك مرجعه شعبية جارفة في الـــوطن، ومكانة عالمية، ورسوخ داخل عقول وقلوب المواطنين، لكن ما أبلغه السفير به، أعاد إليه الشكوك من جديد، أراد أن يتثبت مـــن مكانته لدى أبناء شعب يتوهم أنه وهبه الحياة، وبات عليه أن يـــسدد الدين، بأن يهب ثائراً هادراً في أي لحظة يستشعر فيها خطراً على حياة زعيم، لا استمرار لحياة الشعب بدونها.

راح يسترجع ما قاله السفير له، استدعى المارشال، الذي كان قد استمع إلى كافة التفاصيل، عبر كاميرات وأجهزة تنصت ممتدة من المكتب الرئاسي إلى أذنه وعينيه.

وعلى الرغم من أن شكوكاً هائلة أدخلتها التصرفات الأخيرة من حاشية النظام في نفس الزعيم إلا أنه كان لا يزال في حاجة ماسة إلى ذراعه الأيمن، استدعاه على الفور، أمره بتسيير مظاهرات كاسحة في ميادين الولايات الأربع تهتف بحياته وتعلن تجديد البيعة، وأن تنقل المسيرات على شاشة التليفزيون الوطني، مع وصف مفصل مفعم بالحماسة، مع استدعاء العشرات من مراسلي التليفزيونات العالمية.

كان يريد بهذه المظاهرات بعث رسالة إلى الدول الكبرى، تلك التي بات في يديها أمر استمراره في السلطة، بأن الشعب لا يزال على هواه، وأنه لو وضع في الاختبار فإنه سيهب الأرواح فداء لقائد النهضة، وباني العزة، وملهمها في الحاضر... والمستقبل، طلب ذلك على الرغم من أنها رسالة معتادة كثيراً ما لجأ إليها أمثاله، دون أن تسفر في النهاية عن نجاح.

خرجت المظاهرات اكتظت الميادين ببشر من كل مكان، وفي اللحظة التي حددها المارشال لأتباعه كانت كافة الترتيبات جاهزة، الشعارات واللافتات، الحناجر، والمبالغ التي سيتم توزيعها على المشاركين، والشطائر التي ستمنح للفقراء القادمين للتو على عجل من أقصى حدود الوطن، والهراوات التي استوردت حديثاً من الدول الراعية للديمقراطية، والتي ستكون جاهزة في أيدي الجنود، كدليل على إمداد حماة الوطن بأحدث ما يكتشف من أدوات القمع، سعياً لإنجاز المهمة الوطنية المتعلقة بجعل أبناء الشعب في فورة الانفعال، يقفون عند حدود الأدب، وينضبطون.

تابع الفذ وقائع المسيرات على شاشة التليفزيون، راح صوت المذيع يتجاوز أصوات الهتافات، كان الرجل متحمساً بأكثر مما يجري على الأرض، إذ لم تفلح المنح النقدية ولا الشطائر، ولا حتى الهراوات المكهربة في دفع الحماسة إلى شعب سارت وفوده رغماً عنها لتهتف، كان معظمهم قد خرج لتوه من مأساة المرض، ليلاحقه الفقر، ولا تزال بطونه يجتاحها أنين من الجوع بين الحين والآخر، على الرغم من أن المفدى جلب المعونات من الدول الكبرى، فمع أنهم ظلوا وقتاً طويلاً يهتفون بحياة من أعاد إليهم الرمق، إلا أنه مع تناقص المواد الغذائية واستمرار الفاقة، سرعان ما انكسرت نفوسهم في النهاية، راحوا يترددون على غير العادة في الخروج في مظاهرات مثل تلك التي لا هم لها إلا الهتاف بحياة زعيم انتهكت النكات حصونه، وأسقطته في العيون شائعات عن فساد البطانة، ودفعت في نفوس الشباب تمرداً راح يطل، حين ضربهم الشلل والمذلة.

ومع أن وسائل الدعاية اعتبرت التظاهرات تجسيداً للحظة فارقة في تاريخ الأمة، وعلامة لا تقبل الشك على مدى الشعبية التي يتمتع بها الرجل، فإن لا أحد في خارج الحدود، انطلت عليه الخدعة، مثلما اخترعها هو وتعايش معها، كانوا يدركون بطريقة صنع المسيرات في ذلك الوطن، وفي الأوطان الشبيهة، والتي تكون جاهزة للاندلاع وفقاً لمزاج حكامها، في أي مناسبة، وغالباً دون حاجة لمناسبات، لكنهم أيضاً كانوا في العادة لا يرفعون إصبع الاحتجاج، حتى لو خرجت المسيرات تهتف ضدهم، وضد التدخل الخارجي في شؤون البلاد، هي في الأصل منتهكة... حتى النخاع.

في الوقت الذي كان يعيش فيه الزعيم في خيلاء، فرحاً برؤية الحشود الضخمة على شاشات التليفزيون، كان المارشال والحاشية

يجيدون مداعبة هوسه الطاغي، راحوا يعتبرون ذلك الحدث، بمثابة مبايعة جديدة، الأمر الذي يعني في النهاية إدخال الطمأنينة في نفسه، بعد أن ظلت خلال السنوات الماضية تراودها الهواجس، منذ اكتشف أن بعض أوامره لم تقابل بحماس، فيما لم يتم تنفيذ أخريات، ثم ازدادت الهواجس بعد مقابلته السفير واللهجة الخشنة التي استخدمت ضده، كانوا يفعلون ذلك بنصيحة من صديقه المارشال الذي لم يكن يمانع أصلاً في الإغداق بالإطراء، ما دام ذلك سيشكل ساتراً على ألاعيب يخططون لارتكابها، وحلقات راحوا في هدوء يضيقونها على رقبة وطن بات في النهاية طيعاً، مثل خاتم في الإصبع.

استغرق الزعيم في مكتبه الرئاسي وقتاً حتى أن الحاشية التي تحيط به مثل ظله، ظنت أن هناك أمراً خطيراً لن يكون أقل من إصابته بموت مفاجئ، بدا الأمر أكثر احتمالاً في السنوات القليلة الماضية عنه في أوقات سابقة، كان يسود فيها اعتقاد بأن أمثال هذا الزعيم لا يموتون، ليس لأنهم محفورون في قلوب أبناء الشعب، بل إن ملك الموت لن يجد لديه الجسارة على اختراق حجب طاغية متعجرف شديد القسوة.

راحت الحاشية تسارع بإبلاغ المارشال مثلما تفعل في كل مرة، بتطورات الموقف، ناقلة له حتى الخواطر التي تتوقع ورودها في ذهن الزعيم، قبل أن يتوجه بنفسه إلى المكتب الرئاسي ويستأذن للدخول على الرجل الذي طالت جلسته على غير المعتاد، خصوصاً في الوقت الذي ذوت فيه أحلامه الكبرى، وانطفأت تلك الشمعة المتقدة التي كانت تدفعه لممارسة أحلام اليقظة.

كان الزعيم مستنداً على مكتبه، تحيط به دوائر من الدخان نفثها للتو، ومع أن الغرفة كانت عابقة بالدوائر البيضاء التي تسبب في

العادة إزعاجاً للمارشال، إلا أنه فعل مثلما يفعل في كل مرة، تظاهر باستنـــشاق الغلالـــة الدخانـــية، معتبراً أن ما ينفثه الفذ، يملأ القصر الرئاســـي طـــيلة اليوم بالمسك، لكنه ما أن نبس بجملته، حتى بادره الملهم:

- جئت في الوقت المناسب، يبدو أنك تقرأ أفكاري.

– خيراً يا سيدي، أنا دائماً طوع أمرك.

- كنت أفكر في أمر يخصك؟

– يخصني أنا، وهل لي أن أستحق هذا الشرف.

- تستحقه، للدرجة التي أفكر فيها، بإبعادك عن هذه الوظيفة.

– إبعادي!!!

- نعم، إبعادك، أنا أفكر في إسناد منصب آخر لك، إن ذلك أفضل.

– أنا طوع أمرك، غير أن الأفضل لي، أن أبقى إلى جوارك، إن هذا هو منتهى آمالي.

- لا، لا، سوف أصدر قراراً بتعيينك في منصب وزاري.

– كما تأمر، أنفّذ، في أي مكان تريد، سأكون في خدمة زعيم الأمة، إن هذا هو ما يتمناه أي فرد من أبناء الشعب.

- إذن، ستصبح من الآن وزيراً للشؤون الدينية في الحكومة.

– أنـــا طوع البنان، لكنكم يا مولاي أكثر من يعرف في هذا الوطن، إني لا أصلح لأي منصب ديني، فأنا كما تعرفني لست أفهم كثيراً في مجريات حقيبة كتلك.

- أنـــت تفهـــم في كـــل شيء، وحتى لو لم تكن تفهم، فإن بوسعك أن تحاول.

- إلا في هـذا المنـصب يا سيدي، إن الأمر شديد الصعوبة عليَّ.. سأسجد شكراً إن أعدتم النظر في هذا القرار.

• لا... لـن أتـراجع عن قراري، إن هذا تكليف، وعليك تنفيذه.

- سأنفّذ يا سيدي، سأنفّذ، ما دامت تلك رغبتكم، أنتم أعلم بمصلحة الوطن، ونحن مستعدون للتضحية بأرواحنا في سبيلكم أولاً، وسبيل الوطن.

طأطـأ المارشال رأسه، تظاهر بالطاعة وهو يهم خارجاً، أدرك في تلـك اللحظـة أنه على الرغم من أن أمر تحجيم الزعيم يتم بدقة عالية، ومراعاة شديدة لحساسية الإطاحة النهائية، إلا أن ما كان يتم في الواقـع، أصاب الرجل بالتوجس، جعل الشك يداخله هذه المرة، ويـسكن في الأحشاء، إلى الدرجة التي يقرر فيها إبعاد صديقه عن بيت الرئاسة.

لم يطـرأ في ذهـن المارشـال اليقظ في تلك اللحظة، السؤال المفترض صعوده، وهو من الذي سيحتل مكانه في القصر؟ من يمكنه الـسيطرة علـى تلك القلعة المحتشدة بالاستشاريين وكبار الموظفين ورجـال الدولـة الأهـم؟ كان همه الأساس هو الانتقال إلى مكتبه وإغلاقه ثم الاتصال بسفير الدولة الكبرى، وإبلاغه بما جرى والطلب إلـيه بالتدخل لوقف تعديل سيطيح به، وهو الرجل الخادم، المحافظ على مصالحهم.

ومع أن السفير راح يسأل عمن يكون قد اختاره الزعيم ليحل محلـه، فـإن المارشال سرعان ما أدرك أن أمراً كهذا كان لا بد أن يكـون معروفاً، لكن وقتاً طويلاً لم يمض، إذ دقّ الباب أحد معاونيه القـريبين، ومدّ يده بورقة، حملت قراراً مكتوباً بخط الزعيم، يقضي

بأن تعهد جميع المسؤوليات التي كان يضطلع بها المارشال، اعتباراً من الغد إلى... أم الوطن.

استشاط غضباً في تلك اللحظة على الرغم من أن محادثته مع السفير كانت لا تزال جارية، أبلغه باسم من سيعهد إليه بمهام وظيفته، طلب السفير منه الهدوء، طمأنه بأن الأمور سوف تسير وفق ما يريد، وأن بلاده لن تتخلى عن صديقها، ولن تسمح بأي تغيير يفكر به الزعيم أو سواه من حكام المنطقة، دون أن يقوم بالتنسيق اللازم مع بلاده، وقبل أن يحصل على الضوء الأخضر منها.

لم يطل الوقت، الذي كان المارشال يجلس فيه على جمرة متقدة، إذ سرعان، ما كان السفير قد حمل عصاه واتجه بها إلى القصر الرئاسي طالباً موعداً عاجلاً لمقابلة الملهم، وما أن دخل حتى وجّه إليه تحذيراً من مواصلة اللعب بالنار، مؤكداً أن أموراً كتلك لا يجب أن يقوم بها منفرداً، وأن بلاده إن تسامحت مع هذه الحماقة فإنها لن تسمح بوقوع ما يماثلها مستقبلاً، وتحت أي ظروف.

استطرد السفير قائلاً:

- الأمر لا يتوقف على إقالة المارشال من منصبه وتعيينه في منصب جديد، المهم هو عدم إجراء أي تغيير في أي منصب دون أن يكون لنا به علم، من المهم الحصول على موافقتنا أولاً قبل الإقدام على خطوة كتلك، لن نقبل بأي حال من الأحوال أن نكون نحن آخر من يعلم.

• أيها السفير، إذا لم يكن هذا تدخلاً سافراً في شؤون الوطن، فبماذا يمكن تسميته؟

- لن أجادل في هذه النقطة، سمّه ما تشاء، لكن ما فعلته يمس بمصالحنا مباشرة.

• مصالحكم!!! ترقية موظف في قصر إلى وزير، يدخل في إطار الإضرار بمصالحكم؟ هذا ما لم أسمع بنظير له من قبل؟ أليس من حقي كحاكم لهذا الوطن أن أغيّر من أشاء، وأسند أي منصب لأي مواطن؟

– أنت تتحدث عن الماضي، حين كان يحق لك فعل ذلك، ونحن نتحدث عن الحاضر والمستقبل، الآن يجب أن تحصل على موافقتنا في كل كبيرة وصغيرة، قبل أن تشرع فيها، لقد لمحنا لك بذلك أكثر من مرة لكنك تجاهلت الأمر.

• هل هو أمر؟ أمعقول أن تتبدل الأمور إلى الدرجة التي تأتي إليّ فيها، لتقول مثل هذا الكلام، هل تتصور أننا عبيد لديكم؟

– نحن لا نتصور، نحن نفعل، وعليك أن تدرك أنك لست الوحيد الواقع تحت سطوتنا، إن أمثالك كثيرون، ممن تصوروا أنفسهم من الأسود، ولكنهم سرعان ما غيّروا جلودهم حين هبّت الرياح المغايرة، استبدلوها بفراء الأرانب.

• لن أكون كذلك، تاريخي النضالي لن يسمح لي.

– سنجعله يسمح، إن لم تفق من أوهامك، ألا تسأل نفسك يوماً؟ من الذي يقف إلى جوارك الآن؟ من سيدافع عنك إن حملك أحد جنودنا بعد ساعة واحدة وألقى بك من النافذة؟ هل تظن أن أحداً سيركض للانتقام من القاتل؟ سيقوم بتسيير المظاهرات للهتاف ضده؟ هذا إنذار أخير، وعليك أن تفيق من أوهامك، وإلا فإننا قادرون إن لم تنفذ ما نقوله بالحرف الواحد على إبعادك من كرسيك.

• وما الذي تطلبونه إذن؟

– إعادة الأمور إلى ما كانت عليه، هذا أولاً.

• وثانياً؟

- الاكتفاء بوجودك حاكماً على تلك الصورة، مجرد حاكم صوري، شخص من الشخوص التي وضعناها على الكراسي أو أبقيناها في مكانها دون أن يكون لها حق التدخل في أي شأن بالبلاد، نحن فقط الذي نحكم، أنا الحاكم الفعلي لبلدكم، هل فهمت؟ أما أنت وغيرك فمجرد أشكال لتكملة الصورة.

أسقط في يد الزعيم لم يكن قد استفاق بعد من نشوة مشهد المسيرات الحاشدة، ولا من الكلام المعسول الذي كاله أفراد الحاشية عن تعلّق الشعب به، أدرك أن لا أحد من حوله ولا من خلفه سوف يحميه إن لم يساير التيار، ما لم يقبل بأن يكون حاكماً أشبه بقطع الخشب المصنوعة بعناية لرقعة شطرنج.

انهارت أحلام التوسع، وانتهى زمن الخطط التي كان يسهر الليل لأجلها، انتظاراً لوقت يتحول فيه الوطن التعيس إلى إمبراطورية تليق به، انتهى ذلك الزمن، وبات الزعيم لاعباً مدحوراً يعيش أقسى لحظات الهزيمة.

عند تلك الوقفة الفاصلة، كان لا بد له أن يعيد حساباته من جديد، أدرك دون أن يكون هناك في الأمر شك، أن لا منجاة له إلا بعدم تجاوز حدوده، حتى لو كان ذلك على حساب سطوة زوجته الأولى، تلك السيدة القاسية، التي لن تترك تراجعه عن تعيينها في منصب المهيمنة على شؤون القصر يمر بهدوء، لكن كيف له أن يفهم امرأة لها كل تلك الغطرسة بما طرأ؟ كيف له أن يبلغها بما أصبح يدركه جيداً؟ إن الزعيم القوي الذي ظلّ يمسك البلاد بأطراف أصابعه، والذي كان يشعر بالضجر كون مساحتها بولاياتها الأربع أقل من حجم طموحه، قد بات غير قادر على السيطرة على الغرفة

المجـــاورة لمكتـــبه في داخل القصر، لا بل ولا حتى مكتبه، أو الحمام الملحق به؟

علـــيه منذ تلك اللحظة، أن يقوم من نومه ويتجه كالعادة إلى مكتـــبه الرئاسي، لا لكي يتخذ قرارات تاريخية كما كانت تصفها الحاشية وزمرة المطبلين، بل لتمثيل دور الحاكم في دراما الوطن.

(21)

أمـــام الوهن الذي بات واضحاً على قسماته، راحت أم الوطن تتـــساءل دون أن تـــتمكن من انتزاع إجابة شافية، كان في معظم الأوقـــات يلجـــأ إلى الصمت، تاركاً العنان لعينيه أن تتطلعا للفضاء الممـــتد في لحظات النهار، والغرق في دخان غليونه حين ينشر الليل عتمته في رحاب الوطن.

الـــزوجة الأولى، التي لا زالت تحتفظ حتى الآن بمكانة لائقة، لم تستطع على الرغم من سطوتها، قطف جملة واحدة ذات معنى، حتى أنها في النهاية وبعد محاولات عديدة، باتت على يقين من أن الزعيم، ذي الحظوة، يقترب أكثر من أي وقت آخر من حافة الخرف.

كانـــت حتى ذلك الوقت لا تفهم السبب الحقيقي الذي منعه من الإيفـــاء بـــوعده، بإحلالها لتصبح ممسكة بمفاتيح أسرار البيت الرئاسي وشؤونه، كانت على بعد خطوة من أن تحتل منصباً رسمياً ظلت تتطلع للحـــصول علـــيه، ليضاف إلى لقبها الشرفي كأم للوطن، ذلك اللقب المنتـــزع في الأصل بحكم كونها الزوجة الأولى، لكن المنصب الجديد لو اكـــتمل، لـــصعد بها من منصب المسؤولة الأولى في ديوان الحكم إلى مناصب أعلى وفي فترات زمنية متقاربة، لم يكن لديها أي شكوك في أن هـــذا سوف يحدث، وخلال وقت محدود، إذ كانت مثل زوجها، تظن

أن الوطن لا يستطيع أن يتحرك إلا بأطراف أصابعهما، وكان لديها في الوقت نفسه قناعة بأن المارشال، لولا أنه شديد الغباء لكان استطاع استغلال قربه الشديد من الزعيم، للوصول إلى منصب أكبر، ليس أقل في كل الأحوال من رئاسة الحكومة، أو احتلال منصب الرجل الثاني في الدولة، وهو الأمر الذي ظلّ يراودها، والذي تدرك أن الاقتراب منه، يتطلب ركوب منصب المسؤولية عن الديوان الرئاسي.

وفيما راحت مدفوعة بغيظ عارم، تجاهد لمعرفة السبب الذي يكمن في عدم تفعيل قرار أصدره الزعيم، ويخصها، كان أمل الأمة وحامي حماها، يجتاحه الغضب، بعد أن اكتشف في النهاية عمق التحول الدراماتيكي الذي وقع في شباكه، بعد سنوات من السير في طريق توهم أنه سيؤدي إلى تحقيق الإمبراطورية، تلك التي سوف يتمكن خلالها من حكم ربع مساحة الكرة الأرضية، وإملاء شروطه على القوى الكبرى، وإجبارها على تنفيذ كل ما يأمر به.

لم يكن يتخيل حتى في أسوأ الافتراضات أن يؤول الحال إلى درجة أن يصبح محاصراً، مقيّد الحركة، محاطاً بأعوان لا يشعرون بأي ولاء تجاهه، وأن يتحول الوطن في الختام إلى بقعة منتهكة السيادة، لا تملك التصرف حتى في أتفه شؤونها، دون الحصول على موافقة من السفير القابع على بعد كيلومترات من المقر الرئاسي، هذا الذي أصبح بإمكانه أن يتجول في أي مكان، وأن يجتمع بأي شخصية، بل ويعترض على أي تصرف، دون أن يكون للزعيم الحق في اتهامه بالتدخل السافر في السيادة.

بات القوي محجّماً، لا يتحرك إلا في محيط مكتبه وحديقته الرئاسية، فيما السفير الذي هبط فجأة بالباراشوت على أرض الوطن في أعقاب تفكيك الحضانة، يسرح في البلاد، ويمرح.

انطلق يفكر في طريقة للخروج من المأزق، عاد من جديد يذرع حديقـــته، يجـــوس بـــين أشجارها، يرتكن إلى أحد المقاعد الفخمة المنتصبة بين مربعاتها، أحرق في ساعة، متراً من السيجار، نفث خلاله سحابات دخانية تكفي لتلويث المحيط، وهو ينقب في الذهن الذي لم يعـــد مـــتقداً كالسابق، عن مخرج من ورطة وجد نفسه في عمقها، كـــيف يمكن له إعادة هيبته التي راحت تتضعضع؟ كيف له أن يثبت للعالم أن مفاتيح السلطة لا زالت في قبضة يديه؟ لم يكن أمامه والحال كذلك إلا اللجوء إلى الشعب، كما في كل مرة يجد نفسه مقترباً من فـــتحة المصيدة، بعد أن تخلى عنه الأصدقاء والأتباع، رفقاء الدرب، وحاملـــي المباخـــر السابقين، زملاؤه من زعماء النضال بالحناجر، وأصـــدقاؤه من ساسة الدول الكبرى والصغرى، تخلّى عنه الجميع، وبقي في النهاية وحيداً يعاقر إخفاقاته، ويعاوده الحنين إلى الأوهام.

هـــذه المـــرة أيـــضاً لم يجـــد غير الشعب الذي أصابه بالوهن والكساح وأمراض سوء التغذية بكافة فروعها، كي يلجأ إليه، راجياً منه أن يساعده في الثورة على الفاسدين من محتلي المناصب، في نظام كان هو الراعي الأول للفساد فيه، وكان هو الذي يغض الطرف عن هـــؤلاء الحيتان الذين ازدادت جلودهم سماكة، مقابل ترك العنان له وللأنجال لنهب ما يقدرون عليه من موارد البلاد وأرزاق العباد.

هـــذه المرة أيضاً يلجأ إلى الشعب وكأن هذا المسكين مطلوب منه في كل الأحوال أن يتقشف، وينصاع، يهتف، ويتراقص، ثم يلطم الخدين، وينحني تقديراً للجبابرة.

قرّر انتهاز فرصة حلول ذكرى الانقلاب، لإلقاء بيان "تاريخي" علـــى الهـــواء مباشرة للشعب عبر وسائل الإعلام الوطنية، هذه المرة ســـيرمي بآخـــر أوراقه، فيما يشبه المجازفة التي إن لم تصب هدفها

مباشـــرة، ستكون أقرب إلى محاولة انتحار، ما لم تكن انتحاراً فعلياً، ســـوف يـــندفع في واحدة من مغامراته التي كان من بينها الانقلاب الأبـــيض، وسيرى إن كان سيحقق النجاح، أم سينتهي الأمر جميعه؟ لكنه في كل الأحوال قرّر إخراج النفس من حالة الموت البطيء، من شـــرنقة الإذلال الـــتي أحاطت به، وتكاد تصل به إلى حافة الجنون، سيمـــضي إذن فـــيما قـــرّر، سيشرح على رؤوس الأشهاد تفاصيل المؤامرة التي يتعرض لها الوطن من أعداء الخارج وأتباعهم في الداخل، سيدعو شعبه المخلص أن ينتفض للقضاء على الأعداء، لإظهار مدى قوة أنصاره، ومدى قدرة الشعب الذي لا يجد الطغاة سواه في النهاية لإنقاذهم.

اســـتدعى صديقه القديم، الذي كان يوماً كاتماً لأسراره، طلب منه كتابة خطاب تهنئة، ليلقيه في هذه المناسبة الغالية، يتم التأكيد فيه على الوحدة الوطنية والتلاحم بين أفراد الشعب، وضرورة الالتفاف حـــول القيادة، من أجل تحقيق الأماني الوطنية، خطاب يحمل نفس الكلمـــات التي تقال في مثل تلك المناسبات، التي تعطل فيها المصالح الحكومية، وينعم فيها المواطنون بساعات إضافية للنوم والإنجاب.

كـــان الطلب عادياً، يتكرر في العادة مع حلول المناسبة، يكتب كـــاتم أسراره الخطاب ويضمنه عبارات تحتشد فيها مفردات جذلة، مـــن ذلـــك الـــنوع الذي تعشقه شعوب تغوص في عشق الكلام، وتزدري الفعل.

لم يتوجس المارشال خيفة من طلب كهذا، كان يرى أنه يصب في النهاية في نفس الهدف، ما دام هناك اتفاق بينه وحاشيته والسفير القابع عن بعد يراقب ما يجري، ويتدخل إن تجاوزت الأمور الخطوط المحددة، انطلق يكتب خطاباً متوازناً، يصب في ما يتوخاه، من تحويل

الزعيم إلى مجرد سلطة رمزية، لا تملك سوى كلمات حماسية جوفاء، يتم تمثيلها على شاشة التليفزيون، دون أن يتمكن قائلها في الواقع من مطاردة ذبابة.

غير أن للزعيم ما يعتزمه، كان يدرك في قرارة نفسه، أنه تمكّن من خداعهم جميعاً، سوف يقول ما يريد، وعلى الهواء مباشرة، دون أن يتمكـــنوا من حشد حواس الانتباه لديهم، إلا بعد فوات الأوان، بعد أن يقول ما يريد إبلاغه للشعب، ويحرّضه على التحرك.

لكـــن الأمـــر لم يمر كما خطّط له، فعندما علم السفير، واتخذ المارشال حذره، وفي اللحظة التي أعلن المذيع انضمام قنوات الإذاعة والـــتلفاز في بث مباشر من القصر الرئاسي، للاستماع إلى الخطاب التاريخي.

وبيـــنما كـــان الزعيم قد أنهى استعداداته وقام خبراء التجميل بوضـــع المساحيق الأخيرة، وإخفاء تجاعيد فوق الوجه كانت تظهره مكفهـــراً، وفي الوقت الذي كان يحرك شفتاه استعداداً للنطق، كان جهازان في غرفة مجاورة يعملان بجدية أكثر من أي مرة، الأول كان يسجل بدقة فيخرج من فمه إلى غابة الميكروفونات أمامه، وهو ينظر في ورقـــة، دون أن يلتزم منها سوى بجملة افتتاحية، أما الجهاز الثاني فكان ينقل إلى الشعب مباشرة، نص خطاب كان الزعيم قد ألقاه في ذكرى احتفال سابقة.

أخذ الملهم، وهو يظن أن الهواء مفتوح أمامه، يحرض الشعب، يحكـــي عـــن ألاعيب المارشال، الصديق القديم الذي عضّ النعمة، والـــذي يمثل قمة الغدر، داعياً إلى الانتقام منه جراء خيانته للوطن، وقـــيامه بالتخابـــر لصالح القوى الكبرى وعمالته لها طيلة السنوات السابقة، قال و لم يسمعه أحد، ممن توجه إليهم بالحديث، إن انقلاباً

أيضاً قاده سفير الدولة الكبرى ضد الوطن وزعيمه، بسبب رفضه التعامل مع الأجنبي ورهن البلاد ومقدراتها.

طالب الشعب بإنزال أقصى العقاب ضد من خانوه، وباعوا ضمائرهم بأبخس الأثمان، كان كل الكلام مرتجلاً، يتكرر من وقت إلى آخر، بينما المارشال في مكتبه والسفير في مقره المدجج، يستمعان للكلمات الغاضبة، وفي نفسيهما يختلط الضيق بين الحين والآخر بالسخرية.

راح الزعيم يواصل الحديث إلى وقت طال، دون أن يعرف أن البث المباشر توقف، منذ أن انتهى وقت الكلمة القديمة، وأن المذيع أعلن بالفعل للناس انتهاء حامي الديار من إلقاء خطابه التاريخي، وقدم توجيهاته السامية لشعبه العظيم، ولم يدرك أيضاً أن الوحيدين اللذين بقيا في أماكنهما دون حراك، يستمعان إلى كلماته المرتجلة، لم يكونا سوى صديقه والسفير، الذي بات حاكماً فرداً هو الآخر لا ترد أوامره.

لم ينم الزعيم تلك الليلة، منتظراً هبّة الشعب بين لحظة وأخرى، راح يتسقط الأخبار، يفتح الإذاعات الأجنبية علّها تجلب له خبراً من بلده، يطمئنه أن شعبه المخلص قد خرج فرادى وجماعات للانتقام من العملاء الخونة، وطرد أعداء الوطن، والوقوف إلى جانبه بمواجهة الدول الطامعة وسفرائها الذين لا يتورعون عن انتهاك سيادتها الوطنية.

مرّت الليلة، حلّ الصباح دون أن يلوح في الأفق أي تحرك، هل لا يزال هذا الشعب مصاباً بالشلل؟ هل لا يزال مربوطاً بالكراسي المتحركة؟ لديه ثقة من أن معظمه قد تماثل للشفاء، فما الذي جعله ساكناً حتى الآن؟

لم يكد يمر وقت حتى كان المارشال قد دخل إلى المكتب الرئاسي، تنفيذاً لتوجيهات السفير، مدّ له يداً بشريط الخطاب الذي تمّ تسجيله:

- سيدي هذا الشريط هدية أرسلتها هيئة الإعلام الوطنية لكم؟

• وماذا فيه؟

- تسجيلاً كاملاً لخطابكم التاريخي الذي ألقيتموه بالأمس في مناسبة ذكرى ثورتنا البيضاء؟

• ومنذ متى تقدمون لي مثل تلك الهدية، أليس مكانها الأرشيف الوطني مثلاً، مركز معلومات القصر، مكتبة التليفزيون، ألست ترى أن هذه الهدية تثير التساؤلات؟

- لا يا سيدي، فخطابكم بالأمس كان تاريخياً بكل المقاييس، ومن واجبنا أن نعطيك منه نسخة، لتتأكد مما ورد فيه، ولكي تتمكن من محاسبة الذين وجهت لهم الأوامر، إن لم ينفذوها؟

• ما الذي تقصد، تحديداً؟

- الشعب يا مولاي، الشعب الذي وجهت خطابك التاريخي له، إن لم ينفذ أوامرك، يجب أن تنزل به أقسى العقاب.

• أنا أثق في شعبي، أما أنتم فتخونونه.

- لا يا سيدي، نحن جنودك المخلصين، نحن أقرب إليك من الشعب، نحن الذين عشنا طول عمرنا خدماً لك، وليس هذا الشعب الكسول الكسيح الغافل.

• لا تحاول أن تتذاكى عليَّ، ألم تسمع ما قلته في خطابي بالأمس؟

- سمعت، سيدي، لقد كان كلامكم درراً، كان رائعاً وكان الشعب يستمع إليه بانتباه، وقد ازداد حبه لكم يا مولاي، بعد هذا الخطاب كما ازداد حبنا.

• قلـــت لـــك لا تتذاكى أمامي، لقد هاجمتك أنت ومولاك السفير فيه.

– نعـــم سمعت يا سيدي، وأدركت أنه إذا كان ذلك هو رأي زعيمنا المفدى تجاهي، فلا بد أن أخطائي كبيرة، ومن الواجب عليَّ تصحيحها بسرعة.

• لـــن تتمكن من ذلك، لن يسعفك الوقت، فالشعب قادم للاقتـــصاص منك ومن أمثالك، الخونة العملاء الذين باعوا الوطن للأعـــداء، هـــي مسألة وقت وسوف يجتاحك الطوفان، ويغرقك أنـــت ومـــن تستقوي بهم عليَّ وعلى شعبنا، سوف يلقون بكم في قـــاع المحيط، حتى أسماك القرش سوف تعاف أكل أجسادكم النتنة.

– يـــبدو أن مـــولاي غاضب إلى درجة لم أتوقعها، أرجو أن تمنحني بعض العفو إن اجتهدت في خدمتكم، فلم أصب، إنني إنسان وخادم لكم، والإنسان في النهاية، خطاء.

• لم يـــبق هناك من وقت، لن تفلت هذه المرة، الشعب قادم وقد أصدرت الأوامر له، ولم يعد بالإمكان التراجع عن أمر أصدرته، فمنذ متى كان حامي الحمى يتراجع عن قراره نتيجة لاستعطاف أحد موظفيه؟

– لكن يا سيدي؟

• لا تـــتحدث إليَّ أكثر من ذلك، لقد انتهى الوقت، ها هو الشعب قادم، ربما ينظم صفوفه الآن في أحد ميادين الدولة، لكنه من المـــؤكد ســـوف يـــأتي عاصفاً هذه المرة ويقضي على قلاع الفساد والمحـــسوبية والرشوة والعمالة، سوف يقتلع الجميع من جذورهم... انتهى الوقت.

غادر المارشال المكان مودعاً بصرخة مدوية من الزعيم، كتم في تلك اللحظة قهقهة كانت قد اندفعت إليه، لكنه بحكم الخبرة، وتدريب النفس على إظهار عكس ما تكنّه، استطاع المضي بملامح رصينة في طريقه إلى مكتبه، ليتصل على الفور بالخط الآخر الساخن الذي يصله بالسفير، أبلغه بما دار، وسمع بالأذن الأخرى قهقهات عالية، اندفع هو الآخر ليرد تحيتها بمثيلها، اتفقا أن هذا الرجل الجالس على ديكور الرئاسة، قد وصل بالفعل إلى مرحلة الخرف، وأنه في الخطوة التالية سوف يدخل في نوبات جنون، ستقود إلى فضيحة له ولعائلته.

قررا الانتظار إلى مدى أطول، حتى الوصول إلى اللحظة التي يتأكد فيها الجميع أنه جنّ جنونه، وعليهما أن يساهما في إيصاله إلى تلك المرحلة، في وقت يتم فيه التمكن من تهيئة البديل، ونقل السلطة الصورية إليه في سلاسة.

عند تلك النقطة، كان الاتفاق قد تبلور، فيما كان الزعيم لا يزال في غيبوبته، ينتظر تحركاً شعبياً، قد راهن عليه في لحظة بلغ الوهن به منتهاه، وهن شعبي من الصنف الفادح، ووهن رئاسي لا دواء ناجع له، وحين حوّل اتجاه الكرسي الرئاسي، مشرعاً الستائر على مشهد الشوارع المقابلة، كانت عيناه تثقبان المنظر، ويجتاحه قلق رئاسي مغاير لذلك الذي سبق له معاناته، قلق انتظار قاتل، لشعب في حالة تجمد، كي يقوم من رقدته، ينفض غباراً تراكم، وقعوداً استراح له، من أجل عيون الزعيم وحفاظاً على كرسيه المدنّس.

راح يستجدي خبراً قد تبثه الإذاعات الأجنبية، أخذ يقلّب موجاتها في كل اتجاه، دون جدوى، فلا خبر ولا يحزنون، أدار الوقت ظهره واستطال، ولا يزال هو ينتظر، آملاً أن لا يصاب بخذلان،

أدرك أن قيام الشعب هذه المرة هو الإنقاذ الحقيقي له، وإلا فإن العاقبة سوف تكون وخيمة، إذ كيف يمكن للسفير أو لدولته ترك ما ورد في خطابه الرئاسي يمر هكذا، دون أن تحدث ردة فعل هائلة تكون نتيجتها الإطاحة به أو اتهامه بتهم كفيلة بإيداعه واحد من السجون الثابتة على الأرض أو العائمة في بحار العالم، أو حتى إرساله للتعذيب في إحدى المعتقلات المتخصصة، التي توكل في العادة لدولة صديقة.

الخاتمة ستكون مؤلمة بكل المقاييس، والفضيحة التي سيشهدها العالم، وقد يتم فيها محاكمته، وفتح دفاتره القديمة ستكون مدوية، سوف يقومون بتكييف التهم على الطريقة التي تدفع أبناء شعبه، وشعوب العالم لإطلاق الدعوات في كل صلاة وبمختلف اللغات، والطقوس المعروفة، لإنزال أشد العقوبات به، للانتقام منه وسحله في بث حي على شاشات التليفزيون، فيا له من عقاب، بات يثير الخوف في أوصاله، ويدفعه إلى الاستمرار في النظر من نافذة مكتبه إلى مشهد الشوارع انتظاراً لمسيرة غضب ضد أعدائه، قد تنطلق عارمة، لتكتسح حصون الذين يتربصون به، وتزلزل قواعدهم.

لم يكن أمامه إلا مجرد أمل، فلا أم الوطن ستنفعه هذه المرة، ولا الوطن نفسه، ولا حتى الأوهام العارمة التي تجتاح كيانه ولا يزال معها يظن أنه هو الزعيم المفدى، الذي يهيم به الشعب ولها، لن ينقذه أنجال كالذين خرجوا من صلبه، مجموعة من البلهاء والعجزة لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا يفقهون في الأصل شيئاً عما يدور حواليهم.

عليه هذه المرة أن يواجه مصيراً محتوماً بعد أن اختار بنفسه هذا الطريق، وصمّم على ارتياده، وعليه ما دامت الأمور وصلت إلى هذا

الحدّ أن يواجه الموت بشهامة، فليس من المعقول وهو من كانت دول العالم تضع له ألف حساب، وبعد المجد الذي توهم أنه صنعه، والعزة التي اعتقد أنه جلبها، أن يكون مصيره، التعليق على أعواد مشانق، أو رميه مثل كلب أجرب في أقبية سجون لا يرى الداخل فيها ضوء الشمس.

انتابته حالة قلق حين أخذ الوقت يسارع بالرواح، ها هو يفقد رهاناً فادحاً، غير أنه لا يزال متشبثاً بالأمل حتى لحظاته الأخيرة، لأنه ببساطة لا يملك غير ذلك، لم يعد متاحاً لديه غير الانتظار، بعد أن كان هو الرجل التي ترتمي عند أصابع قدميه مقدرات وطن وآمال شعب، وتترامى أمام ناظريه طموحات لا حدود لها.

أخذ الزعيم بين اليوم والآخر يعاقر انتظاراته، يمارس الفعل نفسه الذي ظلّ يقوم به منذ اللحظة التي أعقبت إلقاء الخطاب، وعلى الرغم من أنه لم ينتبه هذه المرة إلى أن الصحف لم تقم بنشر ولو خبر صغير عن كلمته التاريخية، لا قبل موعدها ولا في اليوم التالي، معتقداً أن الخطاب كان مذاعاً على الهواء وأن جميع أبناء شعبه شاهدوه، فإنه ظلّ حتى في أشد حالاته يأساً، يتمسك بالأمل في أن تحدث الهبّة المنتظرة، مؤكداً لنفسه أن الشعوب لا تثور في العادة إلا بين فترات وأخرى، وأنه من العسير في حال شعب يعشق الخمول مثل شعبه، أن تحدث الانتفاضة مرة واحدة، ما لم يسبقها تنظيم جيد، وتعبئة حاشدة تكون كفيلة بمنع الوقوع في الأخطاء، وتجنبها أسباب الفشل.

راح يغرق في انتظاراته، فيما أخذت الدائرة تضيق عليه أكثر، كانت حاشية المارشال تكتسب في كل يوم أنصاراً، وكانت الدولة الكبرى تواصل مدّ أصابعها الأخطبوطية لتمسك بكل نأمة في ذلك البلد، معطية بين الحين والآخر بعض الفتات من الغنيمة لدول أخرى كبيرة تماشيها وتتبعها كظلها.

انفـــضّ الجميع عن الزعيم، بات معزولاً، لا يرى من البشر إلا "أم الـــوطن" التي ربطت مصيرها بمصيره، والابنة الضامرة، وقطتها البيـــضاء، حتى انفضّ عنه غالبية الأبناء وأمهاتهم، الزوجات اللواتي كـــان قد كدسهن بعد أن افتتح مشروعاً شخصياً للإخصاب، تعهد فيه بإنتاج سلالات لها صفات رئاسية خالصة، توقع أن يمتد حكمها للـــبلاد، ويظـــل اسمه خلالها يتداول بين بشر الإمبراطورية إلى أبد الآبدين.

بقي له أربعة أبناء هم الحكام الذين نصبهم على رأس الولايات، وهـــم الـــذين رأى المارشال والسفير أن يتم الإبقاء عليهم، ما بقي أبـــيهم، إلى أن يـــتم تـــرتيب الأوضاع، وتهيئة الوطن للنقلة النوعية المزمعة، والتي تنتظر الوقت المناسب للبدء فيها.

أصـــبح وحـــيداً، ضائعاً، اعتادا خمراً لم يكن يستسيغه، أدمن الاســـتماع إلى الإذاعـــات الأجنبـــية حتى وصل إلى يقين بأنها هي الأخـــرى تـــشارك في المؤامرة التي يقودها السفير، ويعاونه المارشال وكبار موظفي القصر فيها.

بـــات يضع سيناريوهات لما حصل، يختلق مبررات ليقنع نفسه بـــأن الـــشعب لم يتخل عنه، وأنه ربما كانت هناك مؤامرة حدثت ومنعـــته من الاندفاع للانتقام من أعداء رجله المهيب، وإبعاد حالة الإذلال التي يسعى الخائنون لإنـــزالها به.

ســـاءت حالته النفسية يوماً بعد يوم، لم تنفع تلك الصلابة التي كـــان يتمـــتع بها، والتي كانت مثار إعجاب شعبه ومضرب الأمثال للـــشعوب الأخـــرى، أخـــذت أحواله الصحية تصاب بانتكاسات مـــتعددة، حـــتى صعدت علامات الدهشة على وجوه الأطباء وهم يرون تدهوراً هائلاً في صحة رجل كانت لديه من الحيوية ما يكفي

لمناطحة جمل، ومن الخشونة ما كان يكفي لثني نصل سكين، كان رجلاً من هؤلاء الذين يصلحون لوظائف جسدية، لقتال في ميادين، أو منازلة في حلبات مصارعة، اقتلاح أو حمل، إماتة أعداء وقصف أشجار من جذورها، لكن أن يحكم، أن يشغل ذهنه بأمور تحتاج تؤدة وتدبير وملاينة، فذلك ما كان هو المثير للدهشة في شخصيته المحيّرة.

بعد محاولات مضنية بذلها الأطباء لإنقاذه، وفق أوامر صدرت من المارشال، وتلقاها بدوره ممن هو أكبر منه، من ذلك الرجل القابع على مقربة كيلومترات معدودة من القصر الرئاسي، كان الزعيم يستجيب إلى العلاج في بعض الأحيان، لكنه سرعان ما كان يعود إلى حالته السابقة، ينغمس في أوهامه، فتزداد حالته النفسية سوءاً، وتتدهور معها صحته الجسدية.

ضاق ذرعاً بحبسه الانفرادي، ضاق أكثر بالسخرية التي كانت تلاحقه من سعاة القصر، وكانوا في السابق يختفون داخل جلودهم إن رأوه، ازداد ضيقه أكثر بدخول المارشال اليومي عليه في مكتبه، متظاهراً بإبداء فروض الطاعة، ضاق بانحناءاته، بفرط الأدب الجم الذي يقوم بتمثيله، بكلماته التي تحمل الكثير من التوقير، لكنها ممتلئة بكل ما يمكن لقاموس اللغة أن يتضمنه في الاستهزاء والتوبيخ والشتائم، والشماتة.

أخذ ينكمش في قعدته، يجلس على كرسيه الرئاسي بالزي الرسمي، يحتسي ما تيسر من شراب، ويكتب، يصب لعناته في عبارات غير منتظمة، على المارشال والحرس، السفير، الوزراء والزوجات اللواتي تخلين عنه، قبل أن ينتقل إلى الشعب فيسطر له الرسائل.

الفصل الثالث

(1)

رسائل يومية للشعب كتبها
الزعيم أثناء تحديد إقامته

الرسالة الأولى

أيها الشعب،

بـــالأمس ناديتك كي تهب في وجه الأعداء والخونة، طلبت مـــنك أن تثأر لكرامتي التي هي في الأساس كرامتك، ألم أكن أنا الـــسبب الـــذي جعلك تعيش في نعيم تحسدك عليه شعوب العالم الثالث؟ ألست أنا زعيمك الذي وضع ذات يوم روحه على كفه، وقـــاد ثورة شعبية لإنقاذك من فساد الحكم والاستبداد؟ ألست أنا الـــذي جلـــب لـــك الحرية والعزة؟ ألست أنا الذي أطعمك بعد جوع، وأسكنك بعد تشرد، وآمنك بعد خوف، وستر جلدك بعد عـــري؟ ألـــست أنا زعيم الأمة الذي رفع ذكرك بين الشعوب، ووضع اسمك في ذرى النجوم؟

فلمـــاذا تأخـــرت هذه المرة عن تلبية ما طلبته؟ لماذا سمحت للتكاســـل أن يعـــود إلـــيك من جديد؟ لماذا لم تخرج مظاهراتك بـــالملايين تهتف لي وتبايعني وتندد بالمؤامرة التي يتعرض لها الوطن؟ تهـــاجم الأعـــداء الخارجيين الذين يريدون فرض إرادتهم عليك، ويقومـــون بالإساءة إلى زعيمك؟ لماذا لم تنقض أيها الشعب مثل

النسور على الخونة الجبناء، هؤلاء العملاء الذين يتآمرون في الداخل على الوطن، ويحاولون أن يمنعوا التواصل بين الشعب وحاكمه؟

يا أبناء شعبي... يا أبنائي:

ألم تفعلوها مئات المرات؟ ألم تخرجوا للهتاف بسبب ودونه؟ فلماذا هذه المرة تقاعستم؟ لماذا عاد الخذلان وعدم الشعور بالكرامة يسري في أبدانكم؟ هل عاد إليكم الكساح مجدداً، أم أنكم لم تعودوا تشعرون بحجم الكارثة التي يريد الأعداء، بالتعاون مع الطابور الخامس إغراق الوطن فيها؟

تحرّك أيها الشعب قبل فوات الأوان، وإلا فإني سأبرئ ذمتي منك، أنا الذي أمثّل كرامتكم وشرفكم، أنا الوطن، الذي إن تركتم الأعداء ينالون منه، فإن مصيركم سوف يكون في يوم ما، هو الإلقاء في مزبلة التاريخ، ويبدو أنكم، تستأنسون المزابل، وتعشقون من يضربكم على الأقفية.

لقد أصبت بالضجر منكم، يا أبناء الشعب الذي لا يعرف نخوة، ولا يشعر بأهمية العيش في كرامة، سئمت منكم حتى الثمالة، ولم أعد أعرف إن كنتم بشراً أم هواماً، لكني أعرف في النهاية شيئاً واحداً، هو أنكم بكل المقاييس، لم تكونوا أبداً تستحقون تضحياتي، وسهري على راحتكم، طموحاتي بجعلكم شعباً لا مثيل له، وها أنا أناديكم فلا تستجيبون، أنتظر قومتكم فلا تنهضون، وأعرف أني لو مكثت هكذا طيلة العمر، فلن تهبوا.

فلتذهب يا شعبي، البليد، الكسول، النائم، الخائب، إلى الجحيم، لتذهب دون ندم عليك، فأنت تستحق الحرق، والجلد، والرمي بالبيض الفاسد، بل والأحذية.

وهـــا أنني الآن أكتشف، أني قد خدعت فيكم، اعتقدت أنكم تـــستأهلون مـــبدعاً عبقرياً، ثائراً وطنياً، صاحب فكر ثاقب، ورؤية مستقبلية، لكن الذي حدث، هو أني في النهاية أدرك الآن كم ابتليت بك أيها الشعب، دون أن تستحقني.

ابتليت بك، فكان هذا هو مصيري.

فلتذهب مجدداً إلى الجحيم، مطارداً باللعنة.

لتذهب إلى المذلة والضعة والعفن.

يا شعبـــي الخائب.

زعيم الأمة

الرسالة الثانية

يا شعبـــي البائس،

هذه هي الرسالة الثانية، فقد كتبت لك واحدة بالأمس، نعم، كانـــت شديدة اللهجة، كتبتها بعد أن أصابني اليأس منك، وبعد أن مـــرّت عليَّ 24 ساعة، شعرت أن الساعة الواحدة منها تعادل دهراً، دون أن أجد منك استجابة، أصابني الإحباط منك يا شعبـــي الذي قـــدمت له زهرة شبابـــي وأنتظره الآن أن يثأر لي، ثم إني ما كتبت رسالة الأمس إلا بعد أن أصابني يأس قاتل، وعلى أي الأحوال، فإني قـــبل أن أستسلم لغفوة النوم كنت قد كتبت لك مصححاً العبارات التي قد يفهم منها أني أهاجمك.

عمـــوماً، أرجو أن لا تغضب أيها الشعب من زعيمك، فأنت بالنـــسبة لي كالابن، ومن حق الوالد أن يعنف الأبناء إن وجد منهم تقصيراً، وقد نالني هذا التقصير منك، لكني لا زلت أتطلع إلى اللحظة الـــتي ستقوم فيها من رقدتك، أنتظر أن تهب كرجل واحد للوقوف

بحزم في وجه هؤلاء الذين يقومون بالإساءة إلى النضال المشترك لنا، الذين يسعون إلى تشويه الصورة المشرقة لتلاحم وطني رائع تجلّى في أروع أشكاله عندما كانت تواجهنا لحظات التحدي.

وأصـــدقك القول أيها الشعب إني لا زلت عاتب عليك، ولا زلت أنتظر قيامتك التي ستمسح العار عن جبين الوطن، وترد باليقين والـــبرهان الـــساطع على ما يروّجه الأعداء حول العلاقة التي تربط بين الحاكم والمحكوم، وتثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن ما يخامرهم، مـــا هـــو إلا مجـــرد أضغاث أحلام، وأمنيات واهمة تداعب عقولهم المريضة.

إنـــي يـــا شعبـــي لا زلت أنتظر منك هبّة، لا تبقي أحداً من الأعداء، الموجودين في الداخل، والذين يمثّلون رأس ذنب للاستعمار العالمي، ولا هؤلاء الأعداء الخارجين الذين يسعون إلى تركيع وطننا، وجعلـــنا مجـــرد مـــستهلكين لمصانعهم، وسوقاً لترويج بضائعهم، ويريدون أن نكون لهم خدماً، وهو ما لن يحدث أبداً، يا شعبـــي ما دمـــت أنا الزعيم المهيب رمز العزة والكرامة، وبطل الثورة وحامي الحمـــى، وواهـــب الأمن والأمان. فتحرّك أيها الشعب، ولا تدفعني لـــصب غـــضبـــي عليك، ولا تجعلني ألعن الساعة التي ابتليت فيها بـــوجهك الـــنحس، بملامحك المستكينة الكئيبة، انطلق تحت رعايتي، ســـائراً على دربـــي، ومتمتعاً برضائي ومباركتي لإعادة الأمور إلى نصابها، إعادة الكرامة إلى الوطن والنهوض به والحفاظ على مسيرته المـــتقدمة على درب العزة والشموخ، والدفاع عن مكتسباته الثورية وصيانتها ضد أي محاولة خاسئة للنيل منها.

أيهـــا الشعب لم يعد بإمكاني إيجاد أي عذر لك، لرقدتك التي طالت حتى هذا الوقت، فتراخيك عن تلبية نداء الوطن سوف يكون

وبـــالاً علـــيك، سوف تعض بنان الندم يوماً، حين تنفلت الأمور، وســـتدرك أن هـــذا التقاعس جرّ عليك من المشكلات، وأن وطنك الـــذي ظلّ عالي الهمّة، مرفوع الرأس، قد ناله الضيم، ونهبه الأعداء، بسبب خذلانك وتقاعسك.

فإذا اخترت العزة والشموخ، فأنت مني وأنا منك، وإن اخترت المذلة والمسكنة، فمرج بحرينا لا يلتقيان، وستكون أنت الذي اخترت بملء إرادتك الثرى، فيما سأظل أنا في عليائي، قابع في الثريا، وعندئذ لا وفاق بيننا، ولا التقاء.

فلتنتهز هذه الفرصة التاريخية أيها الشعب، ولتكفّر عن سيئاتك، ولتلحق بدربـــي في أسرع وقت، وإلا فلتذهب إلى الجحيم.

اللهم هل بلّغت، اللهم فاشهد.

حامي الحمى

الرسالة الثالثة

يا أيها الشعب الرخي،

طال الانتظار، و لم يخرج عنك ما انتظرت، ما الذي جرى لك؟ كأني لست أنا زعيمك الذي هتفت له طيلة السنوات السابقة، كأني لـــست أنـــا الذي كنت تصرخ في الميادين لتعلن حبك وولاءك له، لـــتقول للعالم إنك مستعد لافتدائه بالروح والدم. ألم أكن أنا حبيب الملايـــين؟ قائـــد القادة وزعيم الزعماء، بطل الأبطال ورجل الأقدار وشمـــس الشموس؟ ألم أكن الذي كان أدباؤك، فنانوك، صحفيوك، سياســـيوك، نـــوابك، مـــشايخك، رياضـــيوك، جنودك، طلابك، مدرســـوك، يهتفون صباحاً ومساء، بأن لا حياة للوطن ما لم تستمد مـــن الزعيم، ما لم تسطع الشمس والقمر على جبينه؟ ألم تقل هذا

وأكثـــر؟ فمـــا الذي جرى؟ إلى هذه الدرجة تتخلى عني، إلى هذه الدرجة تتركني وحدي أواجه أطماع الأعداء، وأنا الذي دفعت دمي ضريبة لكي تنعم بالحياة الحرّة الكريمة؟ يا لك من شعب ناكر، يا لك مـــن أناني، أجوف، مستسلم ومتراخ، أهذا هو الذي علمته لك؟ ألم أفعـــل ما بوسعي لكي أحقق لك حريتك، والآن تتخلى عن قائدك، تـــضع في أذنـــيك قطناً، تتظاهر كعادتك بالبلاهة، لتتركني أواجه مـــصيري؟ لكـــني أقول لك، إنك سوف تندم، سوف تعلم بعد أن تنتهي تلك المحنة أنك كنت متخاذلاً، نذلاً، شديد الغباء، لا تملك أي رؤية لا للمستقبل، ولا حتى لما هو أبعد من محيط وقفتك.

يـــا أيهـــا الشعب تحرك الآن، تعال إلى القصر الرئاسي، اهتف وأسمع صوتك للعدو الذي جاء إلينا طامعاً، يريد نهب بلادنا وخيرات شعبنا، جاء ليسلب منا أعز ما نملك.. عزتنا وكرامتنا وشموخنا، تلك الـــتي نجـــوع ونعرى ونتشرد، بل وحتى نموت ولا نتخلى عنها، إن الكرامة كما علمتكم أهم من الطعام، أهم من السكن والغطاء، تلك احتياجات لا يجب أن تكون هي هاجس الشعب، فالهاجس يجب أن ينحـــصر في القضايا الكبرى، فلا يوجد وطن على ظهر الأرض أو حـــتى على وجهها، يمكن أن يعيش ويخلد، بينما مواطنوه تلاحقهم الذلّة والمسكنة.

فـــيا شـــعبـــي، إني أنتظر اللحظة التي ستأتي فيها لتقدّم للعالم بـــرهاناً على وفائك لقائدك، على تلبيتك للنداء الذي أطلقه لك قبل أيـــام كـــي تـــثور، تنتفض، تطرح الذل جانباً، وتخرج من عرينك كالأســـد المـــصور، محطّماً الأغلال، ومقتحماً الأسوار، منطلقاً نحو العـــزّة والمجـــد، على خطى زعيمك المفدى، الذي علّمك التحدي، ولقّنك الغيرة، وأرضعك الكرامة.

وإني لا زلت أنتظر يا أيها الشعب، فلا تتركني، على هذا الحال لــوقت أطول، لا تدفع اليأس ليسري في روحي، أنا الذي لم يعرف الــيأس يــوماً طريقاً إلى قلبه، و لم ترضخ روحه ولو لساعة واحدة للهوان.

فانتفض، قم من رقدتك، افرك عينيك وتقدم نحوي، كي يزول عنك الغم والهم والكسل، وإلا فإن غضبــي سوف يهبط عليك مثل الــسيول، وسوف تكون أيها الشعب موضع سخرية العالمين، سوف تــتحول إلى دمــي في مــتاحفهم، وجوارب في أرجلهم، وأبسطة يتقدمون فوقها، حين يشاءون.

أيهــا الشعب، لقد أكلتني لحماً، وها أنت تلقي بعظامي على الطريق، للقطط والجرذان، ترميني للكلاب الضالة لتلعقني، وللأعداء كــي يــشربوا حسائي، فهل هذا هو جزاء المعروف، هل تلك هي نتيجة التضحيات التي قدمتها لأجلكم... أيها القطيع؟

والد الشعب

الرسالة الرابعة

يا شعبــي النائم،

ضاع عمري معك، وهذا هو الحصاد.

أربعــة أيــام وأنا أنتظر هبّتك، دون فائدة، كأني كنت أنتظر الجدران أن تتحرك من مكانها، أو كأني كنت أتطلع للمطر أن يهطل فوق الأراضي الجرداء، أو أرجو المستحيل أن يتحقق.

لم أتــصور أن الــشعوب البليدة، لا يمكن لها أن تعرف في أي يوم، مذاق الحمية، أن تتحرك للدفاع عن كرامتها، أن تثور في وجه الغاصب، وأنت يا شعبــي الذي خذلني، أضعت الوقت والعمر كله

معــك، وضــاعت أدراج الرياح كل المحاولات التي بذلتها لإعادة تأهيلك، لإخراجك من حالة التراخي.

رهــاني عليك الآن مني بالخسران، لأني تصورت أن بالإمكان تعديل شعب ظلت أولى أعماله، وأهمها أن يجرد حنجرته فور صعود كل حاكم كي يهتف بحياته، تصورت أن الهتاف في عهدي سيكون مخــتلفاً، ســوف يصب في هدف واحد هو تعبئة جميع أبناء الوطن، مختلف قواه، في بوتقة واحدة، للترويج للعهد الجديد، لكني أحصد ما لم أتوقع، شعباً خاملاً، تعبت حناجره حتى لم تعد تقوى على ترديد هتاف، قوى خائرة لا تقدر على الدفاع عن نفسها لو هاجمتها ذبابة، فكــيف يمكن لها أن تدافع عن وطن إذا ما همّت قوى الشر بإيذائه؟ بل كيف تدافع عن رمزها، إذا ما ناداها يوماً.

كان عليَّ أن أعرف أن ما يجري معي الآن هو نتيجة، لا يمكن الحــصول علــى غيرها من شعب وضعته في حضانة، فأخذ يتراقص فرحاً في الشوارع، قسّمت وطنه إلى أربعة أجزاء فاعتبر الأمر عبقرية، وضــعت في أعلى السلطة أبنائي وقررت أن يرثوني بعد عمر طويل، فخرج إلى الشوارع هاتفاً بحياتي وحياة الأنجال، تركت العائلة وأفراد الحاشية يقتسمون موارد الوطن فخرج يقبّل الأرض، يكتب اللافتات الــتي تــشيد بعدالتي، عدلت مواد الدستور لصالحي وصالح أسرتي، فخرج يهتف لي بطول العمر، ويحمد لي خوفي على الوطن ومستقبل المواطنين.

هاجمــته في الخطابات، قلت في أفراده سباباً، وصفتهم بالغباء، فنــزلت الشتائم على صدورهم برداً وسلاماً، جئت باللصوص من كــل فــج، نهبوا البنوك، باعوا المخدرات، نشروا الفساد والرشوة والجــريمة، فــتحت البلاد بعد فشل الحضانة على مصراعيها، بعت

الشركات الحكومية، المصانع إلى رجال أعمال صوريين، سرعان ما تحـــولت عقـــودها باسمي وأولادي والحاشية، دون أن يخرجوا مرة واحدة منددين، دون أن يرتفع صوت واحد منهم بكلمة احتجاج.

فعلت كل شيء بأبناء هذا الشعب، حوّلتهم في اتجاهات عدة، من اليسار إلى اليمين، من الاشتراكية إلى الشيوعية إلى الرأسمالية، إلى اختـــراع نظرية خاصة بـــي وحدي، وضعتهم في حال طوارئ لا تنتهي، ربطت على بطونهم الأحزمة، تركتهم جوعى، أشلاء، زادت في عهـــدي الأمـــية، انتشرت الأوبئة، اشتريت من موازنات الدولة أطـــناناً مـــن الذخائر، طائرات من كل صنف وبوارج ودبابات، لم أســـتخدمها، حـــصلت في مقابـــل صفقاتها على عمولات هائلة، انـــزلقت في لحظة توقيع العقود داخل حسابات سرية.

باختـــصار فعلـــت كل ما كان يجب أن يدفع الشعوب الحرّة للثورة، للبحث عن الخلاص، لكن هذا الشعب لم يثر على الإطلاق، لم يشعر بما يدور حواليه أصلاً، فهل لي بعد ذلك أن أنتظر من شعب كهذا، أن يساعدني على الخروج من المأزق؟

إنـــه شـــعب خامل، بليد، كسول، ليس لديه أدنى درجة من الـــنخوة. ومع ذلك فإن وكل من ينتمي للنخبة، دائماً يراهنون على الـــشعوب، فليستمروا في أوهامهم، حتى يفيقوا يوماً، مثلما أفيق أنا الآن على الحقيقة المريرة.

أيها الشعب السقيم،

ليذهبوا هم، ولتذهب أنت أيضاً معهم

إلى الجحيم.

الزعيم المهيب

الرسالة الخامسة

أيها الشعب الكسول،

يــــا من يريق لك الشعراء أحباراً، ويقضون عشرات الليالي في الكتابة عنك.

أيهـــا الشعب الذي استهلكت أعصاب الثوار الزعماء، أشعلوا لـــك حناجـــرهم، ولفوا وداروا، وذهبوا وعادوا، وهم يخاطبونك ويـــستدرون عواطـــف أبـــنائك، يصعدون إلى الحكم من أجلك، ويتشبثون بالحكم لأجلك، ويورثون الحكم لأبنائهم، أيضاً لأجلك، يحولون الجمهوريات إلى ملكيات رئاسية، وهم مطمئنون إلى وجود مـــن سيعدل القوانين بسهولة، من يفصّلها على مقاسهم، من يمررها بعد ذلك في الهيئات التشريعية أيضاً لأجلك.

يـــا أيهـــا الـــشعب الذي يدور حولك الفاسدون واللصوص والآفاقـــون، يـــا أيها الوهم الكبير الذي يعيش له الجميع، ويتذرع بخدمـــته الجميع، ويحتضن البعض ويلفظ الآخرين، أنا - أيها الشعب - في الـــنهاية أقول لك، الخلاصة، وهي أني وصلت معك إلى نهاية المطـــاف، بمعـــنى آخر، سئمت منك، ويأست من إصلاحك، تقويم اعوجاجك، أيها العاشق للذل، النائم بلا نهاية، وبلا أمل في لحظات يقظة، ولو كانت بالصدفة.

ســـئمت منك، ولعنتك، وشتمتك في السر وفي العلن، أنت يا أكـــبر خدعة ينخدع بها الحالمون، وذوو الهمم العالية والطموحون، ســـئمت منك، ومن نومك الذي لا تفيق منه، من كسلك وخمولك وتقاعسك.

والآن أقول لك في النهاية، لقد اخترت أيها الشعب، وعليك أن تـــتحمل نتيجة خطأ اختيارك، اخترت أن تتخلى عن قائدك، الذي

وهب عمره لك، والذي أراد أن يصعد بك إلى العلا، ها أنت تخذله، فيا لك من شعب لا تعرف الوفاء. عليك أن تتحمل تلك النتيجة التي وصلت إليها، اختيارك الغبي، ستتركني لمصيري، وتنجو أنت بنفسك، تقع تحت سنابك خيول الأعداء، ونصال الفاسدين الجواسيس العملاء، والذين يبيعون الخدمات للأعداء على حساب الوطن والمواطنين.

سئمت منك يا وطن، وسئمت من نفسي، إذ وقعت بعد سنوات من النضال مخدوعاً فيك، وفي الحاشية التي أحاطت بي، في هذا المارشال الزئبقي اللعين، ذلك الذي تقرّب مني، حتى أسلمته ذقني، وكانت النتيجة، أن راح يعبث بها، يؤجرها بالمقابل للخارج، خدعني المجرم، وراح يسوّق نفسه لدى الدول الكبرى، بات رجلهم في الوطن، ثم اتفق في النهاية معهم على تحجيمي، على أن تسلب كل السلطات الفعلية مني، لأتحول بعد كل ذلك الوقت الذي كانت فيه كائنات الوطن لا تجرؤ على التنفس، مجرد التنفس دون أن تكون قد حصلت مني على إذن لذرات الهواء بالدخول إلى رئاتها، الآن تنزع مني السلطات جميعها، وأصبح مثل دمية فوق مائدة، حاكماً منزوع الصلاحيات، مجرد تمثال قابع فوق كرسي الحكم، مطلوب منه أن يواصل تمثيل دور الحاكم، دون أن يكون له أي حق في الاحتجاج، في الرفض والتعديل والنهر والغضب، ليس له أي سيطرة سوى في محيط غرفة مكتبه، وحتى هذه بات مشكوكاً في أنها صافية لي، فمن يدريني أن يكون هذا المكتب مدججاً بأجهزة التنصّت، ومن يضمن ألا يتم تصوير هذا الخطاب الذي أكتبه لك الآن أيها الشعب، وقيام هؤلاء الملاعين بقراءة كل كلمة أكتبها؟

لـــيكن، لم يعد يعنيني أن يقرأوا الخطاب أو لا يقرأوه، ليذهبوا إلى الجحـــيم جمـــيعاً، هم والدول الكبرى، ولتذهب أنت أيضاً أيها الـــشعب إلى جحيم الجحيم، لتذهب غير مأسوف عليك، ولتصبك اللعنة من بعدي، ولتندم ما يحلو لك الندم، لكن وقتها، لو أتيتني، لو قـــبلت قدمـــيّ، فلـــن أســـتجيب لك، لن أنقذك هذه المرة، مهما اســـتعطفتني، لـــن أقدم لك العون، وسأتركك للكلاب في الداخل والخارج لتأكلك وتنهش لحمك.

عليك اللعنة من شعب بارد، لا حمية لديك، ولا نبض حياة.

القائد المهيب

الرسالة السادسة

يا شعبـــي المعتل،

أنا الآن أكتب هذه الرسالة بعد أن وصلت إلى أقصى درجات الـــيأس، وبعد أن تيقّنت أن انتظاراتي يمكن أن تمتد حتى نهاية العمر، ومع أني أعرفك جيداً، وأعرف مدى البلادة التي تتسم بها، وأعرف كذلك أن مسطحات المحيط الشمالي في فترة التجمد يمكن أن يكون بها ليونة، لن يوجد لديك مثلها، حتى لو عشت تحت سقف الشمس مباشـــرة، فإني لا زلت أمني النفس بالأمل، أقول، ربما أفاق الشعب يـــوماً، أدرك أن ملهمـــه في محنة، وأنه لا منجاة له منها إلا باندفاع جمـــاهيري هائل يفك قيده، فمن يستطيع فعل ذلك سواك، أتظن أن "أم الـــوطن" تستطيع القيام بذلك، أو حتى فعل ما هو أقل منه؟ إنها امـــرأة سليطة اللسان فقط، كل ما تقدمه للبشرية لا يتعدى عبارات ســـوقية، وكـــل ما يشغل عقلها الخاوي لا يزيد عن تأمين مستقبل الابـــنة، الدنيا كلها تتوقف لديها عند حدود تلك البلهاء التي دفعتني

لجعلها حاكمة على جزء من أجزاء وطن، لا تعرف أسماء شطائره، كما أن أمها لا يعنيها من الأمر شيئاً، اللهم إلا كم هي الثروة الموجودة والتي ستصبح حقاً مباحاً لها.

أم تراني أعتمد على الزوجات الأخريات، اللواتي تركن القصر، وهربن إلى أماكن لم أتمكن بعد من معرفتها، ولا يزال المارشال اللعين يقول لي إنه يواصل البحث عنهن.

هل تصدق – أيها الشعب – أن زعيمك الذي لم يكن يجد وقتاً للسؤال عن أبنائه، بات الآن لا يعرف كيف يمكنه قطع الساعات الطويلة؟ هل تعرف أني أجد صعوبة في إصدار أي أمر للسعاة، الكل بدأ يتعامل معي مثل مجنون هارب لتوّه من مصحة أمراض عقلية، أدرك تماماً أنهم يريدون إيصالي إلى تلك الدرجة التي أفقد فيها عقلي، أن يربطوني إلى سرير يحيط به عشرات الحراس والممرضين، منعاً لانفلات أعصابي، أو لمراقبة سلوكي الخطر، فما أهون هذه الدنيا، تلك التي تحولت معي إلى كوميديا سوداء، من ذلك النوع الذي لا يجلب سوى الضحكات البائسة، تلك التي إن أطلت، فإنما تأتي بالدموع والأحزان، والبؤس.

والآن، أيها الشعب الخائب، هل تحولت مناشدتي لك إلى مجرد بث للهموم، كلمات أكتبها لك كي أسري عن نفسي، أهكذا باتت العلاقة بيننا؟ ألم أكن قد سئمت منك، من أن تقوم بأي عمل إيجابي تجاهي؟ لقد بتّ مقتنعاً الآن وربما أكثر من أي وقت مضى، أن ليس أمامي إلا اللجوء لك، إلا مخاطبتك، فمن لي غيرك الآن أتحدث له، وأنا سئمت منك، إن غضبت وهاجمتك، فمن سوف يسمعني سواك، ومن سوف أبثّه همومي، أشكو له انقلاب الزمن، بعد أن جعلني لعبة رديئة، سخرية لدى الآخرين، من الأعداء والجيران؟

لا تغضب مني أيها الشعب، يجب أن تعذرني إن قسوت عليك، إنه عتب من يحبك، من قام بالثورة البيضاء لإنقاذك، ثم لم يجد منك إلا الـــتقاعس، إلا الانـــتظار حـــتى يأكل الأعداء والخونة الأخضر والـــيابس، وعـــندها سوف تدرك أيها الشعب أن بقاءك على هذه الحال، في موقف المتفرج لن يجديك نفعاً، وسترى بأم عينك أن الذين تركتهم يسرحون ويمرحون، أوصلوك إلى حافة الجحيم.

هـــل لي أن أنتظـــر، أن أتحلى بالأمل بعد كل تلك الأيام التي مضت دون أن ألمح في الأفق بصيص ضوء؟ هل لي أن أنتظر عاصفة لم يظهر لمجيئها أية علامات؟ هل لي أن أكذب عيني؟ أن لا أصدق ما أعرف عنك، هل يمكن لشعب أن يتحول في أيام من اعتياد للخمول والكسل والتواكل إلى النشاط، ومتى؟... في خلال أيام معدودة؟ هل لي أن أتـــوهم أن شـــعباً مثلك يمكن أن تسري في دمائه فجأة حمية غـــضب، أو شهامة لنجدة مستغيث؟ هل التقاعس بعد أن يسري في الدماء مثل الوباء، يمكن أن ينتهي فجأة هكذا ودون مقدمات؟

أيها الشعب، أنا أشعر بيأس طاغ منك، أنت هكذا، لا تسري حرارة لديك ولا يحزنون، لقد مللت منك بالفعل، لعنت اليوم الذي ابتليت فيه بك، سنوات طويلة، لم أشعر يوماً أني مثل الزعماء أحكم شعباً كبقية شعوب الأرض، أدخلت إليَّ أيها الشعب الخامل شعورا بـــأن من يتبعوني ليسوا إلا هياكل بشرية غير قادرة إلا على الهتاف، وغـــير صالحة لغير خدمة من يحكمها، من يمتطي الدبابة أولاً، ويصل أسرع من غيره إلى قصر الرئاسة.

قـــررت إلغاء الأحزاب، فخرجت إلى الشوارع تهتف بحكمتي، مـــنعت شـــرب المياه من الصنابير وقصرتها على الزجاجات المعبأة، فحمـــدت لي الحـــرص على صحة الشعب، منعت اللحوم الحمراء،

وحلّلـــت أكل البيضاء، طلبت من رجال الأعمال استيرادها لصالح عـــائلتي، حظّرت معاشرة الأزواج بحجة المحافظة على الصحة، منعت معاقرة الفرح وقاية للنفس، دفعت بالمطبلين لإقناعك بكل ما أردت، قـــذفت بك مثل الكرة ذات اليمين، وذات اليسار، و لم يصدر عنك احتجاج، قررت وضعك بجميع أفرادك وكائناتك، حشراتك والهواء الـــذي تتـــنفس، في حضانة، منعت عنك الشمس والفضاء، القمر والـــنجوم، الـــرياح والأمطـــار، رؤيـــة السماء والبحار، فخرجت المظاهـــرات تدعو لي بطول البقاء، وتشيد بحكمة لا يمتلكها سواي، فأي شعب أنت، ومن أي طينة صنعت، وأية مصيبة تلك التي بليت بها حين ألقى بـــي حظ عاثر لأكون لك زعيماً؟

والآن بعـــد أن وصـــلت إلى درجة يأس ليس بعدها درجات، وبعد أن انتظرت كل تلك الأيام دون فائدة، سوف أستسلم لقدري، ســـوف أعلن خلاصة ما خرجت به بعد تفكير فيك، وإعطاء مهلة وراء أخرى لك.

أيها الشعب لقد قررت أن أشتمك في كل وقت، أنت والمارشال والدول الكبرى وكل الطامعين في الوصول إلى هذا الكرسي، لكن الآن لـــيس لديَّ من رغبة إلا أن أعيش في هدوء، وحيداً بعد أن انفضّ من حولي كل الذين كانوا يتمسحون بطرف حذائي، كل الذين كنت لهم ذات يـــوم ملـــهماً ومبعوثاً من الأقدار، كل الذين قفزوا فوق أكتافي ليحققوا طموحاتهم، كل الذين أوهموني أنك أيها الشعب مستعد في كل وقت لتلبية نداءاتي، للدفاع عني بالروح والدماء.

أيها الشعب إني أشعر بغصة منك، لقد خذلتني، وما خذلت إلا نفسك، فلتستحق الرجم من أعدائك، ومني اللعنة.

الزعيم الملهم

(2)

ظلّ الزعيم على حاله، كلما ضاقت به الحياة لا يجد من يخاطبه سوى الشعب، تخلّت الدنيا بجميع كائناتها عنه، ولم يبق من شيء أمامه إلا رسائل، عادةً ما يكتبها في الصباح، يتبعها بتدوين اعتذار عن كل ما ورد فيها، قبل أن يتخلى عن الأمر في النهاية، يضع الأوراق جميعها المحشوة بترهاته في آلة كهربائية، تتكفّل بإحالة الدرر إلى فتات، يحدث ذلك في العادة قبل لحظات من مغادرة مكتبه الرئاسي متجهاً إلى سرير في الغرفة المتسعة التي لم تعد تتواجد فيها "أم الوطن" ولا الأبناء.

لم يعد هناك من عمل يشغله سوى كتابة الخطابات، فحتى القصص والأشعار التي كانت تكتب له، توقفت بعد أن منع عنه التواصل بمن تمّ توظيفهم لهذا الغرض، لم يعد مسموحاً لا للمفكرين ولا للأدباء باجتياز الممر الطويل المؤدي إلى مكتب كانت تدار منه قبل فترة قصيرة شؤون وطن بأكمله، بات الزعيم وحيداً مقهوراً، يستذكر أمجاده الغابرة، سطوته التي بلغت حدّ الافتراء، ويعاقر خمراً أدمنه، منذ أن حبطت آماله وبات في نظر نفسه والذين يعج بهم القصر الرئاسي أسيراً.

وعلى حين غرّة، خفت الحديث عن الكتاب الذي قيل للشعب إنه يضم أفكاره، والذي فرضه على المدارس والمصانع، حلقات الدروس الدينية ومراكز الرياضة، وخصصت له دورات بالمجان، لتثقيف الشعب بفكر قائده، كانت درجة حفظه هي معيار الثوري المخلص من الزائف، لدرجة أن الآباء كانوا يتبارون في وضع كتاب الزعيم مغلفاً إلى جوار أسرة الحوامل في لحظات الولادة، كي يخرج الرضيع إلى الحياة مباركاً، ثائراً نقياً، ومخلصاً لرمز الوطن.

توقف الحديث عن الكتاب، وسرعان ما بدا المدرسون غير آبهين بتعليم الأبناء دروساً عنه، وانصرفت الهيئات التعليمية عنه، بعد أن لامست عزوفاً من أجهزة الدولة عن المتابعة، حتى الزعيم نفسه نسي الأمر في محبسه الناعم، فهو في الأصل لم يفكّر في عمل كهذا، قبل أن يأتي إليه الذين يجيدون تلوين ولاءاتهم، في عزّ سطوته، ليوهموه بأنه مثقف لا يشق له غبار، وشاعر وروائي، وموجّه عبقري، صنعوا له وهماً فصدّق، سايرهم في غيّهم، واثقاً من أن أحداً لن يخرج في يوم من الأيام ليعترض، أو ليشكك في أن شعراً رقيقاً، فكراً ثاقباً، يمكن أن يصدر من عقلية فظة، مقتحمة، خشنة.

وضعوه على كل المنصات، فهو أبو العلم، والفن، الرياضة، والإعلام، حتى زوجته لم تعد أماً لكائن، بل أم الوطن بأكمله، بعلمائه وكتابه وفنانيه ورياضيه، ومشلوليه.

تعددت الألقاب التي لم يجهد الزعيم نفسه في الحصول عليها، فهو العالم الأول والفنان الأول والرياضي الأول والإعلامي الأول، والشاعر الأول، والنسر الأول، والوسيم الأول، الفحل الأول، رجل الإيمان، وقائد الجيوش، ومحطّم القلوب، ومفجّر الطاقات.

ألقاب تطلق في أي وقت وكلى لحظة، وشعب تحت الطلب، على أهبة الاستعداد للهتاف لأي شيء، وأي حاكم، كلما كان هناك ضرورة لإنعاش الزعيم، وإرضاء الحاشية، وإضحاك من يراقب في الدول الأخرى.

ها هو في نهاية المطاف، يقعد محطماً، كسير القلب، يفكّر فيصل إلى نتيجة تخبره أن شعباً كهذا جاء نتيجة لما جنته يداه، حصاد جناه من قبل كل حاكم ظلّ هدفه يصب في اتجاهات عدة تؤدي إلى نتيجة

واحـــدة: اســـتئناس الشعب، إدخاله إلى بيت الطاعة، تقليم أظافره، قصّ الريش عن أجنحته، وإيهامه أن ذلك هو المقياس الحضاري على حسن السلوك.

في صباحاته، راح يستهل يومه بالتوجه إلى الشرفة، على الرغم مـــن دخـــوله في حالة يأس آخذة في التزايد، مستنفراً حواسه، علّها تلـــتقط ما ينتظر في لحظة وقوعه، يمد أصابعه إلى مذياع ملقى فوق ركـــن بعيد داخل مكتبة، تقبع إلى جواره، دون أن يقرأ من الكتب المتراصة فوقها حرفاً، يدرك أن الأتربة زحفت إليها، منذ توقف الخدم عـــن تنظـــيفها، بعد أيام انضم المكتب، والكرسي الرئاسي، فالغرفة بأكملها إلى قائمة الأماكن المهجورة.

أطلـــق الـــزعيم صـــراخاً، استدعى به المارشال، تعلّل الأخير بالانـــشغال مرات، ثم أتى في بعضها، يتظاهر بكتابة أمر عقاب ضد من أهملوا تنظيف مكتب الرئاسة، يتم استدراك الأمر في الأيام القليلة التالـــية، لكنه سرعان ما يعود إلى ما كان عليه، شيئاً فشيئاً يتراكم تـــراب المكـــتب الرئاسي، ما أن يمر الزعيم فوقه حتى تترك أقدامه آثارهـــا، تتـــسخ ملابـــسه إن جلس على كرسي الحكم، يصرخ، يـــستجيبون مـــرة ويتناســـون مرات، يأمرهم فيتظاهرون بالطاعة، يـــشتمهم فيكـــتمون الضحك، لم يعد من عمل له إلا سبّ السعاة والمـــوظفين والمارشـــال، بمرور الأيام أصبح التراب ملازماً للمكتب الرئاسي، بات الملهم متسخاً، وهو لا يزال في منصبه، حتى وهم بين الحين والآخر يقومون باستدعائه ليمثل أمام الآخرين دور الزعيم.

كـــان مقصوداً، أن يصاب بالانهيار، دون أن يموت، منع عنه اســـتقبال أي إنسان، كانت إدارة القصر الرئاسي تتعلل في كل مرة بـــأن الـــزعيم يمر بحالة صحية تستدعي الراحة، يقولون في كل مرة

حججاً ومبررات لا تتكرر، غير أنها في النهاية تصبّ في صالح الخطة المرسومة لإيصاله إلى حافة الجنون.

تحـــوّل المكتب الرئاسي إلى مزبلة حقيقية، باتت الروائح تزكم الأنـــوف، حـــتى أن الزعيم بعد أن أصابه اليأس، قرّر الاعتكاف في جناحه، وعدم الخروج لتمثيل دوره اليومي، وهو ما أزعج المارشال، حـــين تـــزامن الاعتكاف مع اقتراب واحدة من المناسبات الوطنية المهمة، التي سيكون من الضروري إظهاره فيها وهو يستقبل حشود المسؤولين المهنئة، وعلى الفور استدعى الحاشية، أمرهم بإعادة الزعيم من جديد إلى مكانه، أكد أنه لن يكون من المصلحة العامة، ولا من مصلحة النظام أن يكتشف أحد أنه بات كما مهملاً، للدرجة التي لا يجـــد فـــيها من يقوم بتنظيف غرفة مكتبه، دعاهم إلى اتخاذ أقصى درجات الحذر، بحيث لا يطغى الإهمال الشديد على الدرجة المطلوبة مـــن التعامل بذكاء مع المهيب، وتثبيت الوضع الذي هو عليه الآن، إلى أطـــول فتـــرة ممكـــنة، حتى تتهيأ البلاد لوصول البديل إلى سدة الحكـــم، وبعد أن تنضج الأجواء الإقليمية والدولية لاستقبال الحدث الكبير.

لكـــن الأيام مرّت بين اعتصامات صغيرة راح ينفذها الزعيم، للفت الانتباه، وإظهار الغضب من تجاهل يقابل به، وبين إصرار من المارشال على أن لا تصل الأمور إلى درجة التأزم، وتصبح الأوضاع خـــارج السيطرة، وهو الأمر الذي سيجلب غضباً من دول تقتضي مصالحها بقاء الأوضاع تحت السيطرة.

ســـخاء المارشال شمل أقارب الزعيم، أغدق الهدايا الثمينة على "أم الـــوطن" فصمتت عن الكلام، ورأت في استمرار السكوت خيراً لها من البقاء تحت رحمة زعيم أهوج، شديد البخل، أغلقت فمها فلم

تـــنطق باحـــتجاج، واكتفت في النهاية باللعب على وتر يلين كلما داعبه بريق الأحجار الكريمة.

(3)

شـــاع خبر الإهانة التي يتعرض لها الزعيم، انتشرت الأقاويل، مـــصحوبة بحكايـــات، لم تكن لتمر يوماً على الخاطر، خصوصاً مع زعـــيم تمّ تـــضخيم صفاته، حتى تحوّل في نظر بعض مواطني الدول المجـــاورة كائناً خرافياً، وحاكماً يحسدون عليه شعبه، تنادي حكام الـــدول المجاورة إلى عقد اجتماعات مكثفة، لتفعيل الاتفاق السري القاضـــي بالحفـــاظ علـــى استمرار الأنظمة التي هبطت كقدر، في اجـــتماعاتهم التي تعقد في العادة تحت شعار "حماية مصالح الشعوب الشقيقة"، والتي دائماً ما تؤكد في بياناتها الختامية على زيادة اللحمة، ودفـــع التنمية والازدهار والخير إلى ربوع الدول ذات الحلم الواحد والكوابـــيس المتعددة، فيما الهدف غير المعلن يصب في زيادة التنسيق الأمـــني، واتخـــاذ التدابير اللازمة لمنع اهتزاز الكراسي في أي دولة، والوقـــوف بقوة ضد كل محاولة للإطاحة بأي نظام منها، ومقاومة الأطمـــاع لـــدى القوى المناوئة، وإجهاض أي مسعى للمتربصين، الساعين لهزّ ثقة المواطنين في آبائهم الأفذاذ.

كان الأمر الأخطر في الاتفاقات التي تصدر عن تلك الاجتماعات الرئاســـية، يتمثل في قناعة تامة بأن هناك ضرورة ماسة لتوريث حكم الأوطان القاصرة، على اعتبار أن شعوباً ابتلي بها قادتها، غير قادرة على تحمل مسؤولية حكم نفسها، وأنها تحتاج بين وقت وآخر إلى من يشد اللجام على فم من ينطق بعبارات خارجة عن السياق، وأن تضرب يد من حديد على يد من تسوّل له نفسه العبث باستقرار الأوطان.

تلـــك بنود كانت في العادة تحظى بإجماع تام، من قادة لديهم قناعة لا تتغير، بأنه على الرغم من تفاني الشعوب في رفع الشعارات والهـــتاف في كل مناسبة، فإن شعوبهم قاصرة، وبحاجة مستمرة إلى رعاية من زعماء المرحلة.

وتفعـــيلاً للمواد المعلنة والسرية، توافد الزعماء إلى قمة عاجلة لـــبحث الأمر، بعدما تزايدت الشائعات، وتواصلت النكات، حول الأوضـــاع الجديدة لوطن الحضانة، اعتبروا أن ما يتوارد من أخبار لا يـــصب في صالح أنظمة الحكم، وأنها ستساهم وإن بعد وقت في دفع الأمـــور إلى حالـــة من عدم الاستقرار في تلك الدول، واحدة بعد الأخـــرى، كما أن الشائعات والنكات التي يتم تداولها والتي يتم من خلالها السخرية بأحد الحكام، والحال المزرية التي وصل أمره، سوف تفتح شهية الشعوب، وهو ما قد ينهي ولو بعد حين ما اعتادوا عليه مـــن تـــوقير، ويقطـــع الطريق في النهاية على الخطة الخاصة بتهيئة الظـــروف لتوريث حكم المقاطعات المسماة أوطاناً للأبناء الأعزاء، وأبناء الأبناء ثم بقية العائلة.

في بدايـــة الاجتماع، وصف حاكم الدولة المستضيفة، الزعيم بأنه أهوج، وأن تصرفاته الحمقاء كانت وراء ما آلت إليه الأمور، صبّ جام الغضب عليه، وأعاد هجوماً ضد انفراده بالرأي وعدم اعتماده التنسيق مـــع زعمـــاء الدول المجاورة وسماع النصائح منهم، اعتبروا أنه المسؤول الأول عـــن النتائج الكارثية لعزل بلده عن جوارها، وتجميد جميع أنواع العلاقات مع الجميع، لأجل إتمام مشروع الحضانة، أكد أن هذا الانفراد كـــان وراء المصائب التي حدثت فيما بعد، ثم كانت موافقته على كل الـــشروط التي أُمليت عليه من الدول الكبرى ورضوخه التام لطلباتها، متناسياً جعجعاته القديمة، وهمجماته بمناسبة وبدونها عليها.

نبّه زعيم الدولة المستضيفة النظراء في هذا الاجتماع السري إلى أنــه مهمــا حدث، وأياً كان الرأي فيما فعله الزعيم المارق، ومهما كــان الموقــف مما جرى له، فإن الأمر سواء أصدقت الشائعات أم كــذبت، فإن الأمر خطير، ويفتح الباب أمام إسقاط هيبة الزعماء، وداعياً إلى عدم ترك الحبل على الجرار لشعوب متخلفة بليدة ليهاجم الرعاع زعماءهم، وتضمحل الهالة الكبرى التي استطاعوا بجهد هائل إحاطة أنفسهم بها.

وافق معظم من تناوبوا في إلقاء الخطب، على ضرورة التغاضي عــن خلافهم مع الزعيم، من المهم أن يوضع جانباً في تلك المرحلة، وأن يتجه النظر للمصلحة العليا المشتركة، تلك التي تتطلب تجاوزاً لما نــال كــل حاكم من بذاءات لسان الزعيم، ومن غروره ومكابراته وحــتى من جعجعات كان يطلقها في العادة في كل مؤتمر اجتمعوا فــيها، حــين ينبري في كل مرة لمهاجمة الاستعمار وأعوانه، واصفاً نظراءه بالجبناء المتخاذلين الذين ترتعد فرائصهم منه، قبل أن يسبقهم جمــيعاً ويكون هو ذاته أول المنبطحين، فيقدّم الوطن على طبق من فضة، ويفتح أبواب بلاده على مصراعيها، ويتحول في لحظة واحدة، بعــد كل هذا التراث من العنتريات إلى أرنب بائس، يتسول الحماية لنفسه.

جــاء الاتفاق بالإجماع: "التحرك العاجل لمنع الأحداث من أن تصل إلى النقطة الحرجة، وأن يتم ذلك وفق خطين متوازيين، الأول لــدى الــدول الكبرى، للاتفاق على إبقاء النظام الحاكم في وطن الزعيم قائماً، وأن يتم توفير الضمانات المناسبة له، حتى ولو بالحفاظ علــى الــشكل، وأن يتم مساومة تلك الدول على ذلك، والتحرك الآخــر يعني بإنشاء جهاز مشترك لرصد الشائعات والنكات وجميع

أشكال السخرية من أي حاكم، ومحاولة وأد الفتنة في مهدها، قبل أن تـــتفاقم ويـــتحول معهـــا الملهمون، المهابون، حماة الحمى، والآباء الحـــنونون، إلى علكة في الأفواه، تؤدي مع اعتيادها إلى تحريض أبناء الشعوب على الثورة، وتغيير الوضع القائم بأي طريقة".

أيقـــنوا أن الأمر بات يحمل نذر الخطر، على الرغم من أنهم في قـــرارة أنفـــسهم كانوا يحملون كراهية لا حدود لها للزعيم، ينعتونه بأســـوأ الصفات في اجتماعاتهم التي لم يكن يحضرها، لكن الكراهية شيء، والنظر إلى ما هو أبعد من نجاح حاشية الحاكم في تحجيمه، ثم الإطاحة به فيما بعد، وإنهاء أول مشروع جريء في المنطقة لتوريث الزعامة شيء آخر، يجب التكاتف لمنع تحققه، وأن يكون نموذجاً يتم الأخذ به فيما بعد.

انطلقـــت الوفود التي شكّلها الاجتماع إلى الدول المعنية، ذهبوا لمـــن بيدها الحل والربط، الدولة الكبيرة، قبل التوجه إلى دولة الزعيم لرؤية الأوضاع على الطبيعة، والالتقاء به على حدة.

لم يكـــن الأمر سهلاً، فالدولة الكبيرة، لم تعد ترى فيه شخصاً جديراً بالثقة، حتى بعد أن أصبح مهيض الجناح، لا يملك لنفسه حولاً ولا قـــوة، حتى بعد أن باتت بلاده مخترقة من كافة جوانبها، وعلى الـــرغم مـــن انكساره، ظلت غير مستعدة ولو من الناحية النفسية لنـــسيان الإهانات والشتائم التي كان يصبها عليها أيام مجده، ظلت بعد أن تحوّل من زعيم لديه مشاريع يسعى لإنجازها، حتى ولو كانت أقـــرب إلى الجـــنون، إلى حاكم لا يملك القدرة على تعديل موضع كرســـي الحكم داخل مكتبه دون الاستئذان من سفيرها القابع على بعد خطوات، لا يزال لديها هاجس الانتقام، السعي لإذلاله، وتحويله إلى عبرة لكل من يجرؤ على التفكير في تقليده يوماً.

مـــن هنا جاءت مصاعب واجهها الوفد خلال جولة أخذته فيما بعد إلى دول حليفة للدولة الأكبر كانت على الرغم من بعد المـــسافة، والصراعات القديمة على مناطق النفوذ، وبرغم حروب طاحـــنة انـــدلعت بينها قبل عقود، فإن القرارات كانت تتم وفق تنـــسيق تـــام، لتصب في النهاية في هدف واحد، يتعارض بشكل كامل مع مصالح دول المنطقة، تلك التي جاء منها الوفد، مدفوعاً ببعض الأمل.

غـــير أن أعـــضاء الـــوفد في النهاية، وعلى الرغم من الصعوبة الـــشديدة التي واجهتهم، تمكنوا من التوصل إلى اتفاق يقضي بعدم معارضـــة الإبقـــاء على الوضع الحالي، بحيث يظل الزعيم في مكانه، زعيماً شكلياً، ليس له من الأمر سوى اللقب والمظهر الخارجي، وأن يـــستمر ذلـــك حتى انتقاله إلى العالم الآخر بشكل طبيعي وأن يتم تـــشييعه، في جـــنازة مهيبة تليق بالزعماء،على أن يتم انتقال الحكم بـــشكل تدريجي هادئ إلى أكبر الأبناء سناً، مع ضمان تولي الأبناء الآخرين مناصب مرموقة في الدولة.

كـــان المقابل لذلك، أن تشكل دول المنطقة فيما بينها تحالفاً، يـــتولى بالنـــيابة عن الدول الكبرى حماية مصالحها، دون الحاجة إلى تحميل نفسها عبء التواجد في مقرات رئيسية لقيادة العمليات.

لاقـــى الاتفاق صدى طيباً لدى دول اطمأنت على حصتها من الغنيمة، لكن المشكلة حدثت مع الوفد عندما توجّه إلى دولة الزعيم، إذ واجهـــته محاولات تسويف، عندما طلب مقابلة الرجل الذي كان يـــوماً، صـــاحب الكلمة الوحيدة، والذي أصبح منـــزوياً في ركن تتقلص مساحته بمرور الأيام، وبنفس الدرجة التي كان يضمحل فيها جسده، وتنتزع صلاحياته قطعة بعد أخرى.

سعى أعضاء الوفد بإلحاح لمقابلة الزعيم، لكنهم في النهاية، غضوا النظر، بعد مرور أيام، واجهتهم فيها العديد من الحجج، بدأت بالقول إنه مريض، وإن الأطباء منعوا زيارته، وانتهت بزعم أن جدول لقاءاته مزدحم، وأنه يفضل أن تتم المقابلة في أوقات لاحقة، ثم إبلاغهم في النهاية، بأن الزعيم يرفض الاستجابة لرغبتهم.

عاد الوفد من حيث جاء، تواصلت المشاورات مرة أخرى، وتمّ استعراض المعلومات التي حملها العائدون، سرى ارتياح لدى حكام المنطقة، بعد ما علموا بالوعد الذي قطعته الدولة الأهم، للحفاظ على الأوضاع القائمة ما دام الأمر يصب في صالح العلاقات المشتركة، وتعهدها بعدم إبداء أي معارضة لانتقال السلطة بسلاسة إلى الأنجال، حتى ولو تعارض ذلك مع شعارات أخذت في الآونة الأخيرة ترفعها عن التعددية والإصلاح السياسي وتبادل السلطة، فالتقرير الذي كتبه الوفد العائد، ولخّص فيه أهم ما دار مع كبار مسؤولي السياسة الخارجية هناك، أكد أنه ما دام المبدأ قد تمّ الاتفاق عليه، فإن مسألة تخريج الأمر ووضعه في الشكل الذي لا يتعارض مع الشعارات، لن يواجه أية تعقيدات، فما أسهل أن يتم تشكيل برلمان صوري يأتي أعضاؤه وفق اقتراع بانتخابات مضمونة النتائج، ويقوم فيها أعضاء "سيد قراراته" بترشيح أحد أبناء الزعيم، ثم تجري انتخابات من تلك التي تكون في العادة تحت السيطرة، ليتم من خلال الرغبة الشعبية، إجلاس "المحروس" على مقعد الحكم، كي يواصل تمثيل دوره في الفيلم الذي تشاهده شعوب الدول النائمة في العادة، وتصفق لأبطاله.

اطمأنت الدول المجاورة للتعهد، وأخذت تستعد هي الأخرى للعب دور الحامي لمصالح الكبار، فما العيب في أن تكون هناك مصالح مشتركة، وأن يتم تسخير إمكانات البلاد ذات الأنظمة الثورية التي لا

يحكمهـــا في العادة إلا مفكرون وثوار وزعماء ملهمون، لحماية مصالح دول ســـوف تضمن للهابطين إلى الحكم بالمظلات البقاء فوق الكراسي خالـــدين؟ ما العيب في أن يكون رعاة الديمقراطية والإصلاح والعدالة والمـــساواة، صـــدراً حنوناً للطغاة، وللفساد والرشوة، ما دام الأمر سوف يصب في النهاية في استقرار الأوطان وضمان أمنها؟

قـــرر الـــزعماء الاستماع إلى صوت العقل، وعدم إعطاء أهمية لحناجـــر ناشـــزة تخرج بين الحين والآخر مشككة في النوايا، ورافعة لشعارات ساذجة، تريد العودة بالبلاد إلى الوراء.

وللمـــرة الثانـــية، خـــلال فترة قصيرة، تناسى الحكام خلافاتهم، والاتهامـــات التي أطلقوها ضد بعضهم، بالانحراف عن الخط الثوري، بخـــيانة القضية الرئيسية، ومهادنة الطامع الأجنبـــي، تناسوا الشعارات الـــتي أصابوا شعوبهم بصداع مزمن وهم يطلقونها، وواصلوا اجتماعات التنسيق، انتقلوا من دولة إلى أخرى بين المآدب الفخمة والقصور الثورية المنيعة، بات الهدف هذه المرة موحداً، الولائم والألعاب وتبادل الأنخاب، والسباحة وركوب الخيل ولعب الإسكواش والبريدج، أعمالاً تساهم في زيادة أواصر الأخوة، وتمتين العرى الوثيقة والتعاون المشترك.

(4)

في هذا الوقت، كان وطن الحضانة قد تحوّل بالتدريج إلى ثكنة عـــسكرية، إذ أخذت الدول الكبرى الأمر بالتدريج، بدأت بتوسعة القـــواعد الموجـــودة، واستحداث حصون جديدة، لحماية البلاد من الطامعين الذين لم يعرف أحد من الشعب من يكونون هذه المرة؟ ثم تسارعت بوصول قادمين منها، شكّلوا نواة سرعان ما تحولت بمرور الأيـــام إلى جالـــية ضخمة، استحدثت لأجلها أحياء راقية، مزودة

بأحـــدث وســـائل المعيشة والراحة والاستجمام، حتى بات ما يجري مـــصدر دهـــشة لأبـــناء الوطن الأصليين، لكن الأمر سرعان ما تم توســـعته، إذ بـــتوالي وصول رعايا الدول الكبرى في العالم إلى وطن الحـــضانة الـــسابق، أخـــذت أحياء جديدة تنشأ لتستوعب الأعداد المتزايدة، وفي شهور قليلة كانت هناك مناطق منفصلة اقترب عددها مـــن تلـــك التي يسكنها المواطنون، شكلت بتكاثرها اللافت مدناً كبيرة، وبعد وقت ليس طويلاً، تحولت المدن إلى ما يشبه نواة لدولة من الأجانب داخل قلب الوطن الأم.

بـــات الكـــيان مهدداً بالضياع، لم تكن الخطورة منظورة على المـــدى الأقرب، في ظل افتقاد الوطن من بين رجالاته لمن يمكن أن تمديه البصيرة إلى التنبؤ بما قد تخبئه الأيام.

وعلى الرغم من الزيادة الهائلة في أعداد بشر ظلت الطائرات تحط بهـــم في مطـــار الدولـــة، وامتلاء الشوارع والطرقات وأسواق البلاد بأصحاب الملامح المغايرة، إلا أن صوتاً لم يرتفع للاحتجاج، ولم تصدر كلمة لوقف النمو السرطاني، لا من الشعب الذي استؤصلت منه القدرة علـــى إبداء الاستياء، ولا من الزعيم الذي لم يكن يدرك أصلاً ما يدور حواليه، ولا من حاشية زرعت في الأصل، كي توافق للموافقة على أي قرار يتخذ باسم الوطن في أروقة عواصم الدول الأخرى.

كـــان السلاح الوحيد الذي يواجه به الشعب هذا التغلغل في كـــيانه، هـــو التجمع في الشوارع لمشاهدة القادمين الجدد، والنظر بالدهـــشة المطلـــوبة إلى الأقراط التي تتدلى من آذان فتيانهم، والوشم الذي احتل عضلات أذرعهم، وارتسم على بطون الفتيات.

أمـــا الوطن الذي يتقلص، البشر الذين يتحولون بالتدريج إلى أقلية، السيادة التي خرجت من ثقب آخر جدار في الحضانة، فإنما لم

تلفـــت إلـــيها انتباهه، كان وطناً مغنّياً، وشعب زاخراً ببؤس يكفي ليوزّع منه على شعوب العالم بالقسطاس، فيفيض.

لم يمض وقت طويل، حتى كان الشعب الذي أراد الزعيم تجهيزه ليصبح به إسكندراً جديداً، قد اعتاد ما يرى، تعايش مع الواقع، حتى أن مـــا يجري أصبح أمراً طبيعياً لا يستحق حتى إبداء الدهشة، وهو الأمر الـــذي شـــجّع الدول الكبرى، على إعادة تنظيم الدولة، ليكون لكل واحـــدة منها دولتها الصغيرة، ملحق للدولة الأم، اندفعت الأطماع إلى ذروتها مع نجاح التجربة، إذ سرعان ما أصبح للعديد من الدول صاحبة القـــرارات الرئيسية مدن متكاملة، هي في النهاية نماذج مصغرة من بلاد الوافدين، باتت الدولة الأكبر توزع الغنائم على حليفاتها، من الأراضي والموارد والامتيازات، وفقاً لدرجة الانصياع، ولمدى التعاون في المحافل، وفي إبداء أقصى درجة من الاستعداد للدفاع عن المصالح المشتركة.

لكـــن الخطـــر في ما بعد، كان في درجة المطالب التي أخذت تتـــزايد، والـــتي كان من مهام المارشال صياغتها، وتقديمها للزعيم، مـــؤهلاً النفس للدخول معه في جدل يومي طويل، ينتهي في العادة بالتوقـــيع، دون زيادة ولا نقصان، ضارباً النموذج الفاضح للثوري المـــتقاعد، المـــناهض للاستعمار، وسيطرة الأجنبـــي على مقدرات الشعوب، الداعي إلى تحطيم القيود، ومطاردة الاحتلال في أي مكان، والمحرّض لشعوب العالم على امتلاك زمامها، وعدم التفريط في ثرواتها للمـــستغلين، والطـــامعين، دون أن يدرك أنه يسلم وطنه ومقدراته بمنتهـــى اليسر، ما دام الأمر مستتباً، وما دامت تلك التوقيعات تتم وهـــو جالس على الكرسي الذي تقول له قرون استشعاره، إن من حوله يطمحون للاستيلاء عليه، وأن البطولة العظمى تكمن في القدرة على منع هؤلاء الأوغاد من الحصول عليه.

ومـــع أن الأمر بات يسبب قلقاً عارماً لدى حكومات الدول المجاورة، إلا أن ذلك لم يكن ليدفعهم إلى عقد اجتماع عاجل، ما دام مـــا يجري داخل حدود دولة أخرى، عليهم فقط الاندفاع للتنسيق فـــيما يمكن اتخاذه، عند وصول الخطر إلى بلدانهم، لكنهم في الوقت نفسه كانوا على قناعة بأنه لم يعد في مقدورهم فعل الكثير لوقف أي ســـيناريو مماثـــل إذا تعرضـــت دولهم له، فما دامت الدول الكبرى وضعت قواعد عسكرية وبشرية لها في إحدى الدول المجاورة، فإن أمر مـــنع امتداد الحدث إلى داخل حدودهم بات من المستحيلات، وأن علـــيهم في كـــل الأحوال أن يعتمدوا على كلمة شرف وعدوا بها للحفاظ على بقاء ملكهم، وتوريثه فيما بعد، وأن من الأفضل لهم في هـــذه الحالة أن يقوموا بتقديم كل ما يمكن له أن يخدم مصالح الدولة الكـــبرى، حتى وإن كانوا يدركون في النهاية أنها وصلت إلى أحشاء المنطقة، وباتت متواجدة، مسيطرة ومهيمنة.

لم يعد أمام أنظمة تحجرت إلا التشبث بآخر ما لديها من أمال، شرط أن تسمح لها الدول الكبرى بذلك، وهو ما لا يمكن أن يصبح مقـــنعاً إلا إذا اســـتطاعت في النهاية حشد الجماهير له، ودفعها إلى الانطلاق في الميادين حاملة صور الزعماء الملهمين، بما يعطي الانطباع لصناع القرار في الدول الكبرى، أن هؤلاء الزعماء لا يزالون ممسكين بخيوط الجماهير.

عـــندئذ قرروا إعادة التنسيق لإخراج مظاهرات حاشدة يكون الهدف الوحيد من ورائها تجديد البيعة، وإطلاق الهتافات التي تشنف آذانهم، والتي تمنح الأرواح والدماء المجانية لافتداء الزعماء، حتى يحين الـــوقت، وتنقلب الأحوال إلى ضدها، فيتردد نفس الهتاف، وبنفس درجة الحماس، لافتداء الآخرين الصاعدين.

لم يستغرق الأمر وقتاً حتى كانت المظاهرات تعمّ الميادين في الدول المجاورة، ومع أن المشاركين الذين خرجوا فور صدور الأوامر لهم، لم يدركوا بالتحديد السبب الملحّ، ولا عرف المراقبون والمحللون السياسيون ما يدعو إلى إطلاق الحشود، إلا أن تلك الأمور في النهاية كانت معتادة في مثل هكذا دول، تضع أنظمتها شروط الوفاء في السرائر والهتاف في الميادين العامة ورفع اللافتات المؤيدة، كخطوات أساسية للتوظيف والتعليم والانخراط في المجتمع، والبقاء على قيد الحياة.

كانت تلك رسالة معتادة، لكنها لم تكن لتصل هذه المرة بنفس الدرجة التي كانت عليها سابقاً، ربما لأن الدول الكبرى فهمت اللعبة، فالمظاهرات لا تحتاج في العالم الثالث لأكثر من إشارة، كلمة من مسؤول، سرعان ما ينطلق في أعقابها الهتافون إلى الشوارع، يفتدون بالروح والدم، وما دام الأمر كذلك فليس هناك من ضرر إن بات التظاهر عملاً يومياً لأوطان لا تعرف من التنمية إلا زيادة أرصدة الزعماء، ولا تعرف من الأمن إلا حمايتهم والسهر على أمنهم، ولديها قدرة عجيبة على التضحية بالحاضر وانتظار المستقبل الذي عادةً ما يقول عنه كل نظام أنه سيكون مشرقاً.

بات أمر امتداد الأحداث العاصفة التي شهدها وطن الزعيم إلى الدول المجاورة مسألة وقت، فكل الدلائل تشير إلى أن الصلاحيات الواسعة، التي كان حكام تلك الدول منحوها لأنفسهم وعائلاتهم، باتت موضع تساؤلات لدى صناع القرار في الدول الكبرى، إذ لم يكن هناك من سبب يدفع مثل تلك الدول لإبقاء الرهان على حكام باتوا أكثر بعداً عن نبض الشارع.

راح الحكام يواصلون الاجتماعات، يتدبرون طريقة للتعامل مع تطورات متوقعة، ستشهد هذه المرة تهديداً مباشراً لسلطاتهم، بفرائض

مــــرتعدة واصلوا النهار بالليل، إذ أدركوا أن فرص المناورة أصبحت ضـــئيلة، وليس أمامهم إلا تقديم المزيد من عروض الخدمات للدول المهيمنة، وإلا فالنتيجة هي الإطاحة بعروش غامروا يوماً لاختطافها.

في تلـــك الأثناء، كان الزعيم في دنيا أخرى، بعدما تخلّى عنه الجمـــيع، و لم يعـــد لديـــه من مهمة إلا إضفاء الشكل الرسمي على القـــرارات التي تتخذ باسمه، دون أن يكون من حقه الاستفسار عن ســـبب إصـــدارها، انحصرت كل مهماته الرئاسية في جرّة القلم التي يضعها في مكان محدد له مسبقاً.

هـــبط مـــن مكتـــبه الرئاسي، انطلق إلى الحديقة غير أنه وجد حارســـيه اللذين كانا في العادة طوع بنانه، يقفان سداً مانعاً، رفضا الـــسماح له بالوصول إلى مكانه الأثير، لم يعد بإمكانه إلا السير في طـــريق واحد داخل القصر، يقوده من غرفة نوم يقبع فيها وحيداً إلى مكتبه، في بداية العمل الرسمي ونهايته، دون أن تصعد إلى ذهنه فكرة مفاجئة، تحضّه على التوجه إلى أي مكان آخر.

ضـــاق بالقيود، إذ رأى أن الخناق يزداد إحكاماً، وتتقلص مع مطلع كل نهار المساحة المسموح له التحرك في إطارها.

قـــرر عدم التوقيع على القرارات الرئاسية، لكن ذلك استدعى رداً حاسمـــاً، لـــيس من المارشال هذه المرة، ولا من موظفي القصر الكـــبار، تـــدخل السفير، أوعز للسكرتير الخاص بالاتصال بالزعيم وإبلاغـــه بـــضرورة عدم التمرد مرة أخرى، تذكيره بأنه بات مجرد موظف بدرجة رئيس، وأن الإبقاء عليه مرهون بمواصلته التوقيع على القرارات، من دون إبداء نقاش، ولا محاولة معرفة ما يدفع لإصدارها.

كانـــت اللهجة التي أوصل بها سكرتير السفير الرسالة جارحة، بلغت من شدة إهانتها، أن الزعيم الذي بات شبيهاً، شعر بصدمة من

تلقـــى صـــفعة قاسية، غير أن غضبته هذه المرة، ولا حتى في المرات القادمـــة سوف تنفعه، لن تساهم في التئام جرح آخذ في نـــزيف، ولن توقفه مباضع أمهر الجراحين.

منذ تلك اللحظة راح يعاني نوبات اكتئاب، إذ تكاثرت صور الإذلال عليه، بات يدرك أن ما يجري له يستهدف إيصاله إلى الشعور بأقـــسى درجات المهانة، ها هم ينتقمون منه، بأيدي عملائهم، لأنه فكّـــر ذات مرة أن ينفرد وحده بالوطن، أن يبنيه وفق طريقته، يفكر يـــوماً في بـــناء إمبراطورية تتسع لطموحاته، حتى وإن كانت تلك الأحـــلام في داخلـــها، محشوة بالسذاجة، وحافلة بكل ما يمكن أن تنـــزله التركيبة المستبدة بشعوبها، بعد أن تنجح في تحويل أفراده إلى قطيع.

لـــيس المهم أن التجربة كانت تحمل في داخلها عوامل انهيارها، مـــا يحوّلها من مشروع إعادة صياغة وطن إلى كارثة عارمة، بل إن العقـــاب يجـــب أن يكون على مجرد التفكير في الأمر، على اقتراف الـــنوايا، وبما يبعث برسالة إلى الآخرين تحذرهم من مغبّة أي تفكير يكـــون خارجاً عن السياق، أن يتم الاندفاع إليه قبل الحصول على إذن مـــن الدول الكبرى، فليس للأحلام أن تتواصل، أو للعقول بأن ترتكب جريمة التفكير، دون ترخيص أممي.

ومـــع أن الـــشائعات انطلقت تتردد في كل مكان عن الوضع الـــذي بات عليه المهيب في نهاية المطاف، إلا أن أحداً لم يكن لديه تأكـــيداً بـــأن ما يشاع هو الحقيقة، وكان الجميع على يقين من أن ســـطوة الرجل لم تعد كالسابق، وأن الظهور الطاووسي الذي كان يطل فيه من شاشة التليفزيون الوطني قد تقلصت، وباتت تقتصر على مناســـبات يردد فيها كلاماً معاداً، وبمرور الوقت، صار أمر اختفاء

إطلالـــة الـــزعيم معتاداً، تآلف معه المواطنون، كما أن حكام الدول المجـــاورة ظلـــوا على يقين من أن ما جرى له، وبلاده لم يكن نتيجة لمغامرات هوجاء ارتكبها، مع بلدانهم وأنظمتهم فقط، بل مع الدول الكـــبرى الـــتي أصـــبحت اللاعب الرئيسي، أخذوا في كل مناسبة يـــرددون عـــبارة واحدة: "إن 99% من أوراق اللعبة في يد الدولة الكبرى"، علقوها على الحائط المواجه لكراسي الحكم، حكمة رئاسية ابتدعوها وصدقوها.

بـــات الـــسباق محمـــوماً في سبيل الحصول على رضا السفراء القابعين في بلدانهم، قبل أن يتحول هؤلاء القادة أيضاً إلى مجرد ديكور في إطار لعبة ضخمة، تمّ ترتيبها لدول المنطقة، كان الهدف الأهم هو تفتيت أي موقف يمكن أن يشتم منه رائحة تنسيق إقليمي، ولم يكن ذلك في النهاية وبعد أن أسقط في يد الحكام أمراً يمكن الهروب منه، غير أن ما كان يقلقهم، هو أن يتشابه مصيرهم مع ما حدث للزعيم ووطـــنه، ومع أنهم كانوا مطمئنين النفس إلى أنه لم يبدر منهم في أي وقت ما يهدد مصالح الدول الكبرى، كما أنه لا يوجد لديهم ما يمنع مـــن القـــيام بدور الوكلاء، إن هي في الأصل وافقت، إلا أنه على الـــرغم من المشي وفق الصراط المستقيم، فلم تكن لديهم أي ضمانة للإبقاء عليها، بعيداً عن الزاوية المهملة التي تأوي الزعيم.

راحـــوا يعرضـــون إنشاء مستعمرات سكنية، بالغوا في منح امتيازات للعديد من القطاعات، في تخصيص نسبة كبيرة من ميزانية دولهـــم لـــشراء أسلحة منتهية الصلاحية، إنقاذاً لصناعة ضخمة كـــادت تبور، والتعهد باستعمال الأسلحة المشتراة تحت إشراف دولي في قمـــع شـــعوبهم، إن هي غضبت يوماً على اتفاقية ما، أو احتجت على تنازل.

عرضوا على كبار صناع القرار عمولات ضخمة من مشاريع وهمية، مقابل تعهد بحماية الكراسي، أن يضمن هؤلاء عدم التفكير في تهديد مكانتهم، أو تحريض شعوبهم ضدهم.

صفقات هائلة، لو طبقت ستستنزف موارد دول هي في الأساس محدودة، بعد أن وصل الحال إلى حافة الفقر.

أخذ حكام تلك الدول يجتمعون لبلورة الصيغ النهائية، قبل أن يحملوها بأنفسهم وينتقلوا بها في رحلات مكوكية إلى الدولة الكبرى أولاً، ثم يمرون بعدها في زيارات على الدول الأقل درجة، والتي باتت بعد تغييرات هائلة شهدها العالم في سنواته الأخيرة، مجرد أعضاء في جسد الدولة الأضخم.

حققت الرحلة نجاحاً منقطع النظير، اتفاقيات وقّعت تضمن استمرار الفوائد للكبار، اتفاقيات للحماية، وإقرار بأن استقرار الدول هو من استقرار الأنظمة.

(5)

بعد أن قام بمحاولات عدة لاستدعاء "أم الوطن" عقب اختفائها من حياته، غاضبة من الأوضاع التي أوصل إليها البلاد والنظام، ومن القرارات الأنانية التي غدرت بها بعد الوقوف إلى جواره، هبّ الزعيم مستفيقاً من غفوة كانت قد أخذته للتو، رفع رأسه من فوق المكتب الرئاسي، إذ سمع وقع خطى قادمة، كان الزاوية التي يقع فيها مكتبه بعيدة بمسافة طويلة، حتى أنه كان قادراً من تلك المسافة على سماع دبيب النمل إن اخترق الموانع وتسلّل إلى مكتب كان يتحكم منه في البلاد والكائنات السائرة فيه والزاحفة والعائمة والهائمة.

كـــان وقع الأقدام القادمة لأم الوطن، تلك السيدة التي تعرف كيف تختار الوقت المناسب لرسم ملامح التجهم وتمثيل الابتسامات، هـــذه المـــرة هبّ واقفاً بانكسار، لانت حدتها حين رأت الحال التي وصـــل إليها، شعر الذقن المسترسل، علامات الإهمال التي أحاطته، وخطوط الأتربة التي تركت بصماتها على كل قطعة من أثاث المكتب الذي كانت له الهيبة.

لم يخطر في بالها أن تصل الأمور إلى تلك الدرجة المزرية، لم تتوقع إتيان اليوم الذي يتحول أبو الوطن إلى كائن هزيل ملقى في ركن مهمل بالقصر الرئاسي، انتفضت فيها علامات الغضب، رقّ قلبها للحال التي وصـــل إليه، غير أنها وبنفس الدرجة التي تجيد بها إخفاء مشاعرها، في نفس اللحظة التي تستطيع فيها التقلب من النقيض إلى النقيض، واصلت رسم علامات التجهم، رفضت الجلوس حين لمحت الأتربة المتراكمة فوق أحـــد الكراسي المخصصة للضيوف، تلك إشارة على أن لا أحد يزور هـــذا المكـــان، على أن الزعيم الذي لم يكن يجد وقتاً في السابق لرؤية عائلته، بات يعاني من وحدة قاتلة، حيث لا أحد يسأل عنه، لا صوت يـــأتي عبر رنين الهاتف، كأن من كان ملء الأسماع والأبصار يوماً، لم يعـــد هو نفسه، ها هو الآن مجرد شبح يستحق الشفقة، لكن طعنته التي وجههـــا لها، حين فكّر ثم نفّذ الزواج من فتيات أبكار، مثّل لها جرحاً غائـــراً، لم تـــستطع بمضي الوقت تجاوزه، رغم حصولها على امتيازات ضخمة تسببت فيما بعد في قصم ظهر البلاد.

• أرأيت إلى أي درجة وصل الزعيم؟ أرأيت الإهانة التي توجّه إليّ؟

- أنت الذي وثقت في هؤلاء، رفعتهم، قرّبتهم منك، منحتهم صـــلاحيات واسعة، أطلعتهم على كل الأسرار، جعلتهم يتحكمون

في تفاصيل الأمور في الوطن، وها هم غدروا بك، هذا الذي حدث هو من نتائج اختياراتك.

• ظننتك جئت لمواساتي، ألم تتركيني أنت أيضاً وابتعدت بعد أن ساء الأمر.

– لــتكف عــن تحميل الأخطاء للغير، لقد كنت على رأس الــسلطة، كــل أمــور الوطن في يديك، أضعت كل شيء نتيجة رعونــتك، وقراراتك الهوجاء، أضعت ملكك، وأضعت أسرتك، أنا الــذي أسألك الآن: ما الفائدة التي عادت عليك من الحماقات التي ارتكبتها ضدي؟ ما الذي جنته يداك من تلك الزيجات؟ أين هن الآن اللواتي فضلتهن عليَّ؟ أين الرجال الذين أنجبت أيها الزعيم؟

• لم يعــد هناك من جدوى لطرح تلك الأسئلة، أرجوك، أنا الآن أعيش أوقاتاً صعبة، أحتاج إليك، لا إلى التقريع.

– ومــا الذي يمكنني فعله الآن بعد أن أهنتني، طعنتني بسكين حاد، كيف لي أن أنجح في إيقاف النــزيف؟

• وهــل ترين أن بإمكاني الآن أن أعيد الزمن إلى الوراء؟ لو اســتطعت سوف أعلن ندمي الشديد على تلك الفعلة، إنني أدعوك لتسامحيني وتغفري لي تلك الأخطاء، أنا أحتاج إليك.

– للأســف، نحــن نلعب الآن في الأوقات الضائعة، لا أحد سوف يصغي إلينا مهما قلنا، مهما أعلنا الاعتذار للشعب، لقد فات الوقت، ضاع الملك والسطوة، فمن يستمع لنا؟

• دعــك مــني أنــا، فقد شوّه هؤلاء الأنذال صورتي لدى الــشعب، لكن أنت "أم الوطن" لا زالت لك مكانتك وسط النساء والفتــيات، إنهــن نــصف عــدد السكان، ولهن تأثير على الأبناء والأزواج.

- ربما كان كلامك صحيحاً، لكن المشكلة هي أنك في النهاية تـــركت شعباً مقعداً، ليست لديه أي رغبة في القيام بفعل إيجابــــي، ألم تساهم أنت في إيصاله إلى هذا الوضع؟ ألم تكن تريد هذا الشعب طيعاً؟ ألم ترد صياغته وفق ما ترغب؟

• كـــل ما فكرت فيه كان لصالحه، أردته شعباً عظيماً يسود العالم، قوة مهمة ينظر إليها العالم بإعجاب، لم يخطر في بالي يوماً أن تلك ستكون النهاية، لو شعرت بذلك ما كنت فكرت في هذا الأمر أصــــلاً، أريـــدك أن تعرفي حجم الدسائس التي حيكت ضدي، هم الـــذين سعوا لإحباط المشروع الكبير، هم الذين اتفقوا مع عملاء، ونخروا كالسوس في داخل البناء، ما حدث ضدي كان مؤامرة، وها هم يريدون لي أن أشعر بتلك المهانة، أن أتعايش معها، ولكن هذا لن يحدث، أليس كذلك؟

- إنـــك تعيش في المهانة فعلاً، انظر إلى مكتبك الرئاسي، لقد كـــان الـــشعب، بكــــل فئاته، علماء، أكاديميون، فنانون، نواب، إعلامــــيون، قـــيادات من مختلف المجالات على استعداد في أي وقت للحـــضور إلى هنا ونيل شرف إزالة التراب من الكرسي، أما اليوم، فحتى الخدم يرفضون الاقتراب منك ومن مكتبك، يتركونك لتقوم بما يجـــب عليهم أن يقوموا به، لقد تغيّرت كل الأمور وعليك أن تدرك أن الزمن لن يعود إلى الوراء.

• بـــل سيعود، على يديك، أنت صاحبة الحظوة، أنت الأمل الـــذي أنتظـــره، الذي أدرك انه آخر خيط أمامي يخرجني من تلك الحالة، لا زالت لك حظوة، لدى عائلات الوطن.

- ليـــست كمـــا تظن، لا أعتقد أن هناك مصلحة لهم عندي الآن، كـــي يهيمون بـــي عشقاً، حين كانت السلطة في أيدينا، كنا

النبض في القلوب، كانوا يبحثون عن اللحظة الملائمة ليكون لهم حظوة السماح بلثم أقدامنا، أما الآن، انتهت الدوافع، لم يعد من حقنا أن نتمنى العيش بشكل طبيعي مثلهم، في هدوء، وسكينة... لقد تبدلت الأحوال أيها الزعيم السابق.

• أرجوك، لا تقولي مثل هذه الكلمة القاسية، لا زلت الزعيم، وسأعود مجدداً قوياً، إنها لحظة عابرة وستنتهي، فهكذا الأمم تمر بين وقت وآخر بلحظات انكسارات، لكنها تتمسك برموزها، وأنا أدرك أن الشعب يتعلق بي، لكن الأعداء في الخارج، والطابور الخامس هم الذين يريدون الحيلولة بين شعبي الرائع وقائده التاريخي.

- ألم تشبع بعد من هذه الشعارات الخائبة؟ ألم تكفك السنوات الطويلة وأنت تلوكها؟ هذا شعب بارد، ليس لديه النبض الذي يسري في أجساد مواطني الدول الأخرى، هذا وطن أبكم، مشلول، فلماذا تمني النفس بأوهام؟ لن يفعلوا شيئاً لأجلك ولا لأجل غيرك، لا يملكون سوى الرقص في الشوارع، الهتاف في الميادين، المبايعة والكلمات الجوفاء التي قيلت لك وقيلت لمن كان قبلك، وستقال لمن سيأتي بعدك.

• لا يجب أن ترددي كلاماً كهذا، يجب أن تحسني الظن بهذا الشعب، إنه ينتظر الفرصة الملائمة لينقضّ على الأعداء، ليعيد تصحيح المسيرة تحت رايتي، أنا على يقين بأن ذلك سيحدث حتى لو تأخر الأمر قليلاً، لكنه سوف يحدث.

- ألا تريد الخروج من تلك الدائرة، ألا تريد أن تنفض عنك أحلام اليقظة؟ أما زلت تتصور أنها هي الحقيقة؟

• دعك من هذا الجدل الآن، دعينا نضع خطة عاجلة للخروج من تلك الحالة.

- وما الذي تريده مني؟

• أن تواصلي اتصالاتك بالمنظمات النسائية، تحدي ثقة الشعب فيك، أن تدفعي كل مواطن للمطالبة بالنظام والحفاظ عليه، تقومي بحضهم على تنظيم مظاهرات عارمة في الشوارع والميادين لتجديد العهد والوفاء للزعيم وقيادته، إن ذلك سوف يكون رسالة مهمة للأعداء كي يرتدعوا عن السير قدماً في مخططاتهم الدنيئة، وإشارة للطابور الخامس تحذره من الاستمرار في خيانة الوطن وقائده.

- ومن سيسمح لنا بذلك أيها الزعيم؟ ألا تعرف أن الأرض الآن باتت مزروعة بالجواسيس؟ من يضمن أن لا تكون تلك الغرفة التي نتحدث فيها كذلك؟ من يضمن لك أن لا يكون حديثنا الآن منقول بالصوت والصورة لهم؟ ثم ألم تفعل أنت ذلك مئات المرات؟ ألم تتجسس حتى على أخلص خلصائك؟ فلماذا تفترض أنهم سوف يتركونني أتصل بتلك المنظمات؟ من أعطاك الاعتقاد بأنهم ساذجون إلى هذا الحد؟ أو حتى طيبون إلى درجة تركي أفعل ما أريد، وترك الشعب كي يهبّ عن بكرة أبيه لأجل عيونك وعيوني؟

• لا، لا، لا يجب أن يصل التشاؤم بك إلى هذا الحد، هناك شعوب كثيرة في العالم تتحرك، على الرغم من كونها تحت أعين قوات الأمن وأجهزة الاستخبارات، إن هذا أمر طبيعي وقاسي في الوقت نفسه، لكن الشعوب حين تريد التحرك وكسر الأغلال، فإن أحداً لا يمكنه وقفها، علينا فقط أن نحاول، ألا نفترض حدوث العقبات قبل التحرك الفعلي.

- ما تقوله من الصعب جداً أن يتحقق في الظروف الحالية، صدقني مهما حاولت فلن تستطيع فعل أي شيء، نحن أمام حالة عجيبة، هذا شعب مشلول عن الحركة، وعن التفكير، ليست لديه

أي أحاسيس بالنخوة، ببساطة هذا ليس شعباً مثل بقية الشعوب، بل في الأصل لم يكن يصلح لأن يكون شعباً، أنت صنعت وهماً، وتريد مـني الآن أن أركض وراء سراب، أن أضحي مرة أخرى، على أمل أن تتحول الصخور الجامدة إلى رياح عاصفة.

• لو قال هذا الكلام الذي تقولين أي ثائر في العالم فلن يتغير أي شـيء، لوقفت حركة التاريخ عند نفس النقطة التي خلق عليها الكـون، يـا أم الـوطن، عليك أن تتحركي، فأنت الأمل الوحيد لـزوجك، وإلا فـإن ابنتك هي الأخرى سوف يأتي الدور عليها، ستطرد مـن حكـم الولاية، سوف تتبعينها أنت أيضاً، ليس من المـستبعد إن استسلمنا أن يتم مصادرة أملاكك، أن يتم تجريدك من مقتنياتك، بل أن تتم محاكمتك، هناك مليون مبرر، مليون اتهام ملفق سوف يتم تكييفه لمحاكمتك ومحاكمة ابنتك، إذا لم يكن هناك تحرك عاجـل منك، فإن الطوفان قادم... تحركي الآن فإن أصبت نجونا، وإن أخفقـت فلن نخسر سوى ما كنا سنخسره لو وقفنا في أماكننا متفرجين.

(6)

علـى الخط الآخر، كان المارشال قد فرغ نفسه للاستماع إلى نـص المحادثة، كانت أجهزة متناهية الدقة تنقلها مباشرة إليه، شعر بامـتعاض كبير، ثم بغضب هائل، غير أنه كان منذ بداية عمله، قد درّب نفـسه على ضبط الانفعالات، وعدم تمكينها تحت أي ظروف من الخروج إلى العلن.

ترك المحادثة تسير وفق خطها المعتاد، على الرغم من أنه سمع "أم الوطن" تحذّر الزعيم من التقاط تفاصيل اللقاء.

وفـــيما كـــان المارشـــال يستشيط غضباً، كان هناك أمران ظلا يتنازعان "أم الوطن" بعد خروجها من المكتب الرئاسي، أولهما الاستياء مـــن الحالـــة المزرية التي وصل إليها زوجها، والتدهور البالغ السوء في صحته البدنية، بشكل سيؤثر سلباً على تماسكه النفسي، والآخر كانت تلـــك العبارة التي أوردها في نهاية اللقاء وأشار فيها إلى أن المصير الذي ينتظرها لو قامت بمحاولة لرفع الحصار عنه، لن يكون أشد وطأة عليها مما قد ينتظرها لو ظلت ساكنة في مكانها، تكتفي بالفرجة.

كـــان ذلك ما يخيفها، إذ كيف يمكن لها أن تأمن جانب هؤلاء الذين استفردوا بزوجها، كيف لها أن تطمئن في الأيام القادمة، على الرغم من أنها تلقّت منهم بامتنان، هدايا ومنح من دون علم الزعيم، هـــي الآن تـــشعر بمخاوف عارمة، تدرك أن الدور لا بد آت عليها مهمـــا حاولت إبعاد الهواجس عن ذهنها، ثم ما الذي يضمن لها أن يقومـــوا في الغد بعزل الابنة، أن يصدروا قراراً سوف يصادق عليه زوجهـــا رغماً عنه، يقضي بتنحية الصغيرة عن حكم الولاية، وقراراً آخراً سوف يلغي لقب "أم الوطن" ومزاياه؟

داخلـــها شـــعور بالاكتـــئاب، ندمت كثيراً على قيامها بتلك الزيارة، غير أنها في النهاية كانت ستزوره يوماً، فمن غير المعقول أن تظل إلى هذا الحدّ بعيدة عنه، في الوقت الذي انتشرت فيه الشائعات، وملأت البلاد طولاً وعرضاً عن أنها هجرت زوجها، تركته وحيداً، وما قد يسببه ذلك، في القضاء على ما لها من حظوة لدى فئات من الـــشعب، إذ لم يكن مقبولاً أن تترك زوجة شريك حياتها في وقت محنته، وأن تتخلى عنه مثلما فعل الآخرون.

كانت تدرك أن ذلك إن حدث فسوف يعطي ذريعة لمن يتربصون بها سوءاً، واتخاذ قرار بعزلها وإلغاء اللقب وإبعاد الابنة عن الحكم.

هـذه الشائعات كانت السبب وراء ذهابها إليه في مكتبه، بعد طـول انقطـاع، ليس عن منـزل الزوجية، ولا عن الالتقاء به في المناسـبات، بـل إنها لم تفكر أصلاً في معرفة أحواله، والسؤال عن صحته ولو بالهاتف.

عليها أن تتحرك بجدية، أكثر من كل المرات السابقة، أن تنقذ من الأمر ما تستطيعه، وإلا فإن النتيجة ستكون وبالاً في النهاية.

علـيها أن تبذل المساعي لإعادة الهيبة، للتواصل مع المنظمات النـسائية، والشخصيات التي ساهمت في صناعة حضورهن، هؤلاء اللـواتي جلبتهن من وظائف عادية، ومهن متوسطة القيمة وأسندت إلـيهن مناصـب كبيرة، انتقتهن بعناية ليكن ذراعها الأيمن وعيناها وأذناهـا، قامت بتدريبهن، بتسليط الأضواء على كل خطوة سرن فـيها، اسـتطاعت خلال شهور قليلة تحويلهن إلى نجمات في سماء الإعلام، وشخصيات قوية ذات أسماء لامعة وصاحبات قرار، أغدقت عليهن وعلى أزواجهن والأبناء، فتحت أمامهن الطرق جميعها ليكن عضوات في حاشيتها، أمسكت عن طريقهن فيما بعد بكافة الخيوط المـؤدية إلى كل شيء في الوطن، حتى من دون أن يدرك الزعيم ما يحـدث حوالـيه منهن، عدّلت لأجلهن قوانيناً ما كان يمكن لها أن تعـدّل في بلـد محافظ، فصّلت لهن قوانيناً جديدة، فتحت أمامهن المناصـب والوظائـف، حتى صارت النساء في عهدها، مسموعات الكلمة، قامعات للرجال، وفيما أدركت الأمراض الناتجة عن الحضانة معظم الرجال وأقعدتهن، فإنه كان من النادر أن تصاب النساء، الأمر الـذي احتار فيه الأطباء، تكالب المرض والفقر والجهل والسكينة، والنـساء المنـتقمات، علـى الأزواج، راحت النسوة خلال المحنة الرجالية، يمارسن إذلال الأزواج الذين تعاملن – في السابق – معهن

بخشونة، قبل أن ترفع "أم الوطن"، أصواتهن إلى الأعالي، فتنخفض بنفس الدرجة، أصوات الرجال، تنكسر، وتخرّ على الأرض في انهزام.

النسوة اللواتي كنّ يشكلن قوة ضغط هائلة، كان اهتمامهن الأول منصباً على الخدمات الاجتماعية، وهو المجال الذي فاق سواه في عصر "أم الوطن"، وفي السعي لتحصيل المزيد من المكاسب للمرأة، هو ما أدركت أم الوطن أن ما زرعته فيه لن يتمكن غيرها من إبعاده عن ذاكرة الشعب، كان ذلك رهانها، وإن باتت تشك في كل رهان يضع صوب عينيه شعباً زئبقي كهذا، هتّاف لكل من يعتلي مقعد الحكم.

قامت باستدعاء قيادات نسائية إلى القصر الرئاسي، لم يكن هناك من يعترض، لا المارشال ولا أعضاء جوقته، كانوا لا يزالون يحسبون لها بعض حساب، سارعت بعض النساء بالمجيء وتخلفت أخريات، متعللات بالمرض أو بالسفر أو حتى بالانشغال، ذلك ما أغضب "أم الوطن" التي لم تكن واحدة من هؤلاء اللواتي صنعتهن بيديها، تجرؤ على اختلاق أي مبرّر كي تتخلف عن تلبية طلبها، حتى ولو كانت على سرير المرض، غير أن الغضب في النهاية لم يكن له جدوى، إذ كان عليها التحرك فوراً وعدم إضاعة الوقت في تفاصيل من الأفضل أن يتم التجاوز عنها.

راحت تتحدث معهن في همومهن، تستفسر عن الأحوال العامة، تمارس نفس الدور الذي كانت تفعله، قبل أن يؤول الحال بالزعيم إلى ما وصل إليه.

ردّت على تساؤلات كثيرة، استمعت إلى شائعات، أكدت لضيفاتها أن الأحوال تسير كالمعتاد، وأن انقطاعها عنهن كان لظروف صحية لم تشأ أن تبلّغ بها أحد، وأنها منذ تلك اللحظة

سوف تستأنف نشاطها وسطهن، ستكون أكثر قرباً في كل المواقع، سوف تواصل معهن العمل من الوطن، الذي يستحق أن الافتداء بأرواحنا والدماء، وأن "نجعل من جماجمنا لعزّه سلماً".

عادت الشعارات مجدداً في وقت لم يعد الشعب مهيئاً لها، غير أن "أم الوطن" وجوقتها كنّ يرددن ما ظل الزعيم يتغنى به، تلك العبارات التي كان ينتقيها، ويجلس الساعات الطوال مع المؤلفين والملحنين ليضع ملاحظاته عليها، يطلب منهم تعديل ما يراه غير مناسب، ثم يقوم بحفظه وترديده في مناسبة من مناسباته الكثيرة، فيتحول على الفور إلى أناشيد قومية سرعان ما تنضم إلى مجموعة المحفوظات التي تفرض في أناشيد الصباح المدرسية، وطوابير استعراضات الكليات العسكرية وحفلات الأعراس وافتتاحيات حفلات الحدائق الترفيهية.

كانت تلك الخطوة مدخلاً لإعادة الصلة، التي كانت بين أم الوطن وحاشيتها، وهو الأمر الذي ظلت السلطات ترصده، منذ اللحظة التي استمع فيها المارشال إلى ثرثرة دارت بينها والزعيم، اتصل على الفور بسفير الدولة الكبرى، أخبره بما جرى داخل المكتب الرئاسي، أطلق الرجل القوي واحدة من ضحكاته، تلك التي لا يعرف محدثه ما يمكن أن يكون القصد منها، قبل أن ينطق مطمئناً المارشال بأن كل الأمور تحت السيطرة، فمهما فعلت تلك السيدة فلن تغيّر من الأمر شيئاً، دعاه لتركها تتصرف كما تريد، دون منحها الانطباع بانزعاج السلطات، تتحرك بنفس الحرية التي كانت لها في السابق، قبل أن يتم وضع زوجها في إقامته الجبرية، فالزعيم أصبح طائراً سميناً، تساقط الريش عن جلده، وباتت زوجته دليلاً على زمن ينتهي بالتدريج، وإن كانت هناك نسوة لا زلن

يشعرن تجاهها بالامتنان، ويتقربن منها، فإن الأكثرية انفضضن عنها، وفضلن تركها وعائلتها لمواجهة مصيرهم.

أكــد السفير أن الأمور تسير في الاتجاه المرسوم، مهما حاول الزعيم أو زوجته تحريك شعب، يمتلك قدراً من البلادة، لو تمّ توزيعه على سكان الأرض لفاض.

قررت أم الوطن العودة إلى عشها، باتت تجد وقتاً للحديث مع زوجها، عادت معها الابنة الوحيدة لتنام رغم نمو جسدها في أحضان الــوالدة الحنون، كان يتم الذهاب بها كل يوم لشغل منصبها، حيث جهّــزت لها غرفة مكدسة بالألعاب الحديثة والدمى الناعمة، بعد أن تظل هناك ساعات دون أن تدري شيئاً عما يحدث، يتم إعادتها مجدداً لترتمي على صدر الأم وتبكي.

كـــان الحديث يدور بين "والد الشعب وأمه" حول الموضوع الــذي بات يشغلهما، فيما كانت الثالثة تلجأ للنوم إذ يستعصي علــيها فهـــم ما يقولان، كانت الزوجة في كل يوم تقدم تقريراً يتلقاه الزعيم بارتياح، إذ يدفعه للاطمئنان إلى أن انتصاره الحاسم، ســوف يــتحقق، وســيتم الردّ الحاسم على من انتهكوا حرمته، ســيردّون خائبين على أعقابهم، هم ومن حالفوهم وغدروا بحامي الحمى.

أما أم الوطن فكانت في كل يوم تقابل وجوهاً متزايدة، الأعداد الــتي كانت تأتي إليها، دفعت في نفسها الأمل، راحت تقترح إقامة مــشروعات جديدة لصالح النساء، تستمع إلى النصائح التي تسدي إلــيها من المقربات حول الأعمال الاجتماعية والخيرية، وتواصل في الــوقت نفسه كتمان ما تنويه، بينما كان كل ما يدور بينها والنساء خــلال اللقـــاءات اليومية، أو في اللقاءات العائلية، تبث على الهواء

مباشـــرة إلى أذن المارشال، الذي كان لديه ولع شخصي بمتابعة ما يـــدور، علـــى الرغم من سخرية السفير من تلك الاجتماعات، ومما يمكن صدوره عنها.

ومـــع أن النـــساء استبـــشرن خيراً بعودة "أم الوطن" لممارسة أنشطتها وهو الأمر الذي أعطى زخماً للحركات النسوية، وتمّ تغطيته بالـــشكل المعتاد، إلا أن المارشال كان على نفس الدرجة من القلق، لكـــنه في المـــرة الأخيرة حين اتصل بالسفير وأخبره بأن عدد الذين يـــتوجهون إلى القـــصر للقاء أم الوطن في ازدياد، تلقى تحذيراً من الإقـــدام علـــى ارتكاب أية حماقة، سوف لن تسفر إلا عن عواقب وخـــيمة، فأي معاملة خشنة سوف تنقل عبر وسائل الإعلام العالمية التي بات الوطن مركزاً لها في المنطقة.

قال السفير إن ذلك لو تمّ، سوف يتحول إلى فضيحة كبيرة، لن تكون في صالح بلاده، وربما صبّت لمصلحة الزعيم وزوجته، وهو ما لا يجب أن يحدث.

دعـــاه إلى تـــرك الأمور تسير كما هي، ما دمت تمضي بشكل ســـلمي، طلب منه عدم تضخيم مشاعر الخوف، لا من نساء الوطن ولا حـــتى من رجاله، بل ولا من الزعيم الذي كانت الدولة الكبرى تتعامل معه على أنه مجرد رجل يهذي في العادة، ويمارس جعجعة التي هـــي في الـــنهاية مـــن النوع الذي ليس فيه طحناً، فليمنح الفرصة للتنفـــيس عـــن نفـــسه، فهو في النهاية وحيد منبوذ، غير قادر على استعادة مكانته السابقة.

كـــرّر السفير مجدداً وعوده للمارشال بأن بلاده سوف تكون وفـــية لـــرجالها، الذين يثبتون كل يوم أنهم أهل للثقة، وأنها في كل الأحوال، ومهما كانت الظروف، لن تتخلى عنهم.

وحين داخلت المارشال مشاعر الارتياح، كانت "أم الوطن" قد دخلت من جديد إلى قلوب النساء اللواتي لم يبدر منهن، أي تعاطف مـــع الزعيم، على اعتبار أنه من صنف آخر غير زوجته الحنون ذات القلـــب الـــرؤوم، التي تقدم لهن العديد من الخدمات، والتي أعلت كلمتهن داخل البيوت على أشد الرجال فظاظة، ما دفع بعولتهن إلى إطلاق اسم زوجة الزعيم على ذلك القانون.

(7)

تكاثـــرت أعداد الجاليات، انتشرت القواعد، وسرعان ما تحوّل الـــوطن إلى مستعمرات، فمدن سكنية كبيرة، امتدّت في طول البلاد وعرضـــها، غطّت السيارات الحديثة الطرقات، وازدحمت الأسواق والمنـــتديات ببـــشر لهم ملامح مختلفة، سرت مخاوف من احتمال أن تكون اللحظة التي سيقتربون فيها من تشكيل غالبية السكان قد باتت غـــير بعيدة، عندئذ سيكون السكان الأصليون، هؤلاء الذين ولدوا على الأرض، أقلية في بلادهم.

وعلـــى الـــرغم من أن الحديث عن هذا التغيّر التدريجي قد بدأ همـــساً، إلا أنه سرعان ما تزايد بمرور الأيام، فرضت الظاهرة نفسها علـــى همـــوم الـــناس واهتماماتهم، كانت الحاشية المحيطة على علم بتفاصـــيل كثيرة، إذ هي من شارك في الصفقة، في حين ظلّ الزعيم قابعـــاً في مكانه، غير مدرك لما يجري على بعد خطوات منه، لم يكن له أو حتى لغيره من مواطني ذلك الوطن المنكوب ما يفعله؟ ما دامت القرارات تأتي من بعيد، دون أن يحق لأبناء الوطن مجرد الاعتراض.

تحـــولت الـــبلاد ومن عليها إلى رهينة، بات على الجميع أداء الأدوار المرسومة، أفراد الشعب، وزعيمهم، الفريق الرئاسي، وجيوش

المستـــشارين والمـــشرّعون، والطـــبالون، الزمارون، والراقصون في المناســـبات والمهرجون، وطن بأكمله، تحوّل كل من فيه إلى تروس طـــيّعة في آلـــة أطمـــاع كبيرة، حتى وإن ظلّ الوطن حريصاً على الاحتفال بعيد استقلاله، وحريصاً أكثر على استدعاء الزعيم ليؤدي دوره في "الفيلم الهندي".

مـــا أن اســـتقر الوطن علي هذا الحال حتى كان عليه أن يدفع الفـــواتير المستحقة، لم يكن كافياً ارتهانه، ولا زرع ورم سكاني فيه، ولا عـــدم معرفة أبنائه أين تصب موارده وعلى من يتم توزيعها؟ بل بات مطلوباً تعديل النهج الذي صار عليه منذ بداياته، عادات البشر وتقاليدهم، الأطعمة والأشربة، مناهج التعليم وأساليب التعامل، كل مـــا يـــدور فيه، أصبح الوطن في مخيلة المسيطرين القادمين غير صالح للعمل، يجب تجميعه ثم رميه في المحيط، وإحلال أساليب حياتهم هم، قـــيمهم، أغانـــيهم، رقـــصاتهم، أنماط التفكير والعادات والسلوك، ملابسهم وقصات الشعر، مشاربهم وأصناف الطعام، لتكون بديلاً.

يجب أن يعتمد أبناء الشعب أساليب القوى وطرق معيشته، نمط الحـــياة، لـــيكون الوطن العزيز مهذباً كما يجب، ومستهلكاً مطيعاً، ونموذجاً قابلاً للتعميم.

وفي الـــوقت الذي لم يتم فيه التمهيد بشكل جيد، لتعديل نمط العيش، كانت هناك وعلى الخط الموازي، عملية راكضة يشارك فيها المارشـــال والحاشـــية، تعنى بتهيئة الأجواء لإجراء انتخابات جديدة ســـوف يتم فيها اختيار أعضاء للبرلمان، يجب انتقاء مقاعده بعناية، فعـــن طريقه سوف تمرّر الحكومة القادمة قوانيناً مهمة، وعن طريقه أيـــضاً سوف يتم اختيار من يحكم الوطن، بديلاً للزعيم الملهم الذي تحوّل على الرغم من لقبه الرئاسي إلى مواطن من الدرجة الأخيرة.

كانت المعضلة التي واجهت فريق التخطيط المشترك، هي إصرار مفاوضي الدولة الكبرى، على أن يضم البرلمان القادم أعضاء يمثلون سكان المدن الأحدث، من هؤلاء الوافدين، بعد أن تحوّلوا بمرور الوقت إلى سكان، وهو ما دفع الفريق الآخر إلى التحفظ، بحجة أن الوقت الذي مرّ على هؤلاء قصير، وأنه من الأفضل - إذا وافقت الدولة الكبرى - أن يتم إدماجهم في المجتمع بالتدريج، قالوا إن لذلك مزايا منها، إتاحة الوقت لهم للتعرف أكثر على طبيعة المجتمع، ومن ثم تحوّلهم إلى جزء أساسي من كيانه، عندئذ يتم ترشّحهم واحتلالهم مقاعد في المجلس التشريعي.

لم ترق هذه المداخلة للفريق الآخر الذي لم يرد إضاعة الوقت، وانتظار مرور السنوات، قبل أن يكون لبلاده موطئ قدم في كل المؤسسات، فربما أرادت بلدهم سحب قواتها في أي وقت، وإسناد المسؤولية الكاملة عن حماية الوطن إلى من في داخله، أليس في وجود من يمثلها في كل تلك المؤسسات ضمانة لاستمرار الحصول على المكاسب؟

حين لم يصل الطرفان إلى رؤية مشتركة، عاد المجتمعون إلى السفير الذي ظلّ يتابع ما يجري عبر أجهزة خاصة، تدخّل طارحاً حلاً وسطاً، أن لا يتم في الانتخابات الأولى، التي ستجري خلال ستة شهور، ترشيح أي من المستوطنين، على أن يتم اختيار ثلاثة أرباع المرشحين من المخلصين جداً للدولة الكبرى، من الذين قامت بتسمينهم وتمهيد الطريق أمامهم كي يبسطوا الأيدي على الاقتصاد والسياسة والإعلام والاتصالات، ويصبحوا من اللاعبين الأساسيين في الساحة، فهؤلاء الأقدر على حشد المواطنين، ما داموا استطاعوا ربط مصالح ملايين البسطاء بهم، وتغلغلوا في المصالح التجارية

والأنديـــة العامة ومراكز الفنون والآداب والسياحة، وحصلوا جراء ذلك على شعبية عارمة، خلال وقت قصير.

قال السفير إن هؤلاء إن سيطروا على غالبية مقاعد البرلمان فإن في ذلك ضمانة كبيرة لاستمرار العمل بالنهج السياسي المرسوم، على أن يـــتم في الـــنهاية قـــبل الترشح وبعد النجاح، تعيين مستشار من المـــستوطنين لكل واحد من هؤلاء، يكون موجهاً ومرشداً في مختلف الشؤون رقيباً عليه.. أيضاً.

مثّل ذلك حلاً نموذجياً لخلاف وجهات النظر، إذ اعتبر الفريق الممـــثل للدولـــة الكـــبرى، أنه يعني من الناحية العملية أن من سيتم اختـــيارهم مـــن أبـــناء الـــوطن، لشغل ثلاثة أرباع مقاعد السلطة التـــشريعية، هم بدلاء عن المرشحين الحقيقيين من المستوطنين، الذين حالت الظروف هذه المرة دون الإعلان عن أسمائهم، لكنهم وإن من وراء ســـتار، ســـيكونون هم النواب، ومن سيجلس على المقاعد، فمجرد "كومبارس"، في مسخرة تحمل اسم الوطن.

كـــل ذلـــك كان يجري في الوقت الذي لا زالت فيه "الأم الحنون"، سائرة على الطريق الذي قررت انتهاجه، ساعية باستماتة لإعـــادة الملك الضائع، وغير قادرة على استيعاب حجم المتغيرات الـــتي حدثت، والتي أيقن فيها أبناء الشعب أن عهداً جديداً حلّ علـــى الـــبلاد، وأن مظاهره تجلت في أمور استهلاكية، يفرح بها الأهـــالي وأطفالهم، حتى وإن كانت في النهاية لا تساهم في تنمية الـــوطن أو بناء أركانه، باتت قضايا الشعب الأساسية تدور حول الهواتف ذات النغمات الراقصة، والحبوب الزرقاء، سوائل الطاقة، وعطـــور الماركـــات العالمية، وملابس الموضة، الوجبات الساخنة والـــباردة، وأصـــناف الكحولـــيات الأحدث، المراقص والملاهي

والحفلات العامة كي يستعرض الشعب فيها مواهبه، ويستعيد عن طريقها أمجاده الغابرة.

كل الأمور تغيّرت، انغمس شباب الوطن فيها، بينما لا زالت الأم في نفس حالتها، تنفق بسخاء على النسوة اللائي انتهت صلاحية اندماجهن في المجتمع، كن يشبعنها كلاماً معسولاً عن الزمن الجميل الذي يجب إعادته، وعن الخير العميم الذي ساد الديار وزيّن رقاب العباد في عهد الزعيم الحنون وزوجته المبجّلة أم هذا الوطن وقلبه النابض الرؤوم.

كانت الأمور تسير في اتجاه، بينما الزعيم وزوجته وابنته البلهاء في اتجاه مغاير، إذ ظلوا يجترون أمجاداً، بات الشعب في منتدياته يتحدث عن نتائجها المدمرة، بعد أن منح السفير لوسائل الإعلام إشارة بدء الهجوم على الفترة السابقة، والتمهيد لإحلال النظام الجديد.

(8)

وفي الوقت الذي كانت فيه الأمور تسير في اتجاه إعداد الدولة لمتغيّرات شاملة، سوف تجعلها تبدأ من الصفر، كان الزعيم على الجانب الآخر قد عاد لكتابة رسائل يعاتب فيها الشعب، لكنه مثلما كان يفعل في المرات السابقة يعود فيكتب رسالة اعتذار، معتبراً أنه ما دام هو الذي يكتب وهو الذي يقرأ ما يكتب، فإن الشعب بالتبعية يقرأها، أليس هو الوطن، وأبو الشعب؟

بات الزعيم الذي اضطلع قديماً بمهمة التفكير نيابة عن مواطنيه في مأزق حقيقي، وهو يرى التجاهل الذي يحصده، لكن رجوع "أم الوطن" إليه كان قد منحه بعض طمأنينة، إذ بات يعتقد أن عودته إلى

الحكـــم ســـوف تتم بإرادة شعبية كاسحة، متجاهلاً في عزّ المأزق، حقيقة أن هذا الشعب لا يندفع لمصلحة ولا لحسابات معقولة، بقدر ما يدفعه الخوف من العصا وأقبية السجون، وهو الأمر الوحيد الذي استطاع هو ومن كانوا قبله من الحكام الملهمين، أن يكرسوه كعادة أصـــيلة من عادات الشعوب، وأن يدفعوا الحكام الآخرين في المنطقة إلى النظر في تلك الخصال التي تصيب الشعوب بالبلادة، كأمر حسن يجب أن يتم استيراده من الدولة الجارة، صاحبة براءة الاختراع المثلي لتحويل الشعب إلى أرانب منكمشة.

بـــات الزعيم في أصعب حالاته، إذ تصوّر بالفعل أن الأمر لن يـــستغرق ســـوى بضعة أيام، سوف تحمله بعدها الظروف المتغيرة لاســـتعادة صـــلاحياته، سيخرج الشعب في مسيرات مليونية يطالبه بالعـــودة إلى أحضانه، وسيرغم الجبناء الذين أهانوه على الفرار من طريق الغضب الجماهيري الهادر.

كـــل تلك الأوهام صعدت إلى ذهنه فجأة، في الوقت الذي لم يكن هناك من يتحدث معه إلا أم الوطن، بحكم الرباط الأبدي، لكنه بعـــد أن عـــادت عن مقاطعتها له، راح يتصور أن هذه السيدة هي الوطن، وأن الشعب كله برجاله ونسائه، شيبه وشبابه، كل من يدبّ على أرضه، ممثلاً فيها، صارت بالنسبة له تشكل مساحة الوطن الذي لم يعد يملك حرية الحركة فيه إلا في مساحة لا تتجاوز 30 متر طولاً، هي تلك التي تأخذه قدماه فيها من مكتبه الرئاسي إلى غرفة نومه، لا يرى من مواطنيه إلا شريكة سنوات عمره، ولا يتنفس من هوائه، إلا الكمية المسموح له بها والتي تدخل إلى غرفة واحدة متربة يكتب فيها رسائل لا لزوم لها، والأخرى تطارده فيها الكوابيس، التي باتت تنبت مثل أرض الوطن، أشواكاً مدببة.

لم يعـد الزعيم يعرف توسطاً في المشاعر، تجتاحه لحظات من الفـرح الغامر، والأحزان الجارفة، كان تفكيره اليومي يصب في ما يمكـن أن يحـدث من أبناء الوطن، وكلما استمع إلى تطمينات من الـزوجة، تجـتاحه حالـة عارمة من السعادة، نوبة من الثقة تدفعه للاعـتقاد أن الـتحوّل المنتظـر قد يحدث بعد وقت قصير، ويقوده الانتظار لتأجيل لحظات النوم، خوفاً من إتيان ثورة الشعب، انتفاضته الكبرى، دون أن يكون مستعداً لها، فلا يتمكن من رؤية بشائرها من شـرفته الرئاسـية، كان يعتقد كمغامر قديم، أن من العيب أن يأتي الشعب لإعادة الاعتبار له، بينما يغط هو في نوم عميق.

لكـن حين تنقضي الساعات بلا أمل ويخترق جبروت النعاس عينـيه، كـان يصحو في اليوم التالي، يشكو من ألم في كل أجزاء جـسده، يتصور أن الكوابيس التي مرّت به حقيقية، وأن هناك من راح يهبط بعصا غليظة على جسده طيلة الليل، حتى أنه لا يترك جزء فيه خالياً من ورم.

كـان هو على هذه الحال، فيما كان خياطو القوانين يسابقون الليل بالنهار، لإعادة صياغة ما يتناسب مع المرحلة التي ستشرق فيها شمـس الوطن على عهد جديد، بات فيه من غير المقبول أن يظل ما كان سارياً أيام الزعيم باقياً على حاله، هذه المرة سوف يعاد صياغة الـوطن، ليس على مقاس رجله السابق، ولا الحاكم الذي قبله، ولا حتى من كان أسبق منهما، بل على مقاس احتياجات الدولة الكبرى ورؤيـتها المخـتلفة لما يجب أن تكون عليه الأوطان النائمة، والدور الـذي يجـب عليها أن تقوم به، ليتم إعادة دمجها في المجتمع الدولي، وتضمن ألا يخرج من الأزقة أصواتاً ناشزة، تطنطن، بكلمات خائبة، من تلك التي كان غير المأسوف عليه، يدغدغ بها مشاعر شعبه.

قوانين للاقتصاد، للسياسة، للسلام العالمي، للتعليم، للمساعدات الإنسانية، للمطالعة الرشيدة، للفن والأدب والغناء، وحتى لإنجاب الأطفال، اتفاقيات جاهزة للتوقيع، قيود على الحركة والبصيرة، أحزاب جديدة ذات توجهات ناعمة، حكومات مستأنسة، ومعارضة أشد استئناساً، وتنافس حاد بينهما على إرضاء كل أم للوطن الجديد، وأمهات معظم الأوطان الشبيهة، القابعة خلف المحيط، وفي المحيط، وداخل الوطن ومعظم الأوطان.

وطن جديد يبزغ، يتم تفصيله بدأب، ووطن لا يزال باقياً في مخيلة مريضة لزعيم مكلّل بالتراب، وبين الوطنين كان المواطنون هم حقول التجارب لتلبية الطلبات، لتوصيلها مثل الوجبات الساخنة إلى المنازل، حتى على الرغم من أن الوطن الذي قسّم إلى أربع شطائر متساوية، وفقاً للعدل والقسطاس، بات مؤهلاً للانقسام إلى وطنين، أحدهما للأبناء الأصليين، والآخر للمستوطنين القادمين، مع اختلاف العادات والسلوك والطباع ونمط الحياة، وهو الأمر الذي لم يكن أي احتمال، لإمكانية نجاح مساعي الاندماج، في ظل وجود حياة رغيدة في شطر، وفقر بطالة وخمول في الشطر الآخر.

في النهاية فإن دولة هي الأكثر قوة في العالم، لم تكن لتقف طويلاً أمام تفاصيل صغيرة كتلك، إذ سرعان ما ستفعل المستحيل وتنجح فيه، ستحوّل هؤلاء الفقراء المعدمين الذين أضاعهم حكامهم، وأزّلتهم النزوات المستمرة له تحت شعارات بائدة، إلى الانبهار بنمط الحياة الجديدة، وتمنّي سريانها على الشطر الذي يعيشون فيه، سوف يرفعون الأكف بالدعاء لنيل نفس النعمة التي يتمرغ في رحابها مستوطنون، باتوا بين غمضة عين وانتباهتها، جزء من سكان الوطن، يعيشون فيه رغم أنف السكان الأصليين، ويتحكمون في مصائرهم.

تسارعت الأمور، فالتغيير الذي تتم تهيئة الأجواء له، بدأ بصياغة القوانين، لكنه امتدّ ليشمل المواد الدراسية التي يتلقاها الأطفال الصغار، بات من الضروري وفقاً لمفاهيم يتم السعي لتثبيتها، أن يكون الخارجون من رحم العملية التعليمية، مطابقون لعلامة جودة حددت الكبار مواصفاتها، وإلا فإن الأطفال سوف يتم تصنيفهم على قائمة المارقين... يتم اعتبارهم بذوراً نابتة لمحاور شر!!

وعلى الرغم من أن هناك العديد من المؤشرات التي ظهرت، إلا أنه لا أم الوطن ولا زعيمه انتبها إلى ما يجري حواليهما، حتى النسوة اللواتي كانت تلتقي بهن كل يوم، يتبادلن احتساء الشاي والثرثرة، لم تتطرق واحدة منهن إلى ما يدور على الساحة، كن في معظم الأوقات يتلقين الهدايا من صاحبة العصمة، بعد أن يدغدغن غرورها بعبارات مخادعة، ويمضين، انتظاراً للقاء الغد.

بدورها كانت تنطلق إلى زوجها تنقل إليه البشارة، كلما التحقت بجلستها عضوة جديدة، كانت تعتبر أن انضمام تلك الطامعة في ذهب المعز، انتصاراً يقرّب الطريق الذي بدأته، تلبية لنداء حامي الحمى.

لم تدرك هي حتى تلك اللحظة أن ابنتها البلهاء، سوف تصبح بعد أشهر معدودة خارج السلطة، و لم يرد إلى ذهن الزعيم أن أطفاله الصغار، سوف يتم تنحيتهم عن قمة الحكم لم يعرفوا أصلاً ما يعنيه، ولا كيف يتم التعاطي مع متطلباته، بل إن الزعيم نفسه لم يعرف أن شطائر الوطن الأربع سوف تندمج في واحدة، على أن تقابلها شطيرة أجنبية، من صنف آخر، وملامح أخرى، تكاد تقاربها في المساحة وعدد القاطنين، لم يعرف بعد أن الوطن الذي أراده إمبراطورية على قدر حجمه، توسعت فعلاً، صار الوطن كبير المساحة، لكنه فقد سماته.. وصار بلا سعر، ولا قيمة.

لم يكن الزعيم وحده هو الذي بات ورقة ساقطة من أوراق اللعب، ولا كانت "أم الوطن" التي تمّ تجهيز المرسوم الخاص بعزلها ومعها الحكام الصغار، وإن أرجئ الإعلان لوقت ملائم، يعقب إعلان المراسيم الخاصة بانتفاء جدوى التقسيم، وبدء إعادة اللحمة للوطن.

لم تكن العائلة وحدها هي من تمّ تفصيل قوانين لأجل عزلها، بل كان المارشال التي أدى دوره على أكمل وجه، وباتت هناك ضرورة لتكريمه بالإبعاد، واختيار واحد من المؤهلين لأداء الدور، بما يتماشى مع نهج المرحلة الجديدة.

لم يكن حتى المارشال ولا الحاشية المقربة، التي ستلحق أيضاً بولي نعمتها، يعلمون أنهم سوف يكونون من بين الضحايا، إذ كانت الخدمات التي قدموها قد أعطتهم انطباعاً بأن الخلود مكتوب على جباههم، وأن المهيمنين الجدد، لن يستطيعوا الاستغناء عن خدماتهم بسهولة، ظلوا يخدعون الأنفس بأنهم في كل الأحوال باقون، ولعل هذا ما أعمى بصائرهم عن رؤية ما يحاك على بعد خطوات، وجعلهم ينتظرون صدور قرارات بالترقي، لا الغدر بهم، وبنفس الطريقة التي عادةً ما يتم التخلص بها من أقرب الحلفاء، بعد أن يكون قد أدى المهام المطلوبة، وانتهت صلاحيته عملياً.

ومع أن المارشال كان هو الذي رشّح خبراء القانون والمستشارين، إلا أن التعليمات التي تلقوها، دفعتهم للتمويه، لقول ما لم يحدث، لبث الطمأنينة في قلبه دون أن ينطق أي منهم بكلمة واحدة، تعطيه مجرد إشارة على أن شيئاً ما يحاك ضده، من ممثلي الدولة الكبرى، وبأيدي الذين جلبهم لإعانته.

الجميع هذه المرة سيزاح لصالح الحاشية الجديدة، ذات الولاء لمن ليس ينتمي إلى الوطن، أدوار محددة، بعدها ممارسة نفس الطريقة،

الاستغناء، الإبعاد، الإزاحة، والإبدال، لأجل عيون رجال تمت صياغتهم لمرحلة مغايرة، وبمواصفات ملائمة.

على الرغم من ذلك، لم يلح شيء واضح في الأفق، المارشال يسير في طريقه، يحدوه الأمل في لعب دور رئيسي في الوطن بطبعته الجديدة، يمني النفس هذه المرة بمنصب عال، يرى أنه بات يستحقه، بعد أن ظلّ عازفاً عن الظهور، لا في أيام الزعيم ولا في الفترة التي تلت حكمه، حين رفض الكثير من المناصب، مفضلاً أن يظل ممسكاً بكافة تفاصيل الحكم، ودقائق تحركات الوطن ومواطنيه، سياساته وقوانينه، مسيراته، وهتافات أبنائه، كل خيوط الوطن كانت موصولة بأصابعه، هذه المرة، بات يسعى أكثر من أي وقت لقطف الثمرة، تلك التي يتصور أنها لن تقل عن منصب حاكم البلاد، أو على أقل تقدير رئيس الحكومة، مكافأة توازي ما ساهم في إيجاده، ما دفع إليه من تحولات كبرى، وما تحمله من شتائم الزعيم صاحب الجناح المهيض.

عليه أن يستعد للحصول على الجائزة، تقديراً للمساعدات الباذخة التي قدمها في إعادة ترتيب البيت، وتأهيل البلاد التي كانت متخمة بالشعارات، للدخول إلى التغيير، لإقامة معسكرات هائلة المساحة للجيوش الصديقة، لاستضافة الأجانب القادمين ثم توطنيهم، لتحجيم الزعيم وزوجته والأبناء، لإبعاد جميع أفراد الحاشية القديمة، واستبدالهم بأخرى يدين أفرادها بولاء للدول الكبرى، أولاً.

فهل بعد خدمات كتلك، يمكن أن يضن عليه الحلفاء بما يستحقه؟ وهل يوجد في الوطن، من هو أكثر جدارة منه بمنصب شغله في الواقع تبعاته، في أعقاب انهيار الحضانة، وإزاحة الزعيم عن

ممارسة مهام الحكم؟ ألم يكن رجل النظام المنهار آخر من يعلم في هذه البلاد، وكانت الأمور كلها تدار من مكتبه هو؟ ألا يعرف الأسرار التي أحاطت بكل عملية جرت خلال السنوات الأخيرة؟ فهل يمكن بعد هذا أن يمر على باله خاطر، مجرد خاطر، بأن الرئاسة سوف تسند لشخص آخر؟

لاحت الفكرة في ذهنه، دفعت نفسها إليه هكذا، بعد أن ظلّ لسنوات طويلة مجرد ظل، راضٍ بما هو فيه، ما دام السير خلف جدار عالٍ يشكّله الزعيم، يحقّق له في النهاية كل ما يريد.

لكن منذ أن أصبح هناك قرار بالتخلص من الرجل الذي تقلبت أحواله بتقلب ظروف الوطن، فإن المارشال راح يجهّز نفسه، ليحل محل صديقه القديم، ما دامت البلاد في النهاية مجرد ضيعة يجب على الأصدقاء تبادلها، وعدم السماح بالتفريط فيها مهما كانت المبررات.

راح يواصل الاجتماعات مع أفراد طاقم القصر الرئاسي، يبحث معهم التطورات الجارية، ويقدم لهم وعوداً بالمن والسلوى، معتبراً أنهم جميعاً يخوضون معركة واحدة، وأن عليهم مساعدته فيها، كي لا يجيء إلى المنصب الذي بذلوا فيه الجهد من لا يصلح، من يعيد فتح الملفات القديمة، ويحاول توجيه السهام المسمومة إلى صدر المارشال وجماعته، كان يسعى بكل ما استطاع للحفاظ على أوضاع يظن أنه قادر على التشبث بها، يعيد تكرار ذات الأوهام التي كان زعيمه وصديقه الحميم يحشو بها رأسه.

وعلى الرغم من أنه أتى بهؤلاء، وساعدوه بشكل حاسم على إطاحة الزعيم من الناحية العملية، إلا أن الأمر في النهاية، كان فوق طاقتهم، فوق الحدود التي تجعلهم يكررون اللعبة ذاتها، في مواجهة

أي قـــوة قادمة سوف تكون هذه المرة على أقل تقدير، مدعومة من الدولة الكبرى، ولديها حظوة عند سفيرها القابع على بعد خطوات من القصر الرئاسي.

جـــاءت المفاجـــأة الأولى بعد أيام قليلة، إذ وصل إلى القصر الرئاسي فريق من العاملين، سبق أن طلبت الدولة الكبرى إرسالهم إلـــيها للالـــتحاق بدورات تدريبية، وصلوا إلى القصر يصحبهم مـــندوب مـــن الـــسفارة، وعلى الفور اجتمع الأخير على انفراد بالمارشـــال، طلـــب منه إصدار قرار بتعيينهم في وظائف حددتها السفارة، كانت ذلك معناه أن يتم الاستغناء عن عدد من أصحاب المناصـــب، يمـــثلون الذراع اليمنى للمارشال، هذه المرة عليه أن يوافق، لكن من الذي يضمن له أن يصبح هؤلاء خواتم في أصابعه مثل الآخرين، الذين انتقاهم يوماً وقربهم منه، فأسدوا إليه خدمات هائلة؟

كـــان مـــندوب السفارة واضحاً، إذ أبلغ المارشال عندما رأى علامـــات التردد في قسمات الوجه، أن الموضوع لا يحتمل الإرجاء، وأن علـــيه تنفيذ الأمر، ووضع هؤلاء في الوظائف التي تمّ تحديدها، وهـــو مـــا لم يجد مفراً من البدء فيه، حتى لو كان لزاماً عليه ابتلاع مرارة الحنظل.

منذ تلك الواقعة، كان كل يوم يمر يحمل حدثاً لافتاً في القصر، فسرعان ما أمسك الموظفون الجدد الذين يعرفون تماماً ما يجب عليهم القيام به، وفي سرعة قياسية، أطبق هؤلاء على أمعاء الوطن، سرعان مـــا مـــنعوا وصول أية أخبار عن المارشال، باتوا يتصرفون في كل الأمور كبيرها وصغيرها، حتى اجتاحه شعور بأن هناك مخططاً لإبعاده عـــن ممارسة صلاحياته، أدرك أن هناك من صعدوا إلى قمة الموقع،

وباتوا من أهم اللاعبين في الساحة، نظر المارشال حواليه، اكتشف بما يشبه المفاجأة أن ما فعله في صديقه الحميم، يحدث له الآن وبنفس التفاصيل، عليه الآن أن يتجرع من الكأس نفسها التي جرّعها للزعيم، التفت يمنة ويسرة، أدرك عندئذ أنه منذ أن رضخ لمطالب ممثل السفارة، ووقّع بيده على قرار إبعاد جوقته، لم يعد في جناحيه ريشة واحدة يمكن أن يطمئن لها.

في تلك اللحظة، أيقن أن الزعامة التي عمل لاقتناصها، بعد سنوات من العيش تحت الأرض، فرّت من بين أصابعه، وأن عليه ليس السعي المحموم لإعادتها، بل لإنقاذ رقبته، إن جاء إلى الحكم واحد من هؤلاء الذين يرفعون الشعارات العريضة عن الطهارة، ومحاربة الفساد، ارتجف لحظة مرور ذلك الخاطر بشدة، انزوى في أحد الأركان وراح يفكر في طريقة للخروج، غير أنه بعد وقت استردّ وعيه، أدرك أن التفكير في أمر كهذا إضاعة للوقت، إذ إن الدولة الكبرى لا يمكن أن تسمح بصعود هذه النوعيات من المسؤولين المزعجين، بعد أن انتهى زمن الحكام الحالمين، أدرك أن هذا الاحتمال ينتظر طرحه، ما دام الذين استبدلوا به وبطاقمه، هم من الذين قامت بتربيتهم وإعدادهم وفق النهج الذي تريد، وهو نهج لن يصب في صالح الحفاظ على ثروات الوطن، ولا رعاية موارده.

الأمر في النهاية هو استبدال مشبوهين مجتهدين، بآخرين أكثر مهارة في ممارسة الفساد، ورعاية الموهوبين البارعين في نهب الشعوب والسطو على المال العام والسلطة وعلى البلاد بأكملها.

بعد وقت قصير، تقلصت مهام المارشال، انفضّ عنه حواريوه، تناقصت أعداد زواره بشكل لفت انتباه من في القصر،

راحـــوا هـــم أيضاً يتجهون بكل همّة نحو الأسياد الجدد، لم يعد المارشال صاحب الكلمة العليا، وبات عليه قبل القيام بأي خطوة، أن يتوجه إلى القائم على شؤون القصر لطلب الموافقة، للاستئذان في الانصراف، لم يعد بعد وقت قصير يمثل أي شيء، لكنه لم يشأ أن يقـــدم اســـتقالته، لم يرد أن يدفع هو نفسه للخروج نهائياً من مكـــان كـــان يوماً هو زعيمه الحقيقي، انتظر كي يرى ما سوف يحدث معه، ما يمكن أن يفعلوه بشأنه، إقالة أم إجبار على التقاعد، أو حـــتى محاكمـــة بأي تهمة من الممكن أن يكون قد تمّ تجهيزها، واختيار الوقت المناسب لها.

راح يـــبدي قبوله بالوضع الجديد، يعرض تقديم خدماته على الأســـياد الجـــدد، لم يجد من يعيره أذناً، انتهى زمنه، ومضى الوقت الذي يمكن إضاعته في الاستماع إلى نصائحه، اختلف الطريق الذي تمّ تعبـــيده علـــى أكـــتافه وحوارييه، تجاوزته الأحداث، أصبح هو وخدماته جزء من الماضي غير المرغوب فيه.

ظـــلّ المارشـــال، خائفاً من أي فكرة لمغادرة المكان، قد تجلب معها احتمالات المحاكمة، وتهم الفساد، قرّر أن يظل في القصر مثلما فعـــل الزعيم، ولو بدون صلاحيات، مجرد شبح فوق كرسي داخل مكتب، خطّ التراب علاماته فيه.

لم يجـــد غـــير الـــزعيم، صديقه الحميم السابق ليذهب إليه، ليجالـــسه، يبـــثّه همومه، لكن المهيب المعزول في واد آخر، بعد أن أخـــذت لمعـــة العقـــل تخبو، وراح فتيل الشمعة يقترب من لحظات الخرف.

بـــات الـــزعيم لا يـــدري من هذه الدنيا شيئاً، سوى الطريق الواصل ما بين مكتبه وغرفة نومه.

فيما كان المارشال، يدخل إلى المكتب الرئاسي ويخرج، واضعاً نصب عينيه، السيناريو ذاته، الذي سيكون فيه مثل ذلك الرجل المترب الأشعث، التائه عن الدنيا والبشر والعالم.

(9)

ظلّ الرجل الذي كان يوماً ملء السمع والبصر، وحيداً، حزيناً، تقلص معنى الوطن، وانحسرت المساحة المتروكة للشعب، أخذ الوطن يتجرع همومه، وراح الزعيم يعبّ الحسرة، يغيب في نوبات، يقترب عبرها من فقدان العقل، يستلبه النوم، فيبحث في داخله عن أحلام مفرحة، تطارده الأشواك والكوابيس، ولا يأتي الفرح.

انزوى المارشال هو الآخر، في مكتبه المترب وحيداً، وانقطع عن الدنيا، نام الشعب أيضاً، استبدل عروقه، ضخّت في شرايينه دماء أخرى مخادعة، أصابته بخيبات جديدة، أشد قسوة مما عانى، على يد الثوري المغامر، الرافع لشعارات التغيير والعدالة والحرية والمساواة، نفس الثمار المريرة التي جناها، عاد ليجنيها، وإن كانت هذه المرة من أصناف مختلفة.

ظلّ طعم العلقم، مقيماً في فم الشعب، فيما كان حامي الحمى، المهيب المهاب، المؤمن المزمن، الهادر، الناهر، النافر، الباتر، يضمحل، لحظة بعد أخرى، قابعاً في مسافة تقلصت فيما بين سريره ومكتبه الرئاسي، لا يشعر بأحد، ولا أحد يفكر فيه، إلى أن جاء اليوم الذي انتشرت فيه رائحة عفنة، زكمت أنوف من ضمهم القصر الرئاسي، فانطلقت ثلة من الخدم تبحث عن مصدرها.

هـــناك، شـــاهدوا جـــثة مكوّمة يعلوها التراب، تتوسد مكتباً ضخماً.

لم يجدوا صعوبة في التعرف على صاحبها.

... جسد متهالك، ووجه ممصوص

كان يطلق عليه يوماً:

والد الشعب

... وحامي الحمى

...!!!

انتهى